لوحتا الغلاف





السقا .. زمان

للفنان الحسين فوزى

صورة من الماضى .. كادت معالمها ان تضيع فى ظل امجاد الثورة

رسمتها ريشة الفنان لتسجل كفاح الانسان الذى عاش على ضفاف النيل ، يحمل ماءه على كتفيه .. الى بيوت القرية !!

وهذه الخطوط المحفورة على جبين (عم احمد) وفى خديه .. والعروق النافرة فى رقبته وساعديه ، وقبضة يده المتشبثة بالحبل المدلى يحمل الجرة .. انها رمز لكفاح الملايين من الفلاحين فى مصر .. عبر السنين ، وارتباطهم بالارض والنيل واهب الحياة .. والطبيعة ، التى اصبح كل واحد منهم .. وكأنه قطعة منها

وقد اختار الفنان اسلوبه الأكاديمى التقليدى ليتفق مع رصانة الموضوع وطبيعته الجادة .. مع بعض السماحة الزخرفية التى عالج بها تكوين اللوحة فى مجموعها . واكدها فى نسيج خلفيتها الذى تعانقت فيه فروع الشجر مع النير الذى يحمله السقا على كتفيه وهيكل المركب الرابض بعيدا على حافة النهر

الورقة الخضراء

للفنان يوسف فرنسيس

انها رمز الربيع ... وتفتح الفتاة للحياة والحب .. ترهبها منه تقاليد متوارثة وخوف مجهول .. يفضحه القلق الحائر ، فى العيون

كل هذه المعانى فى لوحة «الورقة الخضراء» ترتسم على ملامح اصيلة من الجمال الكلاسيكى

ولكن الفنان يبارك هذا الجمال بلمسات من العلاج التشكيلى المتطور فيربطه بسمات عصرنا الحديث ..

ثم يحاول ارجاع هذا العنصر الانسانى الى مكانه وسط الطبيعة فيرفض ان يعلق الستائر التقليدية فى خلفية لوحته ، .. وانما ينبت حول فتاته مادة من افرازات الطبيعة ، فيها من الخشونة ما يبرز ليونة الوجه .. ويؤكد نضارته !!

وهو يطلق هذه الجدائل من الشعر ، وينثرها مشدودة الى صدر الفتاة كأنها معذبة تحاول الخلاص ، وهى رمز لثورة الشباب

وتتوافق كل هذه المعانى الرومانتيكية مع الوان اللوحة الناعمة المسالمة ، التى تقتصر على الرماديات ، ولمسات من الوان اخرى خفيفة كالأطياف الباهتة ..

واللوحة بعد كل هذا ليست صورة لوجه معين ، وانما هى قصيدة رمزية ، تعيش فيها الفتاة كالورقة الخضراء التى تنبت بلا غصن . وهى متعطشة الى التكامل فى مغامرة الحياة .. تزدهر فى الربيع .. وتعاند زياح الشتاء !!

الرسوم الداخلية للفنانين

- اسماعيل طه
- محمد قطب
- جميل شفيق
- مكرم حنين
- عز الدين نجيب
- محمد شفيق
- وجدى حبشى
- خطوط : جابر الجيار

هذا العدد....

هذا العدد الخاص بطلائع القصة القصيرة عندنا أرادت به ((المجلة)) ـ احساسا منها بواجبها فى التضامن الثقافى ـ أن تسد شيئا من الفراغ الذى أحدثه احتجاب مجلة « القصة » الشهرية • وكانت هذه الطلائع تجد فيها متنفسا لها ومرتقى ، واختارت « المجلة » لهذا العدد الخاص شهرا قائظا قد يحب فيه القراء أن يتخففوا •••

فلا يزعم هذا العـدد أنه شـمل جميع التيارات أو استقل بأرقى المستويات ، وانما هو يمثل فى الحدود التى يسمح بها حجم « المجلة » قطاعا من طلائع القصة ، متباين الوحدات ، هو أشـبه شيء بمرحلة فى دراسة ميدانية ، تحث على المضى بها حتى تكتمل الصـورة ، ولا تمنعها نظرتها البريئة من أنها تلقى الضوء على المواهب الكامنة وأنواع من العثرات الشائعة • والقطاع الذى نقدمه هو ممن دخلوا الميدان الأدبى ونشرت لهم المجلات والصحف والاذاعة شيئا من قصصهم فانعقدت عليهم الآمال •

وارادت المجلة كذلك ان يسود هذا العدد روح من المساندة والتضامن بين الأجيال ، وبين الكتاب والنقاد ، فوزعت القصص على نخبة من الكتاب المذكورين فى تاريخنا الأدبى • وعلى النقاد الموثوق برأيهم ، فتفضل كل واحد منهم بالتعليق على القصة التى كانت من نصيبه •

هذه الروح هى التى أوحت الينا أيضا أن نعهد الى اثنين من خيرة طلائع الدارسين ليتقاسـما التعـريف بالانتـاج القصصى ، فى الداخل والخارج •

وليست الشكوى هى من صعوبة النشر وحدها بل من تخلف النقد عن متابعة الانتاج • عند جميع من يقدمون على كتابة القصة تعطش شديد لمعرفة رأى النقاد فيهم ـ بكلام حلو أو مر ـ هكذا يقولون • هم فى عذاب من يصرخ فى واد ، حتى الصدى لا يعود • ومطلبهم حق ولاريب ، ولا تحل المشكلة الا اذا تفرغ ناقد فى كل مجلة أو صحيفة لمتابعة الانتاج ووزنه ، وقد لحظ المهتمون بالأدب ـ فى شيء من الانزعاج ـ أن نمو عدد الكتاب لا يماثله نمو فى عدد النقاد •

والأمل كبير فى منحة التفرغ أن تسد هذه الفجوة ، بل أمضى فأطالب بزيادة عدد البعثات التى نوفدها لدراسة أصول النقد •

ومن الخير أن لا يقتصر النقد على تفسير المضمون الاجتماعى للقصص ، كما هو الغالب عليه ، وأحب أن يشيع فيه ما أسميه بالنقد الحر فى أى كيف يفصل الكاتب قماشه الذى نسجه ليصنع منه أجمل ثوب لفكرته ـ أى

جانب الصنعة • فلا فن بلا صـــنعة • ومن حسن الحظ أننى وجدت فى التعليقات على قصص هذا العدد شيئا مما أطالب به •

وأحب هنا أن أشيد بشجاعة زميلى الاستاذ يوسف الشارونى الذى لم يتهيب أن يظن الناس به أنه يتحدث عن نفسه ، فلم يبخل بكشف أسرار الحرفة فى صناعته لقصصه ، لا يفعل ذلك دلا واستكبارا ، بل تواضعا ، لخدمة رفقائه فى الدرب وللقادمين عليه،حبذا لو حذا حذوه أعلام القصة.

واذا كان كثير من التعليقات قد مال الى التفاؤل ـ أنظر تعليق نجيب محفوظ والسيدة سهير القلماوى ـ فاننا نستطيع مع ذلك أن نستخلص من هذه التعليقات ـ رغم رقتها ـ أهم العثرات •

وتأتى اللغة فى مقدمتها ، هى المادة التى يشتغل بها القصصى فكيف لا يكون ملما بطبيعتها وطاقاتها كل الالمام • « أنظر تعليق الاستاذ عز الدين اسماعيل » ويخيل الى أن كثيرا من كتاب القصة منبت الصلة بمنابع لغته فهو غير مستوعب لسليقتها ، وكيف نطوع اللغة لمطالب العصر الحديث اذا لم نقبض أولا على ناصيتها ، واللغة العربية لا حد لثرائها ، معنية برصد الاطياف والفروق الدقيقة ـ على عكس ما اتهمت به،بل لحروفها أسرار. سيظل الفقر اللغوى والفقر الفكرى توأمين لا ينفصلان • ينبغى أن لا ينسى هؤلاء الكتاب أن القصة هى قبل كل شئ عمل أدبى ، انها ليست حكاية تروى بأى كلام • والا قنعت بأنها تهدف الى التسلية • والتسلية ليست مطلبا فارغا ، سنجد القصص المسلية فى كل زمان ومكان • والقصة الأدبية ينبغى أن تكون مسلية أيضا ، ولكن تسليتها هى فى القدرة على نزع القارىء من نفسه وجوه ، الى عالم الفن ، فاذا كان لا فن بلا صنعة فكذلك لا قصـــة بلا أسلوب • ان هبوط المستوى اللغـــوى فى معاهدنا التعليمية ولا استثنى الجامعة ـ وعليه شواهد كثيرة ـ نكبة لا أدرى كيف نغفل عنها أو كيف نعالجها •

ثم تأتى بعد ذلك عثرات الصنعة ، (اقرأ تعليق الدكتور رشاد رشدى مثلا) • واذا استثنينا النبغاء الذين قد يقال عنهم أنهم من الملهمين فلابد لمن هم دونهم ـ وفيهم أصحاب المواهب أنفسهم ـ أن يتعلموا كالتلاميذ أسرار صنعتهم ، والنماذج الرفيعة مبذولة أمام كتاب القصة ولكنهم يكتفون بأن تكون نظرتهم اليها نظرة القارىء العادى الذى لا يريد الا أن يعرف مضمونها • أحب للواحد منهم ان يتناولها كما يتناول نجار مثلا قطعة من الأثاث صنعها أوسطى مشهور ، فهو يتأمل قبل كل شىء كيف صنعها • فتكون لهم قراءة للنموذج مرة واخرى لينتهوا الى اقسام القصة وارتباط بعضها ببعض ، ماهو دور الأسطر الأولى ؟ كيف جاء الانتقال من السرد الى الحوار أو من ضمير المتكلم الى ضمير الغائب مثلا •

وحبذا كذلك لو تحول انتباه هؤلاء الكتاب عن انتاجهم الى ذواتهم ؟ فلا فن الا من عمل فنان . والفنان لا يشابه الرجل العادى ، بل هو متميز عنه أشد التميز ، اتساع أفقه الذهنى والروحى ، قدرته على فهم مختلف العواطف واستيعابها ، صلته الوثيقة بالطبيعة من حوله ، احساسه المرهف بالجمال . مزاجه الذى ينفرد به عن بقية الناس ، فقبل أن يشقى كاتب القصة ببناء عمله ينبغى أن يشقى ببناء نفسه .

وقد لحظت لحسن الحظ أن كتاب القصة من الجيل الجديد يأخذون عملهم مأخذ الجد ، أكثر مما كان يفعل أبناء الجيل السابق ، كانوا سادة من الهواة . الجيل الجديد أشد احساسا بالمسئولية الملقاة على عاتقه ، وانتباها الى دوره فى خدمة الوطن .

بقى سؤال آخر : هل نجد فى القطاع الذى نقدمه انعكاسا لحياتنا من مختلف جوانبها . أم نحس انه بمثابة نظرة جانبية ، لا تنفذ الى الصميم . هموم أفراد فى عزلة لا فى اندماج . لعل هذا الاحساس هو الذى أثار القول بأن القصة القصيرة تمر بأزمة ، اننى اعتقد أن التحول الاشتراكى فى مجتمعنا كان من حقه أن يكسر ترتيب المذاهب بعضها اثر بعض ، كلاسيكية ، رومانسية ، واقعية ، رمزية وسريالية ثم عبث ولا معقول . فيكون هو نقطة ابتداء .

وكما تمردت المدرسة الحديثة فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ على الرومانسية لتتكفل بدراسة واقعية للمجتمع الجديد وفرز انماطه الطارئة والتمهيد لنموه نحو غاياته فاننا فى حاجة كذلك الى ثورة على المذاهب السابقة للتحول الاشتراكى من أجل مدرسة واقعية تعكس المجتمع الجديد وفرز انماطه لطارئة والتمهيد لنموه نحو غاياته . وما أكثر الانماط الجديدة وأعجبها . الفلاح المستعبد أصبح مالك أرض . عامل التراحيل يعد الآن من العاملين الخ الخ .. من الذى يرصد هذه التحولات البليغة ؟ الرمز أو السريالية أو العبث واللامعقول ؟ لا . بل المدرسة الواقعية . ولكن بدلا من ذلك وجدنا أنصار هذه المدرسة قد تركوها بعد التحول الاشتراكى الى الرمز فنمت بعده قبل الأوان تيارات تمت الى السريالية واللامعقول .

هذه القلقلة بين المجتمع وأدبه هى تفسير مانجده فى أغلب القصص من لون قاتم : احساس بالضياع والانسحاق ، يأس وقنوط . ان هذا اللون يرهق أعصابنا ، ونود لو غاب أو على الأقل لو تراجع . وتبقى المسألة فى نهاية الأمر : كيف نبتعث المذهب الواقعى فى اطار عصرى له ملامح مصر .

يحيى حقى



ملامحه واتجاهات

بقلم: صبري حافظ

بالرغم من أن مستقبل الاقصوصة المصرية ليس الا امتدادا ، بصورة من الصور لحاضر هذه الأقصوصة وللرحلة الطويلة التى قطعتها منذ لحظة الميلاد حتى اليوم • فانه بصورة أخرى يشكل وجها مغايرا لحاضر هذه الأقصوصة • بالدرجة التى نحس معها بأن الأقصوصة قد اطمأنت لصلابة الأرض التراثية التى تتحرك من فوقها والتى صنعتها الأعمال الجادة لكتابها الكبار فى مصر ، بدءا من عيسى عبيد وطاهر لاشين حتى ادوار الخراط وأبو المعاطى أبو النجا • ومن ثم فانها أخذت تستجمع قواها المبعثرة لتبدأ رحلة جديد ترمى بها الى أن تكون أكثر الفنون بلورة وتعبيرا عن جوهر اللحظة الحضارية التى تعيشها اليوم وتصدر عنها • وتجنبا لان نتعثر — عند تلمسنا لملامح هذه الرحلة الجديدة ولاتجاهاتها — فى سراديب التكهنات والتعميمات المبشرة ، سنحدد بداءة الاسباب التى دفعتنا الى الاهتمام بهذا الموضوع والتى ستشى بالضرورة بطبيعة هذه الدراسة وبخطوطها الرئيسية •

فقد كثر اللغط فى الايام الأخيرة حول القصة القصيرة ، وادعى الكثيرون أنها تعانى من أزمة اختناق حادة ، وأن مستقبلها محاصر بعدد هائل من علامات الاستفهام ، الى الحد الذى اختلطت معه الاصوات المخلصة بالصرخات السيئة القصد • وتزايدت الاتهامات المنهالة عليها وعلى كتابها بالغموض أحيانا وبالسذاجة أحيانا أخرى • أدى الى تفرق السبل بكتابها — الشبان خاص بصورة ملحوظة ، وتعثر بعضهم فى دروب تفضى غالبا الى نهايات مسدودة • وبرغم التشتت أو ربما بسببه أثرت هذه الرحلة ال الأقصوصة المصرية بخبرات وتجارب عديدة . صعيد الشكل — يمكننا أن نقول بأنها تكاد ت إن لم تفق كل التجارب التى مرت بهـ الأقصوصة طوال النصف الأول من هذا الق وهى تجارب تطرح على الدارس عددا هـا التساؤلات والقضايا التى تفرض نفسها على النقدى لهذه المرحلة الهامة من تطور الأق المصرية •• خاصة وأنه من دور النقد الأسا تصورى — الاهتمام بهذه الحركات الجديدة وا الهامة التى تنتاب وجه الأقصوصة ليتعرف الطريق الذى عليها أن تمضى فيه الى نهايته المسارب التى يجب عليها أن تتخلص م طاقاتها عبرها •

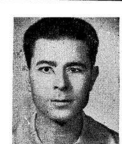
لكل هذا يلزمنا أن نستشرف مست الأقصوصة كما يطل علينا من خلال كتابات شبانها الموهوبين الذين يحثون الخطى باة نحو منابع هذا الفن بخطوات تتسـ والصلابة • وأن نحاول عبرا الدراسة لعدد من أعمالهم الجيدة أن نتلمس ملام



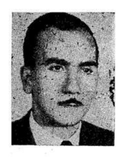
محمود البدوى



نجيب محفوظ



سليمان فياض



محفوظ عبد الرحمن

الجديدة التى تستجمع الأقصوصة ، على أيديهم ، قواها المبعثرة من أجلها • وأن نتعرف على طبيعة الاتجاهات الفنية الأثيرة لديهم ، وعلى نوعية القضايا الاكثر الحاحا عليهم •• فهم يحاولون عبر هذين الرافدين أن يحققوا للاقصوصة المصرية بعض الاضافات الجديدة على صعيدى الشكل والمحتوى أو بمعنى أكثر تحديدا على صعيد الرؤية • خاصة وأن انتاج هذا الجيل الجديد من الشبان يثير العديد من القضايا والمشاكل التى لم يطرحها أى من الأجيال التى مارست كتابة الأقصوصة قبله •• أبرزها تلك القضايا والمشاكل التى ترتوى من جموح الكثير من اتجاهات الأقصوصة المصرية فى دروب لم يسمع فيها وقع لقدم مصرية من قبل ، ومن طبيعة المرحلة الحضارية التى يصدر عنها هؤلاء الكتاب ويمارسون فى ظلها ابداعهم ، ومن نوعية الهموم الخاصة بهذا الجيل والتى تطل برأسها ، ليس عبر كتابات واحد منهم ، ولكن عبر مجموع كتابات هذا الجيل كله ، كل واحد منهم يصوغ بعدا من أبعادها ويبلور ملمحا من ملامحها •

ومن البداية نحس بغياب الخط الواحد الذى ينتظم أعمال هذا الجيل • اللهم سوى ذلك القلق المتوتر الذى نستشعره تحت السطح فى كل أعمال هذا الجيل وكتاباته • وذلك التوق العارم الى شيء غامض ، لم تتوضح معالمه بعد ، ولكن البحث الدائب عنه هو القاسم المشترك الأعظم بين كل من مارس باقتدار كتابة الأقصوصة من شبان هذا الجيل الحائر القلق • وربما قيل ان هذه طبيعة أى جيل يتلمس طريقه أو يحاول البحث عن نفسه ، غير أن من يحاول النفاذ يتلمس طريقه أو يحاول البحث عن نفسه ، غير أن من يحاول النفاذ الى طبيعة هذا التوق سيحس ، ليس باختلافه فحسب عن قلق التعثر بين الدروب والبحث عن أكثرها صلاحية ، ولكن أيضا باهتمامه وتجسده عبر أشياء قيمية بالدرجة الأولى وببلورته لحالات وجدانية ذات نوعية خاصة • لذلك فقد انعكس ذلك التوق فى صورة اهتمام مشترك من كل هؤلاء الشبان بشكل الأقصوصة ، واحتفاء بالتجارب الفنية الجديدة فى حقلها • الى الحد الذى دفع الكثيرين الى استشعار غموض رهيب يحوم حول مستقبل الأقصوصة المصرية من جراء هذا الاسراف فى الاهتمام بشكل الأقصوصة وتجريب عشرات الأساليب الفنية التى أفضى بعضها الى طرق شبه مسدودة ،فساهم فى ميلاد هذه النظرة التشاؤمية الصارخة دائما بأن الأقصوصة فى محنة ودعمها •

غير أننى ـ وخلال دراستى لعدد كبير من أقاصيص الشبان الجيدة والرديئة ـ أحسست أن كافة التجارب الفنية الجادة ، سواء نجحت فيما تهدف اليه أو فشلت ، والتى ركزت جزءا من اهتمامها على شكل الأقصوصة ، كانت تعتنق بصورة أو بأخرى ، فهما معينا لطبيعة البناء الفنى ، يرتوى من الظروف

الحضارية التى يصدر عنها العمل الفنى من جهة • ومن الفهم الناضج لطبيعة العملية الابداعية من جهة أخرى ، والذى ساهم تراث الأقصوصة المصرية الخصب فى انضاجه وتعميقه • فقد كانت معظم هذه التجارب تصدر ، لا عن رغبة فى التجديد أو افتعال قضايا تكنيكية أو الجرى وراء آخر منجزات الأقصوصة الغربية ، ولكن عن احساس عارم ـ عفوى غالبا وواع أحيانا ـ بأن على الأقصوصة أن تخوض مرغمة هذه المغامرة الخطرة لتتمكن من التعبير عن جوهر اللحظة الحضارية التى تصدر عنها والتى اضطرت عددا كبيرا من الأشكال الفنية الى التسربل بوشاح ثقيل من الرموز وأساليب التعبير المعقدة • حتى تتمكن من نقل كل ماترتعش به وجدانات القارىء الذى يعيش هذه اللحظة الحضارية المعقدة ، وتخرج من الخاص الى العام بالاعتماد المباشر على الخاص وحده • بل لقد ذهبت الأقصوصة ـ دون غيرها من الأشكال الفنية الأخرى ـ بهذه المغامرة الى آفاق لم يسمح فيها وقع لقدم مصرية من قبل • ليس فقط لأن الأقصوصة ـ كما يقول فرانك أوكرنر ـ هى صوت هذا العصر المكتظ بالوحدة والوحشة وفقدان الأمان • ولكن أيضا لأنها أقدر الاشكال الفنية ، بطبيعتها ، على أسر هذه اللحظة الزئبقية الغامضة داخل بنائها الفنى المركز ، وعلى المضى فى مغامرة التعبير عنها الى أقصى الحدود •

لذلك فقد نحت الأقصوصة ـ خلال مغامراتها تلك ـ مناحى متعددة •• فانطلقت أحيانا من الفنتازى(١) مستفيدة من جناحيه الكبيرين ـ الرمز والأسطورة ـ لتحوم بالقرب من الواقع بصورة أكثر أصالة وأعمق تعبيرا عن هذا الواقع الذى تصدر عنه •• وانتهجت فى أحيان أخرى أسلوب المعالجة البسيطة المباشرة المتسمة بالتركيز الحاد على الجزئيات الخارجية وحدها ـ كما هو الحال عند همنجواى ـ كوسيلة فعالة لاضاءة الموقف وكشف كل أبعاده وتعريتها للقارىء ، لا عبر الغوص فى المسارب والسراديب الخلفية للموقف أو الشخصية ، وتقديم أعماقهما واضحة للقارىء ، وناضجة بكل ما وراء المظهر الخارجى من امكانيات للفهم والاكتشاف •

وفى أحيان ثالثة ، حاولت الأقصوصة أن تحلق فى سماوات الشعر الرحيبة ، وأن تستفيد من قدرات الشعر الكبيرة على التركيز والتصوير والايحاء • وان استسلم جزء كبير من هذه المحاولة لاغراءات الصور المركبة واستطرادات المنولوجات الطويلة المفككة ، التى وقعت بها فى التعقيد والابهام دون ما مبرر فنى واضح • غير أن ثمة جزءا آخر لا يستهان به من أقاصيص هذا النوع ، نجحت ـ باقترابها من جوهر الشعر ـ فى أن تقدم لنا أعمالا فنية ناضجة ، ارتفع قليلها الى مستوى بالغ الروعة عندما أخذ فى اعتباره ليس فقط قدرة الكلمة على التركيز والايحاء باعتبارها رمزا ووعاء للمعنى ، ولكن أيضا امكانيات الكلمة الجرسية وموسيقاها باعتبارها صوتا يستطيع أن يحمل عبر مسافاته النغمية الكثير من الدلالات الموحية كما فى أقاصيص الأمريكى المؤثر للعزلة د • هـ • سالينجر • وفى أحيان رابعة تغامر الأقصوصة المصرية بطموح شديد فى مجال مجاراة الذهنية المصرية التى تربت على الحكايات التقليدية الواضحة التسلسل والمكتظة بالأحداث المفاجئة والمفارقات الزاعقة ـ فى محاولة منها لتشييد بناء فنى جديد فوق هذه الأرض القديمة ، ضاربة عرض الحائط بكل القيود الفنية والمعايير المدرسية لفن الأقصوصة ، جاعلة من هذا الخروج المنظم الواعى على القيود والمعايير الفنية نظاما فنيا له سماته الخاصة وطعمه الفريد وقدرته على التعبير الفنى عن المرحلة والقضايا التى يصدر عنها •• وفى أحيان خامسة وأخيرة نجد أن كثيرا من كتاب الجيل الجديد من الأقصوصة يواصلون السير أو التسكع فى نفس الدروب التى استهلكتها الأقصوصة المصرية فى مسيرتها الطويلة التى تشكل عبرها حاضرها وتراثها ، باقتدار يجبرنا على ألا نتجاهلهم وان كان لا يدفعنا الى أن نهتم بهم أو نوليهم عناية خاصة •

غير أن الوحدة الكامنة تحت قشرة الوعى من كل هذه المحاولات المتنوعة والتى تربطها كلها ، هى احساس هذه الأقصوصة المصرية الحديثة ـ بدرجة أكبر من غيرها ـ بكل ما تعانى منه الفنون المصرية من أدواء وبكل ما مرت به من عثرات • وطموحها الى التخلص من هذه الأدواء واجتياز تلك العثرات المزمنة • فالأقصوصة ـ دون الشعر أو الرواية أو المسرح فى مصر ـ هى الفن الذى تنبه قبل غيره لطبيعة الأزمة التى تعيشها الفنون فى مجتمع يتحول باستمرار ، ويفرض عليه هذا التحول مناخا سياسيا وفكريا معينا • ربما لأنها أكثر الاشكال ملاءمة لمرحلة من هذا النوع وأقدرها تعبيرا عنها • وتناولا لأكثر أجزائها استعصاء على المعالجة • فطبيعة الأقصوصة

(١) لم أستعمل كلمة (الخيال) لأن مدلولها العربى لا يفى بالمعنى المحدد فضلا عن تشوشه ، كما فضلت كلمة الفنتازى على كلمة السريالية لأنها أعم منها وأعرض •

كشكل فنى له تقاليده ، بل وأذهب الى القول بأن له موضوعاته أيضا ، تمكنها من التقاط الأبعاد الجوهرية لهذه اللحظة المتغيرة دوما ، والتى لا يستطيع أى شكل فنى آخر أن يأسرها فى داخله بهذا الاقتدار والعمق الذى قدمته لنا الأقصوصة • فكما أن لكل شكل فنى تقاليده وموضوعاته ، نجد أن لكل لحظة حضارية معينة موضوعاتها التى تلح فى طلب العلاج ، والزاوية التى تفرض أن تتم عبرها هذه المعالجة • وبالتالى الشكل الفنى الأكثر قدرة على تقديم هذا الموضوع الملح من الزاوية السليمة • وهذا لا يعنى بأى حال من الأحوال الحكم بالاعدام على كافة الأشكال الفنية الأخرى أو مصادرة حقها فى تناول هذه اللحظة أو الصدور عنها •• وكل مايعنيه هو أن ملاءمة الأقصوصة — بصورة أكبر من غيرها من الفنون — لهذه اللحظة التاريخية ، يضاعف من مسئوليتها من جانب • ويفرض على الناقد أن يزيد اهتمامه بها من الجانب الآخر ، حتى يساعدها على أن تضطلع بهذا الدور الكبير ، وأن تحقق الآمال المعقودة عليها • ليس فقط فى التعبير عن هذه اللحظة التاريخية ، ولكن أيضا فى زيادتها ومساعدتها على اجتياز عثراتها •

* * *

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان المتأمل لحصاد أعمال الجيل الجديد من الكتاب — يلمس فيه شعورا عفويا ولد فى أكثر من مكان وفى أكثر من اتجاه فى لحظة واحدة تقريبا ، بضرورة رأب الصدع بين العام والخاص والذى تفشى فى الأدب المصرى بصورة مزعجة استحوذت على كثير من نماذجه الجيدة • اذ نجد أن الأعمال الفنية التى تركز على الخاص وحده ، دون أن يكون فى لاوعيها توقا واضحا للانطلاق عبره الى العام ، كانت تفشل فى أحيان كثيرة فى الارتفاع منه الى أشياء عامة تتحرر من أسوار هذا الخاص الضيقة •• فيبدو العمل بذلك وكأنه أكوام من اللحم الطرى الذى يفتقر الى هيكل عظمى يشد أجزاءه المترهلة بعضها الى بعض ، ويمنحها القدرة على التماسك والصلابة فى مواجهة الزمن وعواصفه •• هذا فى الوقت الذى يسيطر فيه التخطيط الذهنى القسرى على أغلب الأعمال التى تلجأ مباشرة الى بلورة قضايا عامة ذات طابع فكرى أو فلسفى • بالصورة التى يلوح لنا العمل معها كهيكل عظمى لا يكسوه لحم الحياة •• لهذا العيب الرئيسى تنبهت الأقصوصة المصرية فى رحلتها الجديدة • ومن ثم فقد حاولت أن ترأب ذلك الصدع الرهيب بين العام والخاص فى العمل الفنى ، طامحة الى خلق عمل فنى ناضج يكسو عظام الفكرة فيه لحم الحياة ، والذى يستطيع وحده أن ينطلق من الخاص الى العام بالتناول الحساس لهذا الخاص وبالرؤية الذكية الواعية لأهم أبعاده • لذلك فاننا نجد أن النماذج القليلة الناضجة التى نجحت فى رأب هذا الصدع ، استطاعت أن تمنحنا أعمالا فنية ممتعة وشديدة البساطة وفى الآن نفسه مليئة بالأصالة والتعقيد • ومن ثم جديرة بأن تكون المعبر الحقيقى عن صوت هذا الجيل وعن آلامه وآماله • وبأن تبلور تضوره المؤلم فى فيافى الوحدة والوحشة وفقدان الأمان • حاملة بين طياتها وعبر جزيئاتها المتناهية الدقة ، فوق أغلب أبعاد اللحظة الحضارية التى تصدر عنها وأهم قضاياها ، رؤى الفنان الواعية لهذه اللحظة والتى تساعد القارىء على أن يكون أكثر فهما لها وأعمق احساسا بها •

غير أن هذا النجاح لم يتحقق عبر الدروب الخمسة التى سلكتها الأقصوصة المصرية فى رحلتها الجديدة تلك بنفس الدرجة كميا أو كيفيا•• بل تفاوتت نسبته بصورة كبيرة تكشف لنا امكانيات العطاء التى باستطاعة كل درب من هذه الدروب الخمسة أن يجود بها ، كما تساهم فى وضع أيدينا على الطرق التى على الأقصوصة أن تمضى بمغامرتها الفنية فيها حتى نهايتها • وعلى الدروب الأخرى التى عليها ألا تبعثر طاقاتها على جوانبها بعد أن أرهص الجزء الذى قطعته فيها بعقم المضى فى الشوط حتى آخره • وحتى لا نقع فى وهاد التعميمات أو اطلاق الأحكام على أى من هذه الدروب المعطاء منها أو العقيمة ، علينا أن نتناول — عبر النماذج وبالاستعانة بالدراسة التطبيقية ما أمكن — كل درب من هذه الدروب وندرسه على حده •• حتى تضع الدراسة التطبيقية نفسها النقاط فوق الحروف وتشير الى التيار الشديد الثراء لتميزه عن التيارات العقيمة التى لا تفضى الى شىء •• وقبل أن نبدأ فى دراسة هذه الاتجاهات كل على حدة ، نحب أن نشير الى أننا سنهتم بتتبع الروافد المصرية لأى من هذه الاتجاهات ، وقد نلمس بسرعة أصولها الغربية •• غير أن هذا لا يعنى أن هذه فقط هى كل روافدها • فقد سبق أن خاضت الأقصوصة العربية فى بعض البلدان العربية الأخرى ، غمار بعض هذه المغامرات وفى وقت مبكر عن مصر ، الى الحد الذى ساهم فى ميلاد الكثير من هذه التيارات الجديدة أو مدها بالخبرة التطبيقية على الاقل •• ولما كان هدف هذه الدراسة محصورا أساسا فى نطاق الاقصوصة المصرية وحدها ،

فاننا سنشير بسرعة الى هذه الروافد العربية ، دون الخوض فى تفاصيلها ، مع اعترافنا بأهمية هذه التفاصيل وبقدرتها على كشف الكثير .. والآن سنحاول دراسة هذه التيارات والتعرف على أهم ماقدمته على صعيدى الشكل والمضمون عبر انتاج أهم كتابها الموهوبين .

١ ـ الرمز والأسطورة .. والانطلاق من الفنتازى

لا نستطيع أن نعثر لرحلة الأقصوصة المصرية فى هذا الدرب الجديد على جذور واضحة فى تراث الأقصوصة الممتد فى أعماق الزمن الى أكثر من خمسين عاما .. ليس فقط لجده هذه الاتجاه ولميلاده بمرافقة اللحظة الحضارية الجديدة وكانعكاس لها ، ولكن أيضا لأن البدايات المتعثرة لهذا التيار الجديد والتى ولدت على أيدى مدرسة مابعد الحرب العالمية الثانية من الشبان عبر عودتهم الى أدب رمزى جديد يتحرر من تقليدية الأدب العربى السقيمة ، هذه المدرسة التى كان باستطاعتها أن تصبح الأدب الحقيقى لهذا التيار ، حملت عند ميلادها دواعى فشلها . اذ تم ظهورها كتقليعة لامبرر لها فى النصف الأخير من الأربعينات على أيدى عدد من شبان تلك الفترة أبرزهم فتحى غانم وبدر الديب وعباس أحمد وبهيج نصار وأحمدعباس صالح وغيرهم .. ومن ثم لم تتمكن من أن تكون بذورا جنينية لتيار جديد فى الأقصوصة يمكن أن ينمو أو تتعمق أبعاده . لأنها مالبثت أن تلفعت بأكفان الموت وهى مازالت تتعثر فى لفائف الميلاد ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان هذه الحركة المجهضة غائبة عن وعى عدد كبير من الدارسين المتخصصين ، فما بالك بالكتاب الشبان ؟ .. بالتأكيد لم يسمعوا عنها قط . لأن أغلب من استمر فى كتابة الأقصوصة من فرسان تلك المغامرة العقيم ، عاملوا كتابتهم فى هذه المرحلة وكأنها نوع من نزوات الشباب الطائشة . فلم يجرؤ واحد منهم على ضمها ، كلها أو بعضها ، الى أى من مجموعاته القصصية التى صدرت له بعد ذلك ، اللهم غير فتحى غانم فى مجموعته الأخيرة (سور حديد مدبب) عام ١٩٦٤ ، وبعد أن رسخت خطواته فى ميدان مختلف ، أعنى ميدان الرواية ، ولم يعد يعول على الأقصوصة أهمية كبيرة .. غير أننا برغم فشلنا فى العثور على جذور حقيقية لهذا التيار الأقصوصى الجديد فى أرض الأقصوصة المصرية السابقة ، نحس فى بعض أعمال محمود البدوى ونجيب محفوظ وادوار الخراط بارهاصات تشى بمقدم هذا التيار الجديد الذى نتحدث عنه ونمهد له الطريق ، لينطلق فى مغامراته تلك متخففا من كثير من العوائق والقيود .. نحس بذلك فى العمق الدامى بين ضراوة العنف والجنس وعبثية الحياة جملة عند محمود البدوى ، وفى ميتافيزيقية الموت والحاحه كقدر غاشم يلتهم الراغب فى الحياة ويترك العازف عنها يكتوى بنيران استمرارها عند نجيب محفوظ ، وفى ذلك الاحساس الرهيب بالكبت والحصار والاحباط الدائم لأبسط الرغبات الانسانية وأكثرها عدالة عند ادوار الخراط .. وفى أعمال غير هؤلاء من كتاب الأقصوصة نلمس بعض الأصداء الواهنة التى تشير الى الامكانيات الخصبة لمغامرة من هذا النوع . الا أن كل هذه الارهاصات والاصداء الخافتة لا تتعدى الحدود الضيقة لكل من الكلمتين بأى حال من الأحوال . ولا تنبىء عن استطاعتها بأن تكون أكثر من بذور جنينية لهذا التيار الجديد ، وليس جذورا عميقة له يستطيع أن يرتوى منها .. غير أننا لا نستطيع أن نبارح هذه النقطة دون أن نذكر الدور الكبير الذى لعبته أقاصيص الفنان السورى الموهوب زكريا تامر فى ميلاد هذا التيار.. فهى وحدها بحق ومعها بعض أقاصيص الكاتبين السوريين مطاع صفدى ووليد اخلاص الجذور العربية الحقيقية لهذا التيار ، والأدب الشرعى له . وان لم تلعب رغم أهميتها الكبيرة تلك الدور الرئيسى فى ميلاده .

فقد رافق ميلاد هذا التيار الجديد بالدرجة الأولى كما ذكرت تبلور ملامح اللحظة الحضارية الجديدة ، وارتوى من أغلب ظواهرها الاجتماعية ، ومن هنا فقد حظى هذا التيار الجديد بقدر كبير من التقدير والاهتمام ـ من القارىء والكاتب معا ـ يفوق بكثير ما نالته حركة ما بعد الحرب العالمية الثانية ابان ظهورها .. ليس فقط لأنه تجاوز حدود التقليعة الى مرتبة الحاجة الموضوعية ، ولكن أيضا لأن كثيرا من نماذجه الناجحة تمكنت من تفجير كثير من الشحنات الوجدانية المكبوتة فى الصدور . ونجح فى أن يحمل ليس عبر موضوعاته فقط ولكن عبر تكنيكه أيضا قدرا كبيرا من ملامح اللحظة الحضارية التى يصدر عنها .. وحتى تتضح لنا هذه الحقيقة علينا أن نتعرف على سمات هذا التيار وملامحه الفنية من خلال الدراسة التطبيقية لعدد من نماذجه الناضجة . والتى نعثر على أهمها عند سليمان فياض ومحفوظ عبد الرحمن ومحمد حافظ رجب ومحمد البساطى .. بل ان كلا من هؤلاء الفنانين الأربعة يقدم لنا وجها متميزا من وجوه هذا التيار الذى

لاتكتمل صورته الا عبر هذه الوجوه الأربعة مجتمعة.
فعند سليمان فياض نجد أن عناق الرمز للأسطورة ذات الجذور الشعبية عامة والريفية بوجه خاص، يشكل وجها هاما من هذه التيار الأقصوصي الجديد. ليس فقط لأن تجربة هذا الفنان الموهوب من أنضج تجارب كتاب الأقصوصة في هذا الجيل، ولكن أيضا لعمق تفهمه لهذه التجربة وسبره لأبعد أغوارها من جهة ولبراعته الفنية من جهة أخرى. فتجربة هذا الكاتب تمتاز مع بساطتها ووضوحها بقدرتها الفائقة على الخروج من الخاص الى العام، عبر التناول الحساس لهذا الخاص وحده. فنجد أن مايقـــدم عنده في الأقصوصـــة من حوار أو احداث برغم قلتــــه، قد انتقى بمهارة زائدة تحيل كافة هذه الجزئيات الصغيرة الى رموز فنية مرهفة تكشف أعماق التجربة الفنية وتضيئه. فينضح لنا بأكثر مما توحى به الدلالات الحرفية للحـــــوار أو الحدث .. ورغم أن أسلوب سليمان فياض يعتمد في أغلب أقاصيصه على تقديم الداخل من خلال الاعتماد المباشر على الخارج وحده. واستغلال كافة قدرات العين على التقاط الجزئيات المتناهية الصـــغر الغنية بالدلالات رغم بســـاطتها الظاهرة تلك، وهـــــذا ما سنتناوله بالتفصيل في مكان آخر من هذه الدراسة. فاننا نجد أنه يعمد فوق هذا المنهج في التعبير الى استخدام الأسطورة الريفية ببراعة في بنائه للأقصوصة، مستفيدا من امكانياتها الخصبة في كشـــف أعماق الحـــدث الرئيسى الذي يقدمه، كما في (النداهه) (٢)، وفي الارتفاع بالخط الداخلي للاحداث الى مستوى التعبير الرمزي عن جوهر التجربة الانسانية العـــامة من خلال ما تنضح به المرافقة المتوازية بين هذا الخط وبين تفـــاصيل الاســـطورة كمـــا في (عطشان يا صبايا) (٣) .. والحقيقة ان الاســـتعمال الاخير للاسطورة الريفية أكثر نضجا من الاستعمال الاول لهـــا في (النـــداهة) وأغزر عطـــاء. فحين يكتفي الاستعمال الاول بتقصى الروافد الخرافية للحدث وكشف بعض جوانبه، يساهم الاستعمال الثاني في مســـاعدة الاحـــداث على الخروج من المســــتوى التجسيدي لملامح التجربة الى المستوى الرمزي الذي تتآزر فيه الاحداث مع تفاصيل الاسطورة في تقديم أعمـــاق التـــجربة والتحليق بهـــا في آفاق الفن الحقيقي .. وحتى لا يكون الحديث عموميا سنعرج بسرعة على هاتين الاقصوصتين.

ففي (النداهة) وبرغم البناء المحبوك للاقصوصة، نجـــد ان تناول الكاتب لواحدة من أكثر الاساطير الريفية تغلغلا في وجداناتنا ومن أثراها بالدلالات، وقـــد ابتسر الاسطورة وأجهض أغلب امكانياتها. لانطلاقه من الموقف الخطـــابي الراغب في كشـــف جهل الريفيين الكامن خلف اعتناقهم لهذه الاساطير والخرافات وفي البـــحث عن أســـاس علمي لهذه الاسطورة ينسـفها من جذورها .. فحين يســـمع مكاوى - وهو ممـــددا الى جوار مدار الســـاقية - صوتا رفيعا يتلاعب في ميوعة مخيفة بحروف اسمه مناديا «يا ميكا آآآوىىى» يحدس أنها هى، محاولا أن يبعد هذا الخـــاطر الملعون عن رأسه. لـــكن الصوت يدوى في أذنيه، ويمط حروف اســـمه، ويدور في رأسه عشرات المرات. فيتيقن مكاوى عند ذلك من أن نهايته تتسلق ببطء حروف هذا النداء الرهيب، وتتكاثر ذكريات القرية مع النداهة في داخله .. النداهة التي لم يفلت من ندائها أحد .. فيحمل فوق كاهله مع دوار النداء قدرا غامضا ملحا بأن نهايته قادمة لا ريب فيها. فيسرع الى بيته، حيث يلف الخوف من النداهة الجميع، خوف ملح لا تستفيد منه الاقصوصة برغم انهـــا قدمته عبر جزئيـــات موحية وذكريات مركزة، ولكنها تمضى فوقه الى هدفها الخطابي الواضح. فيحضر الطبيب، ويميط اللثام عن سر النداهة وعن حقيقة ندائها. فليس صوتها في الواقع سوى خيـــالات محموم، وبالدواء السحري يشـــفي مكاوى، وتنتهي القصة والطبيب يمضى وسط حكايات بعض الاطفال الخرافية مواصلا سيره في «أرض النداهة، أرض خرافية» تصر الاقصوصة في النهاية على أن تســـميها بهذا الاسم حتى تضع فوق الحروف كل النقط، يمضى وهو يذب الباعوض عن أذنه مخافة أن يسمع هو الآخر نداء النـــداهة .. هذا هو الخـــط العـــام للاقصوصة. عبره نحس باجهـــاض الاســـطورة وابتسار امكانياتها الكبيرة في النصف الثاني من القصة. خلال هـــذه النبرة الخطابية التي كسرت امكانيات سليمان فياض الفنية من حدتها في أماكن كثيرة من القصة.

أما (عطشان ياصبايا) فانهـــا تقـــدم، بعكس (النداهة) أسلوبا ناضـــجا في الاســـتفادة من الاسطورة. ربما لأنها كتبت بعدها بأكثر من عام، وربما لان طبيعة امكانيات الاسطورة فيها هى التي فرضت على الكاتب هذا الاسلوب في المعـــالجة. فتفـــاصيل الاســـطورة هنـــا عامرة بالامكانيات

(٢، ٣) من مجموعة «عطشان ياصبايا» القاهرة ١٩٦١، مؤسسة الشرق للطباعة والنشر

القصصية ، بينما للاسطورة فى (النداهة) امتدادات شعورية بالدرجة الاولى • ولقد تمكنت هذه الطبيعة النوعية لإمكانيات الاسطورة هنا من اضاءة الاحداث والجزئيات المتناهية الدقة فى الاقصوصة • واستطاعت فوق كونها رافدا هاما لكثير من هذه الاحداث أن تكون خطا مرافقا لها يرهص بكثير منها ويكشف أغوارها • ومن هنا استطاعت هذه الاحداث بمساعدة الاسطورة أن تجسد حالة الظمأ التى تعيشها القرية باعتبارها حالة من الضرورى تخطيها • واستحال عطش حقول القرية للماء المبذول بسخاء لحقول الباشا ، الى قماش لوحة كبيرة عامرة بألوان الظمأ الاخرى •• ظمأ خديجة المنفلت من نبرات صوتها المشروخ وهى تغنى فى حسرة وألم « عطشان يا صبايا •• عطشان والنيل فى بلادنا» الى الرجل المجهول الذى تتوق أن تسمعه يطرق بابها يوما ويقول لأبيها هذه الكلمات الساحرة « أنا طالب القرب منك » •• وتوق رفعت الصغير المشبوب الى المعرفة والى فض مغاليق كل هذه الاشياء الغامضة التى تقع تحت عينيه •• وانتظار الحاج على المرير لليوم البعيد الذى ينفتح فيه الكنز وتغمر خيراته القرية كلها فتتحقق بذلك العدالة المفتقدة •• ورغبة الشيخ عبد العال العارمة فى تحرير أهل الحارة من سطوة البيت الكبير الحزب العامر بالخرافات والاساطير •• وغير هذا من ألوان الظمأ المتراكم الذى يعانق فيه الواقع الاسطورة فيحلقان بالعمل الفنى فى آفاق من الرموز التى لا تنبثق من معادلات رياضية أو تجريدية صارمة ، ولكنها تطل علينا من المسافة المحصورة بين هذين الخطين المتوازيين ، الواقع والاسطورة • فتتحول بذلك التفاصيل الواقعية الصغيرة الى ايماءات حساسة تجسد أبعاد التجربة الانسانية العامة عبر هذه الاحداث الشديدة الخصوصية • ولولا بعض العثرات الصغيرة الواهنة فى هذه الاقصوصة ، أهمها تلك المصالحة الجائرة الساذجة التى تمت فى نهايتها ، والتى كان باستطاعة الاقصوصة أن تمضى بدونها ، لاستطاعت هذه الاقصوصة أن تكون واحدة من أجمل الاقاصيص المصرية والانسانية •

وتجربة محفوظ عبد الرحمن فى هذا التيار يحاول أن يصل الى العام من خلال اختياره للزوايا الموفقة فى تناول الخاص ودون اعتماده على الاسطورة أو الانطلاق من الفنتازى ، بل يستعيض عنهما فى بعض الاحيان بالاستفادة من تكنيك الحلم وامكانياته • لهذا تنوعت الاساليب الفنية فى أعمال هذا الكاتب بتنوع التجارب التى يقدمها • واستفادت قصصه من أغلب الاساليب الفنية المتاحة ، بدءا من القص المحكم ، حتى آخر ما فى طاقة المنولوج ، مرورا بالاعتماد على الحوار ، وعلى الرواية بالضمير الاولى ، وعلى المراوحة بين أكثر من أسلوب واحد فى عملية القص • واذا كانت تجربة سليمان فياض الاساسية تدور فى القرية ، فان تجربة محفوظ عبد الرحمن هى الاخرى تحوم دائما بالقرب منها •• تدور فيها أحيانا كما فى (البحث عن المجهول) (٤) و (القط والانسان) (٥) و (الحافة) (٦) ، أو تحوم بالقرب منها عندما تتناول الزوايا الشعبية من المدينة أو الاشخاص ذوى الاصول الريفية فيها كما فى (الملح الذى نزرعه)(٧) و (البيانولا) (٨) و (أربعة فصول شتاء) (٩) و (ماذا فى نهاية الطريق) (١٠) وغيرها •• وأغلب هذه الاقاصيص أو كلها يعتمد على الاسلوب التركيبى فى عملية البناء الفنى ، والذى يتطلب فى بعض الاحيان تذويب كثير من الحدود الزمنية الفاصلة بين الماضى والحاضر والمستقبل ، فضلا عن تذويب كثير من الحواجز الفاصلة بين الشخصيات والاحداث ، وسردها بالصورة التى تقترن فيها الاجزاء بعضها بالبعض لتقدم فى النهاية الكلى أو التجريدى • فعبر هذا الاسلوب التركيبى تتآزر الجزئيات المتناهية الدقة ، المنتقاة بوعى وفهم ناضجين ، على التحليق بالقصة الى آفاق الرمز • فقصص محفوظ عبد الرحمن قصص رمزية بصورة من الصور ، ليس بالمفهوم الرمزى القديم المتشح بالابهام والغموض ، ولكن بالفهم الجديد الذى يرتفع بالتجربة الفنية الخاصة ـ عبر المعالجة الناضجة لها ـ الى المستوى الانسانى العام • دون أن تتحول أبدا الى معادلات قسرية أو هياكل عظيمة ، وأن أخفقت أحيانا فى ركام الجزئيات وتعثرت فيه •

و (البحث عن المجهول) و (الملح الذى نزرعه) تقدمان أغلب الابعاد الفنية للوجه الذى يمثله كاتبهما فى هذا التيار •• الاولى بجوها الملىء بالشاعرية والثرى بالدلالات ، والثانية بقطرات

---

(٤) مجلة الكاتب
(٥) مجلة البوليس
(٦) مجلة الكاتب
(٧) الآداب البيروتية يونية ١٩٦٦
(٨) الكاتب
(٩) مجلة المجلة العدد ١١٠ فبراير ١٩٦٦
(١٠) الكاتب

الحزن المتراكمة فوق ركام الخيبة فيها ٠٠ ففى البحث عن المجهول نلمس قدرة محفوظ على تجسيد هذا المجهول الغامض فى وجدان القارىء وعلى اثرائه بامتدادات عديدة ٠ وذلك من خلال تعرفه على أغلب المسافات التى امتد اليها هذا المجهول فى وجدان عدد كبير من أبنــاء القرية ٠ وعبر تتبعه لرحلة (شرف) فى تشوقه الظامىء للتعرف على حقيقة هذا (المهدى) المجهول ، واستخدامه لأسماء ذات دلالات معينة فى هذه القصة ٠ ومحـاولته التشكيك فى وجود هذا (المهدى) أصلا وفى كل القصص المتنوعة التى تروى عنه ، فى مقابل تركيز على أن ينقل لنا حرص (البـحيرى) على ألا تنكشف بعض الاشياء للعيون ، وخوفه المغلف بالصمت والارهاب والذى يطل عبر التصرفات المتناهية الصغر الراسمة لأدق أبعاد شخصيته ، والستار المحكم الذى يفرضه على البـدروم ، حيث تؤكد كل الروايات المختلفـة أن (المهدى) محبوس فيه٠٠ من خلال كل هذه الجزئيات العامرة بالدلالات ، كف (المهدى) عن أن يكون مجرد شخص اختفى ، ليصبح تجسـيدا لأكثر من قيمة غائبة عن سـماء القرية تحت وطأة تسلط بحيرى عليها ٠ وكف (شرف) فى الآن نفسه عن أن يكون مجرد شـاب يؤرقه حب الاسـتطلاع والرغبة فى اكتشـاف حقيقة هذه الروايات المختلفـة دائمـا المتضاربة أحيانا ، المصرة أبدا على وجود (المهدى) فى مكان ما ٠٠ ليصبح تلخيصا لكل الباحثين عن القيم الغـائبة ، وبلورة لكل عذابهم وآلامهم تحت وطأة هذا البحث المضنى المرير ٠ غير اننا فى النهاية نحب أن نشير الى أن تلك النهاية الغامضة للقصة ، لا تمثل اعتناق الكاتب لاسلوب النهايات المفتوحة، ولا رغبته فى الاسـتفادة من امكانياتها التى تنمى الاحداث وتعمقها فى بعض الاحيان ، بقدر ماتجسد لنا هروبه من المأزق الذى وجد نفسه فيه فى نهاية الاقصوصة ٠

وفى (الملح الذى نزرعه) نلمس أسلوبا مختلفا فى المعالجة والرؤية معا ، لانها لا تعتمد فى الافضاء بما تريد أن تقدمه على استقصاء الابعـاد المختلفة للحـدث ، وبلورة الزوايا التى تمتـاح به آفاق التجربة الفردية ، كما فى (البحث عن المجهول) ولكنها تلجأ مباشرة الى الاسلوب التركيبى الذى يحاول أن يقيم بناء الاقصوصة الكلى فـوق دعائم صغيرة مكونة من عديد من الخطوط المتشابكة التى ينسج تداخلها ذاك عظام الفكرة ثم يكسوها بلحم هذه الخطوط الاقصوصية الصغيرة ٠ ومن هنا فان الكاتب يتصيد لنا المآسى الصـغيرة الخاصة التى يدور فى فلكها كل من نبيل واسماعيل وزكى أبطال الاقصوصة ٠ محاولا تقديم هذه المآسى الصغيرة فى تشابكها ، خلال رحلة طلبة الكلية التى تضمهم الى القناطر الخـيرية ، وعبر التصرفات العـادية التى يربط تداخلها هـذه المآسى الثلاث معا .. مقدما بذلك كل أبعاد المأساة العامة التى تطحن أبناء هذا الجيل ، الاخفاق فى الحب والفشل فى الوصول الى مرافئة الواعدة بالراحة والامان ، والايدى المجذوذة الاصابع بالفقر فلا تطـول المنى ، والأدواء المرضية التى تنهش مع الزمن أعماقه على المستويين العضوى والاجتماعى ٠٠ وغير ذلك من الابعاد الثانوية التى تفصح عنها الجزئيات الصغيرة ٠ يقدم لنا كل هذه الابعاد الانسانية العامة التى تعكس الكثير من ملامح اللحظة التى يصدر عنها ، من خـلال اعتماده على هذه المآسى الخـاصة وحدها ، التى اسـتفاد فى تقديمها من كل امكانيات القص فى الاقصوصة ٠٠ من الحـوار والوصف والتداخل الموحى فى الازمنة وبين الاحداث ، الى الاسـتخدام الحـاذق للضمير الاول ، وللمنـولوج الداخلى والاعتماد على المفارقة والتوازى معا ٠ دون اللجوء الى أى شىء غير الجزئيات الواقعية وحدها ٠٠ فـلا نجـد مكانا للتأملات ولا الاستطرادات الفـكرية ، ولا اسـتعمالا لأى من الاسطورة أو الفنتازى ٠ وبرغم كل هـذا تمكنت أعمـال محفوظ هـذه من التحليق الى آفاق الرمز الناضجة البعيدة عن المعادلات القسرية المجوجة ، ومن تقديم تجارب انسانية عامة يثـير ثراؤها فى وجدان القارىء الكثير ٠

أما تجربة محمـد حافظ رجب فى هـذا التيـار الاقصوصى ، فانهـا تختلف عن هاتين التجربتين برغم التقائها بهما فى النهاية ٠ فاذا كانت تجربة كل من سليمان فياض ومحفوظ عبد الرحمن تحافظ على كثير من تقـاليد الاقصوصة الفنية وتحترم الذهينـة التقليـدية فى التـذوق ٠ فان تجربة محمد حافظ رجب لا تعبأ بأى من هذه التقـاليد ، ولا تهتم أساسا بالتقيد بحرفية الصـورة المألوفة للواقع وان التزمت بها بصورة من الصور، فتنافرها مع الواقع ليس فى نهاية المطاف غير وجه من وجوه الالتحام بهذا الواقع والصدور عنه ، فهى تنطلق أساسا من الفنتازى محلقـة فى أجواء أكثر جنونا وسوداوية من أجواء كافكا وان كانت أقل نضـجا وشـاعرية ٠٠ محطمـة أمامهـا كل شىء ،- الزمن والواقـع والشـخصية ٠ معبرة برغـم ذلك فى

الاقاصيص الناجحة عن أهم قضايا الواقع وعن نموذجه النمطي • فالفنتازى عنده يرتوى من الاساطير التاريخية من جهة ومن تصوره للواقع الذى يصدر عنه وفهمه له من جهة أخرى •• أقول يرتوى منهما لأنه لا يستعملهما مباشرة • ذلك لان الانطلاق من الفنتازى عند محمد حافظ رجب يختلف عنه عند كافكا • فبرغم انطلاق كافكا من بدايات لا واقعية الا أنه يجنح عند معالجتها الى أدق التفاصيل الواقعية ، والى أسلوب السرد الذى يتوافق - باستثناء المنطلق - مع أغلب مواضعات المنطق الشكلى • أما عند محمد حافظ رجب فان الحال يختلف • اذ ترافق البداية الفنتازى أسلوب بناء مماثل لا يعتمد بأى شكل من الاشكال على أسلوب السرد المنطقى ، ولكنه يلجأ الى خليط من المنولوج الجامح وأمشاج من الاساطير التاريخية ، وفيض من الصور التى يستحيل تصورها وان كان من الممكن ادراكها والوصول الى كثير من دلالاتها • فهذه الادوات الفنية هى أكثر الاشكال توافقا مع الاحداث العديدة اللامألوفة التى يكتظ بها عالمه ، والتى تنطلق من البناء المحكم للتجربة الفنية على صعيدى الرؤية والفكرة معا •• عبر هذا الاسلوب الملىء بالتشوش يقدم لنا الكاتب عالما تحس ان هذا التشوش فى الاسلوب ليس فى الواقع الا وجها من وجوهه • ففقدان هذا العالم للتوازن لا يتوائم مع أسلوب البناء الفنى المحكم الذى يقطر التوازن والاستقرار من كل أبعاده • بل ان تقديمه بهذا الاسلوب الفنى القديم ينال من صدق التجربة ومن عضويتها ولا يستطيع أن يجسد كافة أبعادها المتوترة •

فعالمه ملىء بالتشوش ، فاقد للتوازن ولكثير من مواضعاته البسيطة ، غائبة عن سمائه أغلب القيم الايجابية والسليمة •• عالم يدور غالبا حول محاور ثلاثة ، رجل وامرأة وبينهما مدية كما فى (الاب حانوت) (١١) و (الوشم الوحشى) (١٢) و (المدية) (١٣) يشرب فيه الجالسون فى المطاعم دماء الجرسونات فى أكواب مترعة (عظام الجرن) (١٤) ويقوم الذباب بهش أناسه المصفدين فى سلاسل ثقيلة فلا يتحركون (وجف البحر) (١٥) ويختلط فيه الزمن والرؤية والحياة والموت فى داخل انسانه (مارش الحزن) (١٦) ، بينما يعانى هذا الانسان دائما ولأسباب اجتماعية غالبا من فشل مرير واحباط جنسى هائل (الطيور الصغيرة) (١٧) و (ذراع النشوة المقطوع) (١٨) و (أصابع الشعر) (١٩) حيث تطحنه قوى رهيبة عديدة موجودة فى خارجة دوما ضاغطة عليه أبدا (الثور الذىذبح الرجل) (٢٠) تحاول امتصاص كل دماء الحياة من أعماقه ، فهى قوى جهمة غير فاهمة (حديث بائع مكسور القلب) (٢١) تمتهن الكثير من أفكاره وحياته وتلتهمها فى جموحها الطائش وراء الاشياء التافهة (الكرة ورأس الرجل) (٢٢) •

عالم هذه صورته ، كان ضروريا عند تقديمه فى الفن أن يترك بصماته على الاسلوب الفنى الذى يقدم به • فيمزق أوصاله حتى يتمكن من التعبير عن الاوصال الممزقة لهذا العالم الفاقد للمنطقية المفتقر الى الاحكام الذهنى • وحتى يكون الاسلوب فى النهاية واحدا من وجوه هذا العالم وسمة من سماته • ينقل تشوشه ويوحى بكل القيم الغائبة فيه •• ففى قصة (وجف البحر) نلمس بلورة ناضجة لأهم ملامح مغامرة محمد حافظ رجب الفنية •• وبرغم ان بناء التجربة الشعرى يستعصى على التلخيص المنطقى ، ويتطلب من الناقد رحابة تذوقية خاصة ليتمكن من معانقة الابعاد المختلفة لهذه التجربة الفريدة وتذوقها • فاننا سنحاول الاستسلام لضرورات الدراسة الموضوعية عند تناولنا لهذه القصة ، والتى تجبرنا على تلخيص التجربة ليتلمس القارىء معنا بعض أبعادها • من البداية سنفاجأ بالجو السكندرى الإثير لدى كاتبنا والذى تدور فيه أغلب أقاصيصه • وبالتحديد فى

---

(١١) مجلة (المجلة) عدد نوفمبر ١٩٦٥

(١٢) مجلة (الرائد العربى) الكويتية - عدد أغسطس سنة ١٩٦٤ •

(١٣) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ٢٠ مارس سنة ١٩٦٣ •

(١٤) مجلة (المجلة) عدد فبراير ١٩٦٥

(١٥) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ٣١ مارس سنة ٩٦٥ ١

(١٦) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ١٩ مايو سنة ١٩٦٥ •

(١٧) مجلة (الآداب البيروتية) ديسمبر سنة ١٩٦٤

(١٨) جريدة المساء ، الجمعة ٢ يوليو سنة ١٩٦٥ •

(١٩) مجلة (القصة) عدد يونيه ١٩٦٥ •

(٢٠) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ٢٠ يونيه سنة ١٩٦٥ •

(٢١) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٥ •

(٢٢) مجلة (القصة) عدد يناير سنة ١٩٦٥ •

محطة الرمل ، حيث تراكم فوق الارصفة عدد هائل من العبيد المصفرين بالسلاسل ، المستسلمين لعنت الجنود الرومانيين وأسواطهم اللاسعة • يبيعون أشياء تافهة ويحلمون باجتياز البحر الى الجانب الآخر ، حلما بسيطا عادلا لا يتحقق أبدا •• حتى في اللحظات الاخيرة ، عندما يجف البحر فعلا ، ويكف الجنود الرومان عن محاصرتهم ، تظل رواسب القهر والخوف تطوق حركتهم فلا يعبرون البحر أبدا الى الجانب الآخر الذى يتخلصون فيه من كل آلامهم ويتخففون عنده من كل قيودهم • لتظل حالة الحصار الرهيبة تلك تدور فى وجدان المتلقى يعانقها الخوف المترسب عبر عشرات السنين من الظلم والقهر والظلام •

أما فى (الطيور الصغيرة) فان العجز عن تحقيق المنى ، يظل يلاحق انسان هذا العالم الغريب ، المحبوس كالطيور الصغيرة ، فى قفص منسوج من القضبان العديدة اللامرئية • وان تم ذلك بصورة أخرى ، وعبر أسلوب فنى تسيطر عليه المنولوجات الجامحة ، فتتكشف المفارقة بين جموحها ذاك ، وبين حالة الضياع والكبت التى يعيشها أبطالها عن الكثير الذى تبوح به بصورة أخرى كل من (الثور الذى ذبح الرجل) و (ذراع النشوة المقطوع) عبر اغراقهما فى الفنتازى كلية • فأغلب أقاصيص هذا الكاتب تضمها وحدة واحدة ، هى فى النهاية وحدة الرؤية التى يصدر عنها ، والتصور الذى يعتنقه لما يدور تحت عينيه من أشياء • وهى لهذا من أقدر أقاصيص هذا الجيل على بلورة الملامح العامة والابعاد العميقة لهذه اللحظة الحضارية التى تصدر عنها • وبرغم وقوعها أحيانا فى براثن الخطابية والتخطيط الذهنى ، فقد تمكنت من فتح طاقات تعبيرية ثرية أمام الاقصوصة المصرية ، تمكنها من تناول الكثير من القضايا والموضوعات التى تستعصى على التناول بالاساليب القديمة ، وخاصة فى ظل هذه اللحظة الحضارية المتغيرة دوما •• كما نجحت فى الوقت نفسه فى تقديم عالم أقصوصى متكامل له ملامحه الخاصة وسماته الفريدة •• مشكلة بذلك وجها بارزا وهاما من وجوه هذا التيار الاقصوصى الفريد •

يبقى بعد ذلك الوجه الرابع والاخير من وجوه هذا التيار ، والذى يتبلور عبر أعمال محمد البساطى الاخيرة ، بعد أن تجاوز مرحلة التعبير التقليدى عن التجربة التقليدية فى أقاصيصه الاولى مثل (نزوه) (٢٣) و (المولد والبحيره) (٢٤) و (البحث عن دجاج) (٢٥) و (الهروب) (٢٦) و (كوكو) (٢٧) و (طريق المحطة) (٢٨) و (الرجل والحمار) (٢٩) والتى بلغت أنضج صورها على صعيدى الأسلوب والرؤية معا فى (أبو جبل) و (الزفه) (٣١) و (خفاجة) و (العم وأنا » و (لقاء) •• بعد أن تجاوز البساطى هذه المرحلة ، قدمت أعماله الأخيرة وجها من وجوه هذا التيار الجديد ، يحاول عبره الاستفادة من كل طاقات الأقصوصة عند كافكا ومن أسلوبه التعبيرى • لذلك نجده فى هذه المرحلة الأخيرة يقدم الفنتازيا الحلمية عبر اطار من التفاصيل والجزئيات الواقعية ودون تحطيم السياق المنطقى للحدوث أو التسلسل السببى له ، كما فى (مشوار قصير) و (أحزان فتى طيب القلب) •• بل اننا اذا استثنينا ، فى بعض أقاصيص هذه المرحلة (الجنازة) ، المنطلق المرتوى من الحلم فاننا نعثر على تتبع دقيق للجزئيات الواقعية مقدما بأسلوب السرد العادى الذى سيطر على أقاصيصه الأولى والذى بلغ ذروة نضجه واحكامه فى الأقاصيص الأخيرة منها ، لذلك نجد أنه كلما قل اعتماده على الفنتازى بالصورة التى يقدمه به حافظ رجب ، ازداد توفيقه فى القصة ونجح فى بلورتها • لأن اعتماده على تكنيك الحلم بالدرجة الأولى فى هذا النوع من الأقاصيص يفرض عليه الافلات من جموح المبالغات الخيالية التى يكتظ بها عالم محمد حافظ رجب ، ويتطلب منه أسلوبا خاصا فى المعالجة •

وفى (مشوار قصير) نلمس هذه الحقيقة بوضوح عندما نعايش أحداث القصة التى تدور فى اطار

(٢٣) المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ٦ مارس سنة ١٩٦٣

(٢٤) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ١٠ يوليو سنة ١٩٦٣ •

(٢٥) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٤ •

(٢٦) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ٢٤ ابريل ١٩٦٣ ونشرت فى (القصة) فبراير ١٩٦٤ •

(٢٧) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ٢٩ مايو سنة ١٩٦٣ •

(٢٨) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٦٤ •

(٢٩) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٣ •

(٣٠) مجلة (الكاتب) عدد سبتمبر ١٩٦٥ •

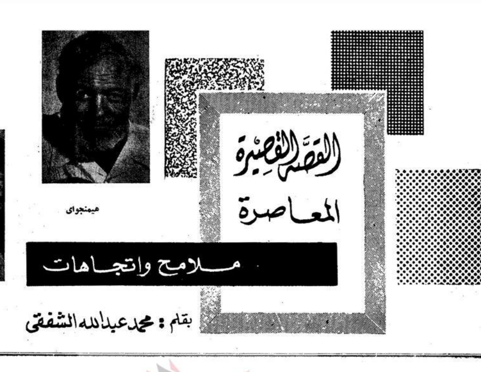
(٣١) جريدة المساء (الملحق الفنى والادبى) الاربعاء ١٨ نوفمبر سنة ١٩٦٤ •

الحلم العادى · عندما ننطلق فيها مع السلامونى فى رحلته القصيرة التى أجبر عليها فى الليل الى هـذا المكان البعيد الحرب ، حيث ينتظره قدر غامض · فقـد كان السلامونى عائدا الى منزله يجتر مع الهدوء الليلى ذكرياته السعيدة البسيطة المليئة بالأشياء العادية · ويحلم بجلسة هادئة يصطاد فيها السمك على شاطىء الترعة وهو يجتر هذه اللحظات الماضية · وفجأة وضعت يد غليظة قاسية على كتفه ومعها هذه الكلمات الحادة المقتضبة « عاوزينك فى مشوار صغير » ·· مشوار لا يعرف ما غايته ولا الى أين يقوده ، ولكنه يؤخذ اليه قسرا ويجبر على المضى فيه وسط الخوف والقسوة وتهديد السلاح والزجرات النابية ·· لينتظره فى نهايته هذا القدر الغـامض الذى لا يبين عن نفسه أبدا وان أطلت بعض ملامحه عبر مشوار الخوف القصير ذاك ·· المشوار الذى تم كله فى اطار حلمى كامل نلمسه فى انسياب الكلمات فى ليونه ، وفى اتشاح أبسط الأحداث بجو من الغموض ، وفى تعارض بعضها مع الأشياء المألوفة · وقد استطاع نضوج هـذه الأقصوصة النسبى أن يمنح هـذا المشوار القصير دلالات متنوعة ، يحس القارىء معها بترديدات عديدة لمخاوفه الغامضة ، ولافتقاده الدائم للأمان ، تحت وطأة هذا الليل الرازح الذى يجهض كل الأحلام العادلة البسيطة ·

وبينما تدور هذه الأقصوصة فى نطاق الحلم كلية، وهو أكثر الأشكال ملاءمة لأدوات البساطى الفنية التى أنضجتها رحلته الأولى ، تنطلق قصته الأخيرة (الجنازة) من الفنتازى ثم تستمر بعد ذلك بالأسلوب المعروف عند كافكا ، والذى يحاول أن يوهم القارىء بحقيقة هـذا الحدوث الفنتازى من خلال التتبع الميكروسكوبى الدقيق لجزئياته المتناهية الصغر ·· تتبعا ذكيا واعيا بالأساليب الفنية المعروفة فى أنضج الأعمال الواقعية التقليدية · فالقصة مروية بالضمير الأول بعكس القصة الأولى · وعلى لسان شخص ميت يشهد تفاصيل جنازته ·· بل ويترك تابوته ليستحم مع الأطفال فى الترعة وحاملى التابوت فى الانتظار ، ثم يعود بعد ذلك ليواصل فى التابوت تأملاته عن القرية وذكرياته معها ، وينزل منه ليثرثر مع بعض أصدقائه فيها ·· ولولا تعثرات البساطى العديدة فى الحوار ، والتى تفقده فى أحيان كثيرة معناه ، وتتشعب به فى مسارب جانبية عديدة لا طائل من ورائها ، تساهم مع اسرافه فى تقصى الجزئيات دون أن تكون ثمة خطة واضحة أو اختيار فنى مبرر وراء ذلك ، فى تمييع الخط الرئيسى للقصة · لاستطاع هذا المنهج التعبيرى الناضج أن يقدم الكثير · فأقاصيصه الأخيرة التى تحتم بهـذا المنهج تصرخ باستثناء (مشوار قصير) بضرورة أن يهتم هذا الكاتب بعملية الاختيار تلك · فليس الفن فى براعة التصوير وحدها والقدرة على تقديم الجزئيات وتجسيدها، ولكنه أيضا فى الاختيار الذكى الحساس لهذه الجزئيات ، وفى الوحدة الكامنة خلف هذا الاختيار · والقادرة على أن تشى لنا بالأسباب التى دعت الكاتب الى اختيار هذه الجزئية من وسط آلاف الجزئيات المتاحة له ، والى التركيز على هـذا الجانب منها دون الجوانب الأخرى ، والى رؤيتها من هذه الزاوية بالذات وعبر حدقتى هذه الشخصية دون غيرها من الشخصيات · لأنه لو اهتم بهـذه الأشياء لاستطاع أن يخرج من متاهة التردى فى شباك كل من العام أو الخاص وحده ، وأن يجمع بينهما بالصورة الصحيحة فى الفن ·

هذه هى الوجوه الأربعة فى هذا التيار الأقصوصى، وهى فى الوقت نفسه أبرز أعلامه ·· صحيح أن هناك بعض الأقاصيص المتناثرة من هذا النوع لعلاء الديب وضياء الشرقاوى وجميل عطية وعدد آخر من الشبان · الا أنها لم تصل بعد الى مستوى هذه الأعمال الناضجة من جهة ، ولم تتخلص من كثير من العيوب الفنية من جهة أخرى · غير أننا أخيرا نلاحظ عبر هذه الرحلة القصيرة مع هؤلاء الكتاب الأربعة أن هذا المنهج فى التناول الفنى والذى يرتفع بالتجربة الفنية الى مستوى التجربة الانسانية الثرية بالرموز ·· رموز ناضجة بعيدة عن التجريدات أو المعادلات القسرية ·· وقد وشح الأقصوصة على صعيدى اللغة والتعبير بغلالات من الشعر ، تصل الى ذروتها فى أعمال محمد حافظ رجب التى خلصت الأقصوصة من الاستطرادات النثرية الممجوجة والمبتذلة ، وان أخفقت أحيانا فى التخلص من اغراءات الاستسلام العضوى للصورة الشعرية الجميلة ، والذى يسربل الأقصوصة أحيانا بالغموض ويقع بها فى الالغاز ··· وبرغم كل ذلك لايستطيع غير جاحد أن ينكر الاضافات العديدة التى أثرت بها هذه الرحلة القصيرة الشابة فى الأقصوصة المصرية، فمكنته من بلورة الكثير من ملامح اللحظة الحضارية التى يعيشها ويصدر عنها ·· والآن علينا أن ننتقل الى تيار أقصوصى آخر من هذه التيارات الخمسة الرئيسية الراسمة لأهم ملامح مستقبل الأقصوصة المصرية ولأبرز اتجاهاته ·

(البقية فى العدد القادم)



هيمنجواي

جوته

القصة القصيرة المعاصرة
ملامح واتجاهات

بقلم : محمد عبدالله الشفقي

عمر القصة القصيرة كاسمها .. قصير . واذا كانت فنون كثيرة تضرب بجذورها فى الماضى البعيد، البعيد جدا ، فان فن القصة القصيرة ـ كشكل مستقل ـ ينتمي الى القرن العشرين ويتشبث بابوة القرن العشرين له. ففى هذا القرن تبلورت القصة القصيرة ووقفت على قدميها ، واعلنت استقلالها عن الرواية ، ونفت انتسابها الى فن المقالة ، او الى الفن الدرامى ، لكنها ـ بالطبع ـ اخذت من هذه الاشياء جميعا الكثير .

واذا كانت قد نشأت ، اول ما نشأت ، فى بلدان معينة وتبلورت فيها وازدهرت ، الا انها رحلت الى بلدان اخرى وعاشت فى تربتها فاينعت زهورا جديدة .. غريبة . لقد كانت معاقلها فى روسيا ، وانجلترا ، وايرلنده ، وامريكا ، وفرنسا ، غير انها قامت بالرحلة الغريبة الى آسيا وافريقية وامريكا اللاتينية فظهر كتاب للقصة القصيرة يمارسون اليوم فنهم فى اصرار ويطعمون هذا الشكل الجديد بترائهم ونظرتهم الى الحياة، وربما يطعمونه بالتكنيك ايضا .

واذا نحن رجعنا الى نشأة القصة القصيرة المتطورة المستقلة فلن نذهب بعيدا فى حساب الزمن ، ولن نخون العنوان الذى يلتزم بالحديث عن القصة « المعاصرة » . قال الكاتب الروسى ترجنيف يوما « **لقد خرجنا جميعا من تحت معطف جوجول** » مشيرا ـ بالطبع ـ الى قصة جوجول الرائعة «المعطف» التى وان كانت لاتعد قصة قصيرة تماما فانها لايمكن أيضا أن تعد رواية . واسترعت هذه العبارة انتباه القصاص الايرلندى المعاصر (الذى مات منذ شهور فقط) فرانك اوكونور فامن عليها وقال :

« اذا قرأنا قصة » المعطف « الآن وعزلناها عن زمنها لم نتأثر بها الى هذا الحد . فكل ما انجزه جوجول فيها قد انجزه الكثيرون منذ عصره ، بل وانجزوه أحيانا على نحو أفضل . لكننا اذا قرأناها مرة اخرى **داخل اطارها التاريخى** واغفلنا ـ قدر المستطاع ـ كل القصص القصيرة التى كان «المعطف» سببا فى ظهورها ، اكتشفنا ان ترجنيف لم يكن يبالغ . **لقد خرجنا جميعا من تحت « معطف جوجول »** .

وفى « المعطف » ظهرت سمة ظلت تميز قصصا قصيرة ظهرت بعدها ؛ ولا زالت تميز قصصا قصيرة تكتب اليوم . تتلخص هذه السمة فى ان شخصية

بطلها ، ذلك الكاتب التعس الذى يحلم بشراء معطف جديد ، هى شخصية مطحونة . ان الشخصية المطحونة ، والناس المطحونين ، موضوع القصة القصيرة المعاصرة .

وفرانك اوكونور - القصاص الايرلندى - يتشبث بهذا التفسير ويحاول اقناعنا به ، فى كتاب له ظهر حديثا (١٩٦٢ فى امريكا ، ١٩٦٣ فى انجلترا) بعنوان « الصوت الوحيد تحدث فيه عن سادة القصة القصيرة فى العالم من وجهة نظره كممارس لهذا الفن . القصة القصيرة تدور دائما حول المطحونين : الموظفين البؤساء عند جوجول ، والعبيد البسطاء عند ترجنيف ، والعاهرات عند موباسان، والأطباء والمدرسين عند تشيكوف ، والقرويين عند شيروود اندرسون ، وأبناء الطبقة العاملة الكادحة كعمال المناجم عند كوبارد ود.هـ . لورانس ، والضائعين والذين يعانون من عزلة عند همنجواى. والواقع أننا لو تدبرنا كلامه قليلا واضفنا الى قائمة هذه الاسماء أسماء أخرى أكثر معاصرة ملنا الى تصديقه والاقتناع به .

ولنستعرض ، فى ايجاز ، هؤلاء العمالقة الذين وضعوا اسس القصة القصيرة المعاصرة فى العالم : جوجول ، ترجنيف ، موباسان ، تشيكوف ، جويس كاثرين مانسفيلد ، د.هـ. لورانس ، همنجواى .. ولننطلق بعدهم الى بعض الاسماء الجديدة التى تخلص لهذا الفن الصعب .

مهد جوجول الطريق وحدد - بلا افتعال - شخصيات القصة القصيرة . انهم ليسوا من النبلاء، وليسوا من السعداء ، وانما هم اناس تعساء يبحثون عبثا عن لحظة باسمة ، هم اناس مضطهدون داخل مجتمعهم ، معرضون لسخرية الآخرين ، يعيشون فى عزلة ، عزلة رهيبة . بل ان العزلة ستظل الشبح الذى يطارد القصة القصيرة ويطارد كاتبها .. وقارئها ايضا . ثم جاء ترجنيف الذى اعترف - فى عبارته الرائعة - بدينه الكبير لجوجول . وكتب ايضا عن المطحونين ، عن عبيد الارض الارقاء هذه المرة ، وعن المثقفين الذين تعذبهم سلبيتهم ويعيشون فى عزلة وركود .. يحسدون الرجل الايجابى الذى يتحرك ويتصرف ويضحك ، ويعيش بلا عذاب . ان قصص ترجنيف القصيرة تدور حول هاملت الذى يحسد دون كيشوت على حيويته واقدامه .

ويستحق ترجنيف وقفه ، فالى جانب المطحونين، الى جانب « المضمون » ، اسهم ترجنيف فى «شكل» القصة القصيرة المعاصرة . ها هى « قصصه » تخلو من « الاثارة القصصية » ، لسنا هنا امام « حدوته » فقد الفى ترجنيف الحدوته والحكاية كمحور ومحط انظار ، واستعان - بدلا من ذلك - بأساليب كاتب النثر : السخرية الدرامية ، والمقابلة (وسنلحظ كيف ان احد الكتاب المعاصرين جدا - وهو الكاتب الامريكى سالنجر - يكتب اليوم قصصه معتمدا على السخرية الدرامية والمقابلة).

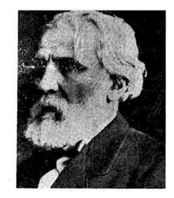
وننتقل بعد ذلك الى عملاقين كبيرين : تشيكوف وموباسان . ولا يمكن ان يدور مقال للقصة القصيرة الحديثة عن شيء ولايدور عن تشيكوف وموباسان. ولقد قال احد كتاب القصة القصيرة أ.أ.كوبارد انه لو حدث يوما ونشر كتابا يضم مختارات من القصص القصيرة فسيكون هذا مطلبا سهلا للغاية، فنصف الكتاب سيضم قصصا لتشيكوف والنصف الآخر لموباسان !

ويقول أوكونور انه لامفر من المقارنة بين موباسان وتشيكوف ، مثلما داب النقاد على المقارنة بين شيكسبير وبن جونسون ، وبين اسخيلوس ويوروبيديس . وفى البداية كان تشيكوف متأثرا جدا بموباسان ، وشيئا فشيئا يصبح محور قصص تشيكوف : عزلة الانسان . هناك سائق العربة العجوز الذى يموت ابنه فيحاول ان يبث اشجانه لزبائنه الاغنياء ، لكنهم لا ينصتون ، فيذهب الى حصانه فى الاصطبل ، يحدثه عن احزانه . كذلك تحاول قصص تشيكوف ان تعالج - بمهارة - المعضلة التالية : الانسان بين عبوديته ورجولته ، الانسان بين متناقضاته . هذا الصراع نفسه - بين العبودية والرجولة المتحررة - كان يدور فى أعماق أعماق تشيكوف ، الذى واجه حياته بصراحة ولم يقف امام القارىء وامام الناس موقف المستعرض، فكتب فنا أصيلا . ولقد بعث الى صديق بالرسالة الصارخة التالية :

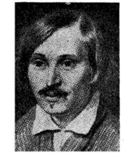
« هل تستطيع ان تكتب قصة تدور حول شاب يعتصر من جسمه دم العبودية قطرة قطرة،ليستيقظ يوما وهو يشعر بان الدم الذى يجرى فى عروقه طبيعى وليس دم عبد ؟ »

وقصص تشيكوف لا تدور حول الخطيئة بقدر ما تدور حول الذنوب الصغيرة التى تجعل من الانسان عبدا ، تجعل منه شريرا لو أنه أدرك مايفعله وتعمق وضعه وحكم على نفسه بموضوعية. الذنوب الصغيرة التى تتالف من : الاكاذيب ، عدم الاكتراث ، الكراهية ، الجشع ، البخل ، الحسد ، الانانية ، الغضب ... الخ ...

ونوجز فنقول ان الحياة فى نظر تشيكوف وقصصه : وحيدة .. حزينة .. لكن جميلة !



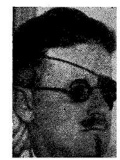
جوجول



موباسان



جوركى



جويس

تشيكوف



وفى موباسان يتردد الانسحاق من جديد ، ويتردد العزلة . والمنسحقون هذه المرة من بائعات الهوى. ان معظم قصص موباسان القصيرة تدور حولهن ، بل ان قصصه القصيرة قصة واحدة ، تنوعات على لحن واحد يؤكد السمة التى تحدثنا عنها فى بداية المقال ، واستقرت كمحور لمعظم ما يكتب فى العالم فى باب القصة القصيرة . ثم يظهر كاتب آخر للقصة القصيرة ، فى انجلترا هذه المرة ، واسمه كبلنج . غير انه لا ينجح كثيرا ، ويكون فشله درسا فى القصة القصيرة . لقد كانت ،عنده ، اقرب الى الرواية منها الى أى شىء آخر ، وكانت تعتمد على السرد، والاستطراد . كذلك لم تكن تخاطب فى الانسان ذلك الشعور بالعزلة ، كانت تخاطب الجماهير ، تريد ان تثيرهم وتضحكهم وتبكيهم وتجعلهم يصفقون فى النهاية . عيب كبلنج انه لا يترك ابطاله معزولين، وانما تجىء حشود تخف الى نجدتهم وتضع نهاية سعيدة !

وما دمنا قد وصلنا الى انجلترا فلا بأس من اطلالة على ايرلنده .. حيث ظهر جيمس جويس الذى اثر فى اجيال بعده من كتاب القصة القصيرة الذين يكتبون فى ايرلنده اليوم . واهم من ذلك كله انه اثر فى ارنست همنجواى . وجويس قد اعطانا درسا فى فن القصة فى مجموعته الشهيرة (أهل دبلن) فى قصص جويس ، فى الاعمال الاولى بهذه المجموعة ، تبرز عبقريته فى الاسلوب . لسنا هنا أمام حركة وأحداث ، وانما صور ترسمها كلمات مرتبة بطريقة تجريبية تقف وراء دراسة جويس ـ المستفيضة ـ لعلم البلاغة . ان الكلمات هنا لاتصف تجربة وانما تنقل هذه التجربة ، بل لا تنقلها وانما تحيلها الى تركيب لفظى . ومن أجل هذا نستطيع ان نعتبر قصص جويس قصص « جو » . ثم توقف جويس فجاة عن كتابة القصة القصيرة وبدأ يتحول الى الرواية . لماذا ؟

لنرجع مرة اخرى الى فرانك اوكونور وتفسيراته الفريدة . يجيب اوكونور : لان جويس فشل فى شىء ، شخصياته المطحونة (مادة القصة القصيرة الاصيلة) لم تعد تتمتع باستقلالها الذاتى ، لم تعد معزولة ، لقد بدأ هو يتدخل ويصفها من منظاره ، ويسخر منها أحيانا ، وفى هذا ـ على حد قول اوكونور ـ هلاك للقصة القصيرة . وتوقف ايضا لان شخصياته المطحونة بدات تختفى من قصصه القصيرة . ويشير اوكونور الى ظاهرة خطيرة : ان

انتقال كاتب اقليمي الى بلد عالمي ، كانتقال جويس من موطنه الايرلندي الى عالم أفسح ، يجعل هذا النوع من الشخصيات المطحونة يذوب لتحل محلها شخصيات اخرى ، او لتظهر هذه الشخصيات في قالب آخر على الاقل . وهنا كف عن كتابة القصة القصيرة . وتغدو الشخصيات ــ بعد ذلك ــ عملاقة، فمستر بلوم ــ في رواية « يوليسيس » ــ عملاق رغم كل شيء ، وذكي ، ويفكر في أشياء كثيرة . وفي ختام حديث اوكونور عن زميله الايرلندي جويس يقول: ان عالم كاتب القصةالقصيرة هو عالمالشخص « الغلبان » الذي يتعرض لمآسي كثيرة قد تكون من اشياء تافهة (لعلنا قرانا قصة تشيكوف التي يعطس فيها موظف بسيط ويظن انه اثار بذلك غضب موظف كبير ، ويظل يعتذر ويتعذب الى ان يموت) يقول اوكونور : « على كاتب القصة القصيرة ان يقدم لنا ماساة من طبق فاصوليا او زجاجة بيرة أو ضياع ربطة حلوى » . يريد ان يقول : اما الاشياء الضخمة ، الملحمية ، فللرواية .

ربما حان الوقت للحديث عن ارنست همنجواي. ومع الحديث عن ارنست همنجواي يزداد اقترابنا من القصة القصيرة المعاصرة جدا ، ويزداد وقوفنا فوق ارض الحاضر ، فهمنجواي احدث اسم في القائمة التي شغلت الصفحات السابقة ، اهم من هذا انه « مسئول » عن قصص قصيرة كثيرة تكتب اليوم في مختلف انحاء العالم ، بعض هذه القصص يستفيد من تجربة هذا الكاتب الكبير وبعضها يقلده ، وبعضها يتمادى في التقليد ، فيخرج مسخا مشوها .

استطاعت القصة القصيرة ، على يد همنجواي، ان تبلغ ذروة التركيز ، التركيز الحاد جدا الذي يقتضي من القارىء ان يكون في منتهى اليقظة حتى لا يفوته شيء ، وقد يكون هذا الشيء فعلا في الزمن الحاضر أو الماضي ، وقد يكون حرف جر ، أو كلمة مكررة ، سبق ورودها في القصة ولورودها من جديد معنى. ومع التركيز اقتضى الامر الدخول في الموضوع مباشرة ، بلا مقدمات . ان القصة القصيرة ، عند همنجواي ، تبدأ فجاة . انها لقطة فوتوغرافية بالفلاش تحتضنالماضي والحاضر وتومىء الى المستقبل . ومن الكلام المعاد ان نتحدث هنا عن ذلك التكتك الذي اشتهر به همنجواي وتكلم عنه ، تكتيك « جبل الجليد العائم » الذي لا يظهر منه على سطح الماء سوى جزء ضئيل . لكن الأعماق تخفي الجزء الأكبر تخفي أهم جزء . ان قصصه لا تسفر ، في ظاهرها ، الا عن أشياء خاطفة ، لكن أعماقها تحمل أشياء هائلة ، هائلة لو تدبرها القارىء وأخلص لقراءة قصة قصيرة يكتبها همنجواي ، اخلاصه لمبحث صعب يحتاج الى دراسة وامعان .

كذلك طلب همنجواي ، من الكاتب ومن القارىء ، مواجهة صريحة للواقع ، عندما أكد أن على الكاتب أن يتحدث عما وقع فعلا لا عما كان يجب أن يقع . وبذلك وضع حدا للمراهقة الرومانسية ، وخداع النفس الذي قد يقع فيه الكاتب ويوقع فيه القارىء . وعلى ضوء هذه المواجهة الصريحة للواقع تغدو قصص همنجواي ــ فيما يخيل الى ــ صارمةقاسية . لكنها مع ذلك تفوح بالشعر والغنائية . مبعث هذا الشعر والغنائية استاذية همنجواي في صياغة الكلمات ، واعتماده على عنصر التكرار اللفظي .

ربما من أجل هذا قال فرانك اكونور ان أسلوب همنجواي يعد مزيجا من التبسيط والتكرار ، مردفا « وهو عكس ما تعلمناه في مدارسنا ونحن صبيه » ويؤكد أن همنجواي أخذ هذا عن جويس ، أخذ ــ على وجه التحديد ــ التكرار المغناطيسي الذي يؤثر على القارىء بفعل السحر . كذلك يؤكد أن هذا التكرار مع التبسيط شيء جديد تماما في القصة القصيرة المعاصرة ، ويختار ــ كمثال ــ فقرة من قصة همنجواي القصيرة الشهيرة « تلال كالفيلة البيضاء» نحن هنا مع حوار بين رجل وامرأة .. عشيقته ولقد كان يحبها يوما ، لكنه يريد أن يقنعها الآن بأن تجهض نفسها :

قال الرجل «جميل» «اذا لم تكوني راغبة فلا تجبري نفسك . لا أريد أن تفعلي هذا اذا لم تكوني راغبة . لكني أعرف أن المسألة سهلة تماما . »

« فهل ترغب أنت حقا ؟ »

« أعتقد أنه أفضل حل . لكني لا أريدك أن تفعلي اذا لم تكوني راغبة حقا . »

« فاذا فعلت فهل ستكون سعيدا وتعود الامور الى سابق عهدها وتحبني ؟ . »

« بل أحبك الآن . تعرفين اني أحبك . »

« أعرف . لكني اذا فعلت ما تشير عليه سيكون جميلا أن أقول من جديد ان هذه تشبه الفيلة البيضاء ، وسيروق لك هذا » .

« سيروق لي . بل ويروق لي الآن ، كل ما في الأمر اني لا أستطيع أن أفكر فيه مليا. تعرفين ما يصيبني عندما أقلق . »

« لكني اذا فعلت ما تشير عليه فلن تقلق . »

« لن أقلق من هذه المسألة فهي سهلة تماما . »

« اذن سأفعلها . لأني لا أهتم بنفسي .»

« ماذا تقصدين ؟ » .
« لا أهتم بنفسى . »
« لكنى أهتم بك . »
« أوه ، نعم ، لكنى لا أهتم بنفسى . وسأفعل ما تشير به وسيغدوا كل شىء رائعا . »
« لا أريدك أن تفعلى ذلك اذا كان هذا شعورك . »

لكن همنجواى ، فى نظر أوكونور، يكتب بـ«حرفنه» فى يده تكتيك ، وفى «مقدوره أن يلتقط أية حادثة ـ أية حادثة مهما بلغت ضآلتها وتفاهتها ـ وبمهارته ككاتب يحولها الى شىء قرأه الانسان منذ ثلاثين سنة ثم يقرؤه اليوم من جديد ، باعجاب ومتعة . » لكن لهذه «الحرفنه» عيبها ،ذلك انهـا تجعـل صـاحبها يحيل ـعن ثقة ـ أى موضوع تافه الى شىء ، من أجل هذا يبدوا همنجواى « كاتبا يبحث دائما عن موضوع» يثبت به للقارىء انه يستطيع ان يهزه بهذا الموضوع التافه للوهلة الاولى ، العميق بعد انجازه فى معمل همنجواى .

وقد يبـدو ان هـذا عيب كثيرين ممن يكتبون القصة القصيرة المعاصرة اليوم . انهم يخابون لب القارىء (المثقف فى اكثر الاحيان .. فما أصعب القصص القصـيرة التى تكتب اليوم) بأستاذيتهم فى التكنيك ، ويطالبونه بان يكون يقظا ، وان يتتبع ـ بعين مفتوحة ـ حيلهم ، لدرجة ان الوعاء يغدو احيانا أهم من الشىء الذى سيوضع فى هذا الوعاء .

ما هى ، اذن الملامح التى تميز القصة القصيرة باعتبارها فنا حديثا معاصرا ؟ ما الذى يميزها عن الرواية مثلا ، او المسرحية ، أو القصيدة ؟ ما هى العناصر المشتركة ـ ان كان ثمة عناصر مشتركة ـ بين كل الاسـمـاء التى ترددت فى السـطـور السابقة ؟

القصة القصيرة تختلف عن الرواية فى الايديولوجية وتختلف فى الشـكل . فالقصـة تدور حـول المستضعفين ، أو الصـعاليك ، أو الفنـانين الذين تعذبهم مثلهم العليا . انها ـ فى اغلب الاحيان ـ لا تتعامل مع الانتصار وانما مع الانسـحاق ، أو الكبت ، أو الهزيمة ، أو الضياع . والقصة القصيرة فن الوحدة والعزلة ، فلو كان بطلها رجلا « صحيا اجتماعيا » لما صلح للقصة القصيرة ، وأولى به ان يحتل صفحات رواية ، أو أبيات قصيدة ملحمية . واذا كانت القصة تختلف عن الرواية فى الايديولوجية فانها تختلف فى الشكل أيضا . هناك ، فى الرواية ، الزمن المسلسل ، وفى اطار الزمن يتطور البطل . اما القصاص فليس معنيا بالحياة فى شمولها . انه ينتقى . يختار لحظة قد يجتمع فيها الماضى والحاضر والمستقبل . نحن هنا أمام شـكل عضوى . تحاول القصة القصيرة ان تبحث عن نقطة خارج الزمن ، نقطة نرى منها الماضى والمستقبل فى لحظة واحدة هى الحاضر .

ومن اروع الامثلة على تعانق الماضى والحـاضر والمستقبل فى لحظة واحدة ما جاء فى قصةهمنجواى « عصفور كناريا لشخص واحد » ، نحن هنا فى عربة نوم تضم زوجين مسـافرين معا (الحـاضر) لكنا نعرف ـ فى لقطة واحدة ـ ان ثمة هوة فصلت بينهما (الماضى) وان الانفصال الكامل سيتم (المستقبل) .

كل هذا يتبلور عنـد همنجواى ... فى جمـلة واحدة : « كنا فى طريق العودة الى باريس ، ليقيم كل واحد فى مسكن مستقل » .

الرواية التقليدية لا تستطيع ان تقول هـذا ، تحكى كل شىء على حده ، واقصى ما تستطيع ان تحققه ان تتلاعب بالترتيب الزمنى وتعتمد على أسلوب « الفلاش باك » .

والقصـة القصـيرة تعتمد على معلومات قليلة بقدر الامكان . بل ان همنجواى (مرة اخرى !) يضن علينا بمعلومات عن بطلى قصته « تلال كالفيلة البيضاء» وانما يقدمهما فى لحظة خاطفة ، فى محطة انتظار قطار ، والكلام حول اجهاض ، لكن لا معلومات كثيرة تنير الطريق وتجعلنـا نحـكم على تصرفات البطلين . واذا كان الطول فى الرواية هو الذى يحدد شكلها فان الشكل ـ فى القصة ـ هو الذى يحدد طولها . واذا كانت الرواية ذات كيان مادى فان القصة القصيرة تحاول ان تصفو وتصفو الى درجة التجريد . وقد قال اوكونور « تعاقبت اجيال المتأنقين المهمرة ، من تشيكوف الى كاثرين مانسفيلد وجيمس جويس ، وبلغ من صياغتهم للقصة القصيرة انها لم تعد ترن بصوت انسان طبيعى يتكلم . »

واذا كانت المبالغة فى العواطف مسموحا بهـا فى الرواية الا انها فى القصة القصيرة خطيئة . فقد نغفر لتوماس هاردى وتشـارلز ديكنز صفحاتهما العاطفية الملتهبة لكنا لا نغفر هذا فى القصة القصيرة. كذلك فان الرواية أكثر بدائية من القصة . فمن الممكن فى الرواية ان نلاحق القارىء بالفصـول ، ونطعم الفصول بالاثارة ، ونجعله يتوقعها . اما قارىء القصة القصيرة ـ على حد قول اوكونور ـ « فيجب الا يتوقع شيئا » .

واذ يزداد اقترابنا من الحاضر المعاصر جدا تتسع رقعة القصة القصيرة ويزداد عدد مريديها . فهى لم تعد حكرا على روسيا وايرلنده وانجلترا وفرنسا وانما أصبحت اليوم ، بلا ادنى مبالغة ، فنا يمارسه

كل بلد خلاق ... بلا استثناء . وأصبح من المألوف ان نقرأ هذه العناوين « قصة قصيرة من ايسلنده » أو « قصة قصيرة من غانا » أو قصة قصيرة من بويرتو ريكو « واذا استبعدنا القصص التقليدية » وفتشنا عن التجارب والاسهامات الجديدة وضعنا ايدينا على محاولات جادة . منها محاولات بعض الكتاب الافريقيين ، ومحاولات لكتاب سوفييت . ومحاولات لكتاب امريكيين على رأسهم سالنجر . وفى بعض الاحيان تبدو كلمة «محاولات» متواضعة.

من محاولات الكتاب الافريقيين ظهور جيل منهم يكتب القصة القصيره المعاصره بلغة انجليزيه « فى غانا وجنوب افريقيه على سبيل المثال » . واسهامهم هنا يتجلى فى الاسلوب ، ذلك ان الذى يجيد لغة أجنبية ويكتب بها سيثرى هذه اللغة ، سيطعمها بجماليات لغته الاصلية . وقد حدث هذا لكونراد البولندى حين كتب بالانجليزية « لورد جيم » وحدث لناباكوف الروسى حين كتب بالانجليزية ايضا «لوليتا» ويحدث اليوم لكتاب القصص القصيرة فى افريقية . وهم يقدمون للعالم رؤيا غير مألوفة : انها رؤيا واقعية ممزوجة بتراث افريقية العريق ، الزاخر بالخرافة والسحر والديانات . وبعض القصص جريئة اذا اخذنا فى الاعتبار الارض التى تنبت فيها . فقد قرأت قصة من كينيا لكاتب يدعى جريس أوجوت وعنوانها « ثم سقط المطر » وفيها تبيان لقسوة التقاليد ، التى تقضى بأن تضحى فتاة كى يسقط المطر ، تضحى وتترك حبيبها الى الابد . وفى رحلة التضحية ، خلال المسافة الطويلة الى البحيرة التى ستغرق فيها ، يلحق بها حبيبها وينتزعها ــ عنوة ــ من خرافات الاهل . ويسقط المطر ! اسقطه الحب هذه المرة لا الخرافة . تلك قصة جريئة ، تقدمية ، اذا حكمنا عليها بمعايير افريقية . وبقراءة قصص قصيرة اخرى ــ قصة « قدم لى شرابا » من غانا و « موت صبى » من نيجيريا ــ يتضح ان كتاب القصة القصيرة الافريقية ، الجادين ، يقومون بمهمة طليعية . انهم يبينون قسوة التقاليد : البنت الوحيدة التى يجب التضحية بها حتى يسقط المطر الحاجة الى المال التى تدفع فتاة بريئة الى الخطيئة . الصبى الوادع الذى تحكم الآلهة بذبحه .. الخ .. نحن هنا أمام اسهام ايديولوجى يضاف اليه ــ كما سبق ــ الاسهام فى الشكل واللغة . فالقصة الافريقية الحديثة تدخل الميدان برؤاها البكر ، تماما مثلما يحدث لو حذق ريفى فن الكتابة وكتب قصة . الا تتجلى الرؤية البكر فى تلك القصة القصيرة التى كتبها احد أدباء غانا وتحدث فيها عن تجربة الذهاب الى المدينة لاول مرة ، وكيف كانت الشوارع تلمع باضواء الليل لدرجة ان بطل القصة أراد ان يسأل صديقه ــ لولا الخجل ــ من الذى يدفع ايصالات عدادات النور ؟ الا تتجلى الرؤيه البكر ايضا فى وصفه فم فتاة افريقية متمدينة يرقص معها لاول مرة فى حيانه ، فيبهر بشكلها ويصف الطلاء على شفتيها فيقول ان فمها بدا كـ « جرح جديد » ؟

وعلى طريق التجديد تسير ايضا بعض القصص السوفييتية الحديثة ، ويعد هذا ــ اذا حكمنا على ضوء الظروف مرة اخرى ــ « ثورة » ، ذلك ان اكثر القصص السوفييتية الحديثة محددة الاتجاه ، سواء فى الشكل او المضمون ، ومع ذلك لم يمنع هذا من ظهور قصة « جديدة » لكاتب سوفييتى معاصر اسمه يورى اوليشا والقصة بعنوان « ليومبا » وقد ظهرت عام ١٩٣٥ . انها قصة تأثرية الى ابعد حد ، تؤثر على القارىء بالصور المتناثرة التى تتشابك فى النهاية مثلما تتشابك وتتعانق قطع الموزايكو الملونة فتشكل ــ آخر الامر ــ لوحة كاملة . وهى تؤثر على القارىء لا بالحدث أو «السرد» وانما بالشحنات التى تحملها الكلمات وتحملها الصور . ومن ناحية المضمون لا تلتزم بالخط الايجابى والشخصية الصحية والنهاية السعيدة ، وانما تقدم شيئا اشبه بكابوس وهلوسة .

والواقع ان الذى يواكب القصص القصيرة الممتازة التى تظهر اليوم يلحظ كيف انها تنحو نحو الوجود التشكيلى ، واكثر التجارب اصبحت تجرى على الالفاظ . اختيار اللفظة الكهربية الموحية ، الاعتماد على التكرار احيانا ، خلق كلمة جديدة تؤثر على القارىء بعبيرها الغريب وايقاعها النغمى (سالنجر) ، الغاء كل القوانين المتواضع عليها ، الاقتراب اكثر من السينما ، مواجهة الواقع بشجاعة وجرأة . ومن الملامح الهامة ايضا النظر الى الجمال والقبح بمنظار جديد . فما اكثر القصص القصيرة التى تكتب اليوم وتبعث على التقزز و « القرف » اذا نحن وضعناها فى ميزان الجمال التقليدى ، لكنها انما تخضع لمعايير الجمال والقبح الجديدة ، معايير اللوحة التى لم تعد « جميلة » جمال لوحة لليوناردو دافنشى .

من العبث ان يطمع هذا المقال فى « تغطية » كل دول العالم باحثا عن ملامح القصة القصيرة المعاصرة . ان هذا يحتاج الى كتاب . يحتاج ايضا الى مراجع عز وجودها ، ووضحت ندرتها فى هذا الحقل بالذات . فليكتف ختام المقال ، اذن ، ببعض دول اخرى : المانيا ــ ايطاليا ــ اسبانيا ودول امريكا اللاتينية .

لوحظ ، في المانيا ، ان القصة والرواية القصيرة زائران جديدان ، والسبب ان الادب الالماني لم يحظ بظهور اسلاف من امثال بوكاتشيو ، وتشوسر ، وسرفانتس .. ممن كانوا منبع الهام للفن القصصي والروائي في بلادهم . لكن ، اذا كانت القصة القصيرة قد ظهرت مؤخرا فانها ازدهرت بسرعة ازدهار نبات شيطاني . بيد انها وجدت نفسها حبيسة قوانين وضعها بعض الادباء وعلى رأسهم جوته . يجب ان تتضمن القصة حادثة لم يسمع بها احد . يجب ان تتضمن القصة « نقاط تحول . » يجب الا تتناول شخصية ، او تطور هذه الشخصية. يجب ان تدور حول حدث واحد . يجب ان تكون واقعية . لا يجب ان تكون واقعية . غير ان الفنان الالماني الاصيل ، شأنه شأن أي فنان اصيل ، كثيرا ما مارس فنه بعيدا عن النظريات ، ضاربا بها عرض الحائط . مهما يكن من امر فقد مرت القصة الالمانية القصيرة بالمراحل التي مرت بها زميلتها في اوربا : الكلاسيكية – الرومانتيكية – الواقعية – الطبيعية – الرمزية (التي اطلق عليها في المانيا : الواقعية الجديدة) . ثم تحولت الى الانطباعية ، لتعود من جديد الى الواقعية الجديدة .

فاذا انتقلنا الى ايطاليا مفتشين عن القصة القصيرة المعاصرة لفتت انظارنا ظاهرة . الاقليمية. هناك قصص ايطالية قصيرة موقعها تريستا ، واخرى فلورنسة ، وثالثة روما . وقد استقرت الاقليمية في القصة الايطالية وحققت لها الثراء ، اذ استفادت من حوار الاقليم وطريقته في التعبير ، وثقافة الكاتب النابعة من نشأته في مسقط رأسه . ليس غريبا اذن ان يرتبط اسم البرتو مورافيا بمدينة روما ، وان يرتبط اسم ايتالو سفيفو (المتوفى ١٩٢٨) بتريستا ، وسيروا (المتوفى ١٩٢٧) بنابولي . واثارت الاقليمية تلك القضية : العلاقة بين الاقليم والمركز ، بين الفرع والاصل ، بل بين الفرد والدولة . وظهر هذا في كثير من القصص القصيرة المعاصرة ، بل تبلور في الرواية ايضا . واقرب مثال الى الذهن رواية الكاتب الايطالي الكبير اجناتسيو سيلوني « خبز ونبيذ » التي تدور حول المقاومة ، مقاومة الفرد او مجموعة من « الافراد » للسلطة .

وما دمنا في ايطاليا ، فلا بأس من التعرف على بعض الخطوط التي تضاف الى اللوحة الكبيرة ، لوحة القصة القصيرة المعاصرة في العالم . ظهر كتاب ايطاليون كثيرون استفادوا من الصحافة وهم يكتبون قصصهم ، بل مارس بعضهم العمل الصحفي لفترة طويلة ، وعلى مستوى المسئولية . ومنهم من كتب قصصا جيدة اعتبرها احد الكتاب الامريكيين (وليام اروسميث في كتابه « روايات قصيرة حديثة من ايطاليا ») نثرا تسجيليا ، ولم يفقدها هذا الوصف حقها في الدخول الى حظيرة فن القصة . كذلك استفادت القصة الايطالية من المعارف الحديثة ، وعلى الاخص علم النفس ، واستفادت من مؤثرات «الحدوتة» التي برعت فيها قديما ولمع من اجلها اسم بوكاتشيو. غير ان اهم ما يميز القصة الا[illegible] ، بعد الحرب ، واقعيتها او ما يسمى بـ « الواقعية الجديدة » . عانت ايطاليا من الفقر والحرب والمشاحنات الداخلية، وعانت من فقر الجنوب بصفة خاصة ، فلم يكن هناك مهرب من الواقعية . وظهرت هذه الواقعية في المضمون ، واستدعت ايضا شكلا تجريبيا ، واقعيا . لكن هذه الواقعية لم تكن دين الجميع ، فقد خرج عنها البعض .

ازداد انشغال القصة القصيرة بالتكنيك ، وازداد تأثرها بالعلم ، وسعى البعض الى معالجة موضوعها معالجة الطبيب للمريض في حجرة العمليات . كان هناك سعي وراء « الموضوعية » ، والصرامة ، وتجربة تلك اللعبة : المباعدة بين الخالق وعمله الفني .

وسط هذا كله اصرت القصص الاسبانية القصيرة – في اسبانيا ودول أمريكا اللاتينية – على التزام الذاتية والدفء . القصص الاسبانية ، اذا جاز التعميم ، تاريخ تعبر عن رؤية ذاتية قد تكون غير سليمة لكنها تظل رؤية ذاتية تحري صاحبها الصدق والنزاهة قدر مستطاعه . واذا كانت تشترك مع القصة الايطالية في شيء ففي ذلك الاصرار على الاقليمية . انها قصص ملتصقة بتربة البلد ، واهله، وعاداته . لكنها تفتح نوافذها ايضا على الثقافة القادمة « من الخارج » ، من فرنسا وانجلترا وامريكا مثلا . والغريب ان الادب المغرق في الاقليمية هو الادب العالمي في نفس الوقت .. هكذا قال اجناتسيو سيلوني يوما .

واذا نحن رجعنا الى القصة الاسبانية ، تاريخها وملامحها ، وجدنا انها اخذت – في تطورها – أشكالا عدة . فقد بدأت في شكل « حواديت » أو حكايات شعبية ، الى أن وصلت الى شكلها المعاصر ، المعبر عن الرؤية الذاتية لكاتبها . ولقد ظلت القصة الاسبانية ترتدي ثوب « الحدوتة » حتى عصر النهضة ، ثم اذا بها تعبر عن مزاج القصاص ، ونظرته الخاصة ، وهي النظرة التي أباحت له ان يلتقط موضوعا قديما على سبيل المثال ليصوغه صياغة جديدة ... كما

يراه هو • وظهر سرفانتس • واذا كان ترجنيف قد ذكر ـ كما سلف ـ ان كل كتاب القصة قد خرجوا من تحت « معطف » جوجول ، فان احدى الدراسات الخاصة بالقصة الاسبانية « قصص وحكايات اسبانية » اعداد هاربيت دى اونيس) تذكر ان القصة الاسبانية الاصيلة ـ فى شكلها الحديث ـ خرجت من حكايات سرفانتس • ويتجلى اسهامه فى انه اكسب الحكاية نظرته الخاصة • وهى السمة التى ظلت تميز القصة الاسبانية •

ثم دخلت الواقعية القصة الاسبانية ، واكسبتها حيوية هائلة • وتقع حركة الواقعية فى فترتين :فترة تبلغ اوجها عام ١٨٧٠ لكنها تبرز ـ بصفة خاصة ـ فى حقل الرواية • اما الفترة الاخرى الهامة فتبدأ بعد عام ١٨٨٠ •ولقد اسهم فى تبلور القصة القصيرة الواقعية زيادة عدد الصحف والمجلات ••• وهى السوق الرائجة لهذا الشكل الحديث من أشكال الادب • وظهرت باقة من الكتاب البارزين :

اميليا بادروباثان ، بالاثيو بالديس ، ليوبولدو الاس، بلاسكو ايبانييث، وأرسى هؤلاء دعائم المذهب الطبيعى • غير ان هذا لم يخمد ابدا طابع القصة الاسبانية : انهاقصة نارية لا تؤمن بالملاحظةالباردة ، المتباعدة ، العلمية ••• كما هو الحال فى قصص فرنسية كثيرة مثلا • والسبب ان الكاتب الاسبانى لا يرى الانسان كشىء تجريدى ، او العوبة عاجزة فى يد قوى قدرية ، وانما يراه فردا ، له نواحى ضعفه، لكن يتمتع ايضا بنواحى القوة • فردا ينهزم ، لكنه ينتصر أيضا • ان حرية الارادة عقيدة اسبانية •

وعندما اخذ القرن التاسع عشر يوصد ابوابه حدث رد فعل ضد الواقعية ، والطبيعية • وتغلبت الروح الاسبانية من جديد • وتميزت الفترة الحديثة بذلك الطابع الذاتى الغنائى ، وذلك التأكيد لشخصيته القاص • من اجل هذا يختلف كل قاص عن زميله اختلافا ضخما • ثم حققت القصة القصيرة ازدهارا كبيرا فى امريكا اللاتينية ، بعد ان حققته فى اسبانيا ، وظهر المجدد فى مختلف دول امريكا اللاتينية ـ فى وقت واحد تقريبا ـ وارسوا دعائم الرواية والقصة الحديثة • وتألق هذان الشكلان فى فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى •

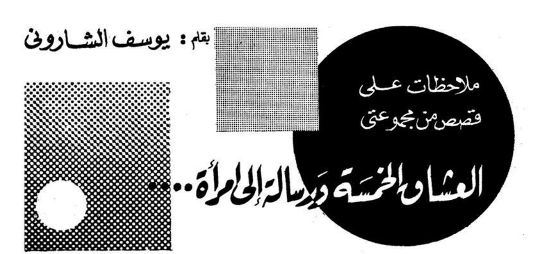
هكذا أسهمت القصة الاسبانية بشيئين : الدفء، والاقليمية الصادقة التى تتخطى بصدقها الحدود وتؤثر فى مشاعر الجميع ، فى مناطق مترامية من العالم • وقد يبدو ان القصاصين الاسبان ينفذون اليوم وصية سارمينتو لكتاب شيلى منذ قرن مضى :

« •• ركزوا انظاركم على ارضكم ، على الناس ، على العادات والانظمة ، والمشاكل القائمة فيها ، واكتبوا عن هذه الاشياء بحب ، بقلوبكم ، بمشاعركم نحوها، اكتبوا عما يعن لكم، وسيفسر هذا عن مضمون جديد ، رغم ان الشكل قد يكون معيبا، سيخرج انتاجكم مفعما بالعاطفة الجياشة ، رغم انه قد يفتقر الى الدقة احيانا •• »

ثم لا يمكن ان ينتهى هذا المقال دون الاشارة الى ظهور ذلك الشكل الذى يتأرجح بين الرواية والقصة القصيرة • وقد توحى كلمة « ظهور » بحداثة هذه الظاهرة • لكنها ، والحق يقال ، ظاهرة قديمة ، كل مافى الامر انها تبلورت فى هذه الايام تبلورا هائلا وكادت ان تصبح شكلا مستقلا له قوانينه الخاصة به • وليس من قبيل المبالغة ان يرجع المرء استفادة هذا الشكل من القصة القصيرة • ان القصة الطويلة ، او الرواية القصيرة ، قد تعلمت من القصة القصيرة التركيز والابتعاد ـ فى حالات كثيرة ـ عن الحدوتة، والاقتراب من الطريقة التعبيرية ،الانطباعية• انها الفن الذى برع فيه كتاب فرنسا ، وبرع فيه بامريكا ، سالنجر وصول بيلو •

ثم لا يمكن ان ينتهى هذا المقال ايضا دون الاشارة الى اللارواية ، وليس من قبيل المبالغة ايضا ان يرجع المرء استفادة اللارواية ـ التى ازدهرت فى فرنسا ـ من القصة القصيرة المعاصرة•فاذا لم يكن من الضرورى ان « يحدث شىء » فى القصة القصيرة المعاصرة فان اللارواية تؤمن بهذا ايضا • واذا كان التسلسل الزمنى معدوما فى قصص قصيرة عديدة ، فانه معدوم فى اللارواية ايضا • واذا كان ابطال القصة القصيرة الحديثة من المطحونين فان اللارواية تدور ايضا حول المطحونين واللامنتمين• واذا كان للقصة القصيرة الحديثة وجودها التشكيلى وتأثيرها الانطباعى فان هذا ـ فى كثير من الاحوال ـ جوهر اللارواية •
ثم :

الى اين ايتها القصة القصيرة الحديثة ؟
انه سؤال تصعب الاجابة عليه •



العشاق الخمسة ورسالة الى امرأة...

ملاحظات على قصص من مجموعتي

بقلم : يوسف الشاروني

لم أفكر يوما أن أقف لأتأمل تطـورى الفنى ، ولعل ذلك راجع الى سببين : أولهما أننى لم أبدأ - كما يبدأ القصاصون الذين يتطور فنهم اليوم فى بلادنا العربية - بالطريقة التقليدية لأنتقل منها الى مرحلة أكثر معاصرة ، بل لقد بدأت مباشرة - على ما أعتقد - بالأساليب المعاصرة فى القصة القصيرة • ذلك لانى كنت مشغولا بالتعبير عن أزمة الانسان المعاصر ، وقد فرض على هذا المضمون المعاصر الشكل الفنى المعاصر فيما يبدو • ولا أزال أذكر السؤال الذى وجهه الى أحد الانجليز المهتمين بالادب العربى المعاصر - وهو مستر جونسون ديفيز - بعد ان قرأ لى قصة « الطريق » عام ١٩٤٧ اذا كنت قد قرأت فرجينيا وولف ، ولم أكن قد قرأت لها شيئا بعد وان كنت قد سمعت عنها ، فما ان قرأتها حتى أدركت سر سؤاله • فقد كانت طبيعة العصر - وليس عامل التأثير المباشر - هو الذى فرض هذا الاسـلوب المتقارب •

أما ثانى السببين فهو انى بدلا من أن أمر بمراحل التطور الفنى فى تسلسل تاريخى ، حاولت ان أجرب أكثر من شكل فنى فى وقت واحد • ذلك انه بالرغم من أن الطابع الغالب على قصصى هو الاسـلوب المعاصر ، الا أن المتأمل فيما نشرته من قصص يلاحظ بسهولة تجاور أكثر من شـكل فنى ، وبعض هذه الاشكال ينتمى الى الطريقة التقليدية فى القصة ، فقد كنت أحس كأنما انا فى معمل وعلى ان أجرب مختلف طرق التعبير الفنى •

لهذا فلست استطيع أن أقول ان هناك تطـورا فنيا ملحوظا على نحو ما نجد عند كاتب مثل نجيب محفوظ كتب الراوية التاريخية ثم الرواية الواقعية الاجتماعية ثم انتقل أخيرا الى ما يصفه بالواقعيـة الجديدة فى مرحلته الاخيرة • ومع ذلك فانه يمكن القول ان هناك شيئا من الاختـلاف بين قصص المجموعة الاولى « العشاق الخمسة » والمجموعة الثانية « رسالة الى امرأة » والمجموعة الثالثة التى لم تطبع بعد وان نشرت أغلب قصصها فى الصحف والمجلات وهو اختلاف فى الاهتمام بموضـوع معين يفرض شكلا فنيا معينا ، لكنه ليس تطورا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة • ويمكن القـول بوجه عام ان أغلب قصص مجموعة « العشاق الخمسة » سنة ١٩٥٤ تدور حول أزمة الانسان المعاصر ، الانسـان فى منتصف القرن العشرين ، وان التكنيك المعبر عن هذه الازمة هو تناول قطاع عرضى فى الحياة حيث تتزاحم أحداث العالم فى لحظة زمنية واحدة معبرة عما تزدحم به لحظتنا الحضارية الراهنة من صخب وصراع • أما أغلب قصص مجموعة رسالة الى امرأة سنة ١٩٦٠ فانها تدور حول احترام الانسان واهميته والتفكير الغالب عليها هو ما أطلق عليه الاسـتاذ يحيى حقى فى كتابه « خطـوات فى النقد » اسم « القصة ذات البعدين » أى أن يكون للقصة الواحدة مظهران وعالمان احدهما معنوى باطنى والآخر خارجى مادى يعمل عمل الرمز • لهذا كان الطابع الغالب على قصص المجموعة الاولى هو الطـابع الميتـافيزيقى الشاعرى ، بينما الطابع الغالب على قصص المجموعة الثانية هو الطابع الأكثر واقعية •

وأحب ان أقرر بادىء ذى بدء اننى كاتب مقل ، لم أكتب خلال أكثر من خمسة عشر عاما الا حوالى خمسين قصة قصيرة بمعدل قصتين أو ثلاث قصص فى العام الواحد ٠ وترجع هذه الظاهرة الى عدة عوامل أهمها : اننى لا أكتب القصة فى جلسة واحدة كما يفعل كثير من القصاصين ، فبالرغم من ان الفكرة العامة للقصة قد تكون واضحة لدى بحيث اننى قد أكتب بدايتها ونهايتهاقبل ان اكتب مابينهما الا ان عملية الكتابة بالنسبة لى هى نفسها عملية الابداع الفنى ، فعن طريق الكتابة والكتابة وحدها تتم اكتشافاتى التعبيرية ٠ كما احس أننى لا اتعرف على شخصياتى الفنية مرة واحدة ، بل تحدث الالفة بينى وبينها شيئا فشيئا ،٠تماما كما تلتقى بشخص غريبلاول مرة فانكلاتعرف عنه كل شىء مرة واحدة ولكن الالتقاء يوما بعد يوم هو وحده الذى يزيل الكلفة بينك وبينه ، حتى لقد يأتى يوم تعرف فيه عنه أدق تفاصيل حياته ٠ هكذا أمر العلاقة بينى وبين شخصياتى ، فانى ما البث أن أتعرف عليها شيئا فشيئا حتى لاعرف من اسرارها أكثر مما أعلنه للقراء ، لانها أسرار قد لاتتصل بالقصة فاحتفظ بها بينى وبين تلك الشخصية ٠ لهذا كله فانى أكتب القصة مرة بعد أخرى بحيث قد اعيد نسخها أكثر من خمسة عشر مرة تستغرق كتابتها نحو ثلاثة شهور ، بل انها طالما لم تنشر فانى اظل أعدل وابدل فيها ، ويكون النشر هو طريق الخلاص الوحيد منها ٠

أما ثانى اسباب الاقلال فهو انى لم انصرف الى كتابة القصة وحدها ، ذلك ان الدراسة الادبية تشغل حيزا غير قليل من اهتماماتى ٠ والواقع اننى لم اجعل الكتابة بوجه عام يوما من الايام فرضا على فانا ما أزال حتى هذه اللحظة كاتبا هاويا لم يحترف الادب ، لا أكتب الا عندما تلح على فكرة ، لا أقيد نفسى بكم معين ولا شكل أدبى معين ، أنصرف الى القراءة طالما هنالك رغبة فى ذلك ، فاذا اخصبت تلك القراءات افكارى بحيث استطعت ان أخرج منها بدراسة أدبية معينة فانى لا اتردد فى كتابتها ٠ ومما تجدرملاحظته ، ان دراساتى الادبية ـبدورهاـ أشبه بالقصة القصيرة ، فكما انى لم اكتب الرواية الطويلة فانى لم أقم بدراسة أدبية مطولة فى موضوع واحد ، بل هى دراسات اشبه بالقصة القصيرة ، تدور حول فكرة يمكن التعبير عنها فى صفحات قلائل ، ولعل هذا ـ فى الحالتين ـ راجع الى ميلى الشديد للتركيز ٠

ولهذا فان اختيارى للقصص التالية لن يكون على أساس تطور معين ، بقدر ما سيكون على أساس أن كلا منها تمثل اتجاها أو مجموعة من القصص متقاربة الاتجاه ٠ هذا مع احساسى باننى لا أجيد التحدث عن قصصى ، فأنا أحس أننى أودعت قصصى أكثر بكثير مما يمكن وصفه أو تلخيصه ٠ وليس معنى هذا ان القصاص ليست لديه حاسة نقدية ، بل على العكس من ذلك فان الفنان هو الناقد الاول لعمله الفنى ٠ انه لا يضع أمامه بالطبع القواعد النقدية أو المذاهب الفنية عندما يكتب ٠ لكنه قطعا يستفيد من ثقافته وخبرته الماضية ومن آراء النقاد فيما ابدع ٠٠ وعندما انتهى من كتابة قصة فاننى أقرؤها بالطبع بعد أن أصبحت كلا متكاملا ٠ ومعنى هذا اننى أول قارىء لاعمالى الادبية ، وفى هذه الحالة اتخذ موقف الناقد ٠ وأحاول أن اتبين اذا كنت قد نجحت فى نقل ما قصدت اليه الى القارىء ٠ ولاشك ان سر نجاح أية قصة هو ان كل عنصر من عناصرها: كالشخصيات والحركة والاسلوب والموضوع بل زمانها ومكانها ، له وظيفته العضوية بحيث لا يمكن فصل احدها عن الآخر ، بل بحيث لا يمكن تغيير عنصر من هذه العناصر الا اذا تغير العمل الفنى كله ٠

١ ـ العيد (من مجموعة العشاق الخمسة)

ـ قصة خادم صغير يعمل فى أسرة تعمل بالمدينة، تحكى قصة ذهابه الى أسرته بالريف ليقضى العيد معها ٠ وهى تصور ذلك فى تتابع زمنى ، ومن هنا كان انتماؤها الى الشكل التقليدى فى القصة ٠ فالقصة تبدأ بالطفل وقد أقبلت امه لتتسلمه من سيدته ، فركوبه السيارة العامة ثم وصوله الى قريته وذهابه فى اليوم التالى مع والدته الى المقابر ليزور قبر أبيه ٠٠ الخ حتى عودته الى المدينة مرة أخرى ٠ وهذا التتابع الزمنى هو الذى يكون عنصر الحركة فى القصة ، بل هو الذى يجعل منها قصة وبدونه تصبح مجرد وصف ٠

ـ لكن هذه الحركة الظاهرية تقابلها حركة داخلية فى نفسية الطفل ، بل ان القصة مكتوبة بضمير المتكلم ، فهى تلتزم بوجهة نظر الطفل ، ونفسية الطفل لا تعبر عنها انفعالاته فحسب بل واحلامه أيضا ٠

ـ القصة تصور انسانية هذا الطفل ، لا سيما حين

يفكر – على صغره – فى أخته الصغيرة حتى انه يحمل اليها هدية من المدينة • وفى العيد لا ينسى أن يجعلها تشاركه – ومعها ابن خالته ما يشترى •

– القصة تصور أيضا تجاور الفرح والحزن فى حياتنا ، فبجوار المدافن تقام المراجيح وتجرى عمليات البيع والشراء ، فالموت والحياة متجاوران، وبينما يبكى الكبار موتاهم ، يمارس الاطفال العابهم •

سياحة البطل (من مجموعة العشاق الخمسة) :

– المشكلة التى تدور حولها القصة مشكلة يعانيها معظم سكان العالم فى عصرنا ، هى البحث عن شقة أو سكن • لكن القصة لم تنحصر فى نطاق هذه المشكلة الواقعية،بل حاولت ان ترتفع بها الى المستوى الميتافيزيقى فأصبحت مشكلة البحث عن هدف ، والمشكلة الواقعية مجرد وسيلة للتعبير عما هو أعم وأهم •

– كما ان المشكلة مشكلة معاصرة ، فاننى أعتقد أن المعالجة أيضا معاصرة ، وقد تحقق هذا الاداء المعاصر عن طريق ثلاث محاولات أساسية :

أولا – ارتباط القصة بقصة سابقة تتفق معها فى الخطوط الاساسية لكنها تختلف معها فى التفاصيل، حيث ان كلا منها تمثل المجتمع والعصر الذى عبرت عنه • وهذا مألوف فى كثير مما يكتب من قصص فى عصرنا • مثل قصة شرقى عدن لشتاينبك التى تشير الى قصة قابيل وهابيل ولكن بين شقيقين أمريكين فى القرن العشرين • أما قصة سياحة البطل فهى تتفق فى الخطوط العامة وقصة سياحة الحاج التى كتبها جون بارنيان فى القرن السابع عشر الميلادى ، وهى قصة رمزية تعبر عن سياحة المؤمن فى هذه الدنيا حتى يصل الى المدينة السماوية ، وهو يلقى فى رحلته الاهوال والمغريات التى تعيقه عن مواصلة رحلته ، وهو يتغلب عليها الواحدة بعد الاخرى ، حتى يصل الى هدفه • وقصة سياحة البطل تقول ان ما كان يبذله المؤمن فى القرون الوسطى من مجهود من أجل الوصول الى المدينة السماوية أصبح يبذله الرجل العادى فى حضارة القرن العشرين من أجل الوصول الى أوليات الحياة : العمل والحب والمسكن • من هنا كان اسم البطل : مؤمن عبد السلام عيد ، ومن هنا كان قيامه ببحثه يوم الجمعة • حقيقة أن يوم الجمعة هو يوم أجازته ، لكنه أيضا يوم الصلاة فى المسجد الجامع، لهذا جاء فى بداية القصة القول بأنه : ذاهب كأنما ليؤدى واجبا دينيا •

وهذه الاشارة الى سياحة الحاج توضح كثيرا من تفاصيل القصص فأصحاب العمارات لهم هيبة تقارب هيبة الانبياء بالنسبة للباحثين لديهم عن مكان يأوون اليه ، ولابد من وجود الوسيط أو الولى بين هذين الفريقين ، وهم هنا البوابون أو الخدم فى المقهى ، ولابد من استرضائهم كى يقبلوا التوسط لدى هؤلاء الذين يبدو أنهم من غير جنس البشر • وهذا واضح من اسم يونس بك صاحب العمارة فهو يطابق اسم احد الانبياء •

ثانيا – أما الخاصية الثانية للاداء المعاصر فهى



تصوير الجو غير الواقعي بطريقة تبدو واقعية للغاية وهذا أشبه بما يحدث في الكابوس ، حيث تعاني احداثا لا يمكن تحملها لغرابتها ومع ذلك فانها تبدو كأنها تقع فعلا ، وهذا الجمع بين المتناقضين هو ما يتميز به الكابوس . ولعل فرانز كافكا الآن أشهر من ابتدع هذا الاسلوب . ونحن نجد هذا في قصتنا عند تصوير رواد المقهى أنهم لا يسيرون جميعهم باعتدال ، ولعل هذا لون من ألوان ما يعرف بالطريقة التعبيرية وهي رؤية الوجود من خلال نفسية معينة . فكأنما اصحاب العمارات ، على هيبتهم ذوو عاهات بالنسبة للباحثين عن مساكن لديهم ، بل ان هذه العاهة لون من ألوان هيبتهم ، حتى ان البطل وصديقه عرجا قليلا في مشيتهما حتى لا يكتشف أحد انهما غريبان عن المقهى ، ومع ذلك لم تفلح حيلتهما ، الى جانب هذا كانت هناك عشرات التفاصيل الدقيقة عن المقهى ومدخله وطلائه .. الخ مما يجعل اللا واقع يبدو واقعيا .

ثالثا ـ وهناك أخيرا استخدام الضمائر الثلاثة ضمير المتكلم حينا ، والمخاطب حينا والغائب حينا ثالثا . وهذا نوع من التحرر في الاسلوب لم يكن مألوفا في أدبنا (قبل عام ١٩٥٠ عندما نشرت القصة لأول مرة) ، فالمعتاد ان القصة تبدأ وتنتهي باستخدام ضمير واحد ، الا اذا كان هناك حديث مباشر فانه يأتي على لسان المتحاورين بضمير المتكلم بطبيعة الحال . ولكن في قصة سياحة البطل تستخدم الضمائر الثلاثة لا لنقاط الحديث من أكثر من زاوية . ومع ذلك فان هذه الضمائر الثلاثة ليست الا ضمير البطل في النهاية ، فحتى عندما يستخدم ضمير الغائب ، فانه لا يعبر عن وجهة نظر المؤلف الخالق العالم بما لا يعلمه البطل ، بل لا يزال الضمير هنا ملتصقا بالبطل معبرا عن آرائه وانفعالاته ، تماما كما لو كان ضمير المتكلم ، كذلك الامر عند استخدام ضمير المخاطب ، انه مؤمن نفسه يتحدث الى نفسه ، ويخاطب ذاته ، تماما كما يحدث لكثيرين منا حين يشغلنا تفكير عميق ونريد أن نوضح الامور لانفسنا .

ـ ولئن كان الحاج في رواية جون باونيان قد استطاع ان يصل فعلا الى المدينة السماوية ، بل وان تلحق به بعد ذلك زوجته واطفاله ، فان مؤمن عبد السلام عيد لم يعثر في سياحته على هدفه بعد ، ومع ذلك فانه سيواصل رحلته ، لأنه ليس أمامه أن يختار .

الوباء : (من مجموعة العشاق الخمسة) :

ـ البطل الحقيقي في هذه القصة هو الوباء ، والوباء هنا واقع ورمز ، الواقع هو الوباء الذي اجتاح مصر بعد الحرب العالمية الثانية ، والرمز هو وباء الخلافات والحروب الذي يسود العالم . لهذا ففي القصة خطان ، خط طولي هو قصة الراوي مع البغي نعمات : اعتزامها ان تذهب الى الحج لتكفر عن حياتها الملوثة ، ثم منعها بسبب انتشار الوباء ثم التقاؤها من جديد بالراوي . وخط عرضي محلي وعالمي ، أما المحلي فيتناول انعكاس الوباء على مختلف الناس وفي مختلف القطاعات ، أما العالمي فيتناول اشارات سريعة الى ما يعانيه العالم من انقسام وخلاف أشبه بالوباء ، ومن تداخل هذين



الخطين يتكون نسيج القصة • ووعي الراوي هو الذي يربط بين الخطين ، فليس الوباء في حياته الا رمزا لما يعانيه العالم الذي هو موجود فيه ، وليس ما يعانيه العالم الا أرضية للوباء في حياته الخاصة فليس هناك اذن فاصل بين الحدث الشخصي والحدث العام • وهذا هو مغزى تكنيك هذه القصة • والانتقال من الحدث الخاص الى الحدث العام يبدو وكانما هو مفروض في أول القصة ، غير ان الاندماج بين الحدثين ، وبالتالي بين الخط الطولي والخطوط العرضية ما يلبث ان يتم في النهاية •

- الراوي يحاول مجابهة الوباء بالتهكم من أول القصة حتى آخرها ، فهو يشبه الوباء برسالة عظيم ، وأول عشرة أصيبوا به هم شهداء تلك الرسالة • وما يلبث الوباء أن يصبح حدثا تؤرخ الحوادث ابتداء منه • وقرب ختام القصة يصبح قوة تخيف الاصحاء ! ويبلغ التهكم المرير قمته عندما تقترح نعمات على الراوي ان تحتفل بعيد ميلاده — وهما فيما يشبه الحجر الصحي — بأن تدغدغه فيضحك ! ولهذا بدت القصة كأنها قهقهة كبيرة وختامها صمت فجائي على نحو ماعبر الراوي في الخاتمة •

دفاع منتصف الليل (من مجموعة العشاق الخمسة) :

- في هذه القصة أصبح مجرد الوجود الانساني تهمة على صاحبها ان يدافع عنها والا ادين بتهمة وجوده • وعندما يصبح الوجود موضع اتهام ومحاكمة فان ذلك لا يمكن أن يتم الا في ظلمة الظلمات • ولهذا فان صاحب الدفاع يعلنه في منتصف الليل وهذه دلالة اختيار الليل ، ومنتصف الليل بالذات ، زمنا تقع فيه احداث القصة •

- الجو في القصة جو كابوسي ، حيث يجثم الواقع على الانسان المعاصر فيبدو — لشدة ضغطه — كأنه ليس عالما حقيقيا بل هو اشبه بالكابوس حيث تحس انك في عالم واقعي ولا واقعي في وقت واحد • وقد تم هذا فنيا باعطاء تفصيلات دقيقة لاحداث تبدو غير واقعية • لهذا ليس هناك فصل بين الواقع والرمز ، فقد تحطم الحاجز بينهما •

- الضغط الواقع على الراوي معبر عنه بأكثر من طريقة ، فأسقف الاماكن التي يدخلها منخفضة ، سقف السيارة وسقف السينما وبيته في طابق تحت الارض • لهذا فانه يضطر دائما الى الانحناء حتى لقد تكرر الفعل ينحني مرات كثيرة •

- الحركة في القصة تهدف الى التعبير عن فزع المطاردة بأحداث متلاحقة ، وعن الخوف المتبادل بين الراوي ومن يلتقي بهم ، والحرص على الحياة الى درجة تساوي فقدانها •

- اللغة — كما عبر الراوي بوضوح — رمز خلاصه وسعادته ، لكنه فقدها أثناء المطاردة فقد بذلك أمله في الخلاص والسعادة ، ولم يبق له الا هذه الكلمات يقولها دفاعا عن نفسه •

الرجل والمزرعة (من مجموعة رسالة الى امرأة) :

- التداخل في هذه القصة بين واقعين احدهما يرمز للآخر • فالمزرعة في حياة بدوي افندي حقيقة لكنها في الوقت نفسه رمز لزوجته • فالرمز في هذه القصة ارتفع الى مستوى الواقع، وبتعبير آخر فان مهنة بدوي أفندي — وهي مهنة المزارع — لم تكن اعتباطا بل لها وظيفتها الفنية •

- المرأة والمزرعة في القصة أشبه بالخطين المتوازيين وهذا هو سر تكنيك هذه القصة • فمثلا اذا رسم فنان تكعيبي حصانا وجاء ناقد يقول انه لا يوجد حصان بهذا الشكل ، فهو يشير الى الواقع ولايشير الى العمل الفني ، لان الصدق الفني يختلف عن مطابقة الواقع • فالمكعبات التي يتكون منها الحصان هي التي تجعل من الرسم فنا وهي التي تفرقه عن الحصان الواقعي • وهذا ماخالفني فيه الاستاذ يحيى حقي حين قال عن هذه القصة في كتابه « خطوات في النقد » :

« ولكن في اضطراره — أي المؤلف — لمسايرة الصنعة يزل حين يقول على لسان الزوج — وقد عرضت له فكرة التلقيح الصناعي لزوجته — انه رفضها لانه يريد ان تكون البذرة من أرضه ، مع ان الذين لهم اقل المام بالزراعة يعلمون مع الاسف الشديد ان المحصول لا يجود الا اذا اتيت له ببذرة من غير أرضك •• فلا يلزم في الخطين المتوازيين أو المتطابقين في القصة ان يكون كل منهما في طول الآخر بالسنتي والملي ، هنا لا ضير من مشية القزم مع العملاق » •

فهذا النص ينتبه الى الواقع أكثر مما ينتبه الى الفن ، لان التوازي مقصود فنيا لخلق وجود متمايز عن الوجود الواقعي ، له قواعده الخاصة به •

- ليس موضوع القصة أو هدفها التحدث عن مشاكل النسل والعقم كما خيل لبعض النقاد ، فليست هذه المشاكل الا الاطار الذي يبرز من خلاله هدف القصة وهو الكشف عن أهمية الانسان واحترامه ، وكيف ان عدم وجود طفل

يزعج شخصين كل هذا الازعاج ويجعلهما يلجآن الى وسائل علمية واخرى خرافية من أجل الحصول عليه ٠

وحدة القصة تتحقق عن طريق الزمن ، فأحداثها تقع ما بين ذهاب بدوى افندى ليطلب الطبيب حتى اللحظة التى تلد فيها زوجته ٠ ولكن فى هذه اللحظات أمكن الرجـــوع الى الزمن الماضى للكشف عن مقومات هذا الموقف مـــع العودة الى الحاضر من حين لآخر حتى لا يختفى عنا ٠

مع فائق الاحترام (من مجموعة رسالة الى امراة) :

الشخصية الرئيسية فى هذه القصة هى شخصية السيد محمود زعتر ، فهى قصة تعتمد أساساعلى شخصية بطلها ٠ وقد تحددت أبعـــــاد هذه الشخصية فى الفقرات الاولى اجتماعيا وجسميا ونفسيا ٠ فهو موظف حكومى (بعد اجتماعى) اشرف على الستين (بعـــد جسمى) وهو طيب سريع الانفعال (بعد نفسى) ٠

تبدأ القصة بهذه الجملة : منذ بضعة أيام وقع حادث خطير ٠٠ أقصد ٠٠ حادث سخيف للسيد محمـــــود زعتر ٠٠ وهذا هو عنصر الاثارة أو التشويق فى القصة ٠ وبعد هذه البداية أمكن تقديم شخصية محمود زعتر بابعـــــادها حيث تقطعه من حين لآخر الاشارة الى موضع هـــذا الحادث دون الافصاح عنه ، حتى لقد تكرر ذلك ثلاث مرات بالاضافة الى بداية القصة واضحان الغرض من هذا هو عدم املال القارىء حتى تتم تقديم شخصية زعتر والوقوف عليها ٠

شخصية زعتر بأبعادها ذات صلة وثيقة بأحداث القصة ، بل حتى اسمه له دلالته على شخصيته ٠

تهدف القصة الى بيان أهمية احترام الانسان (كأغلب بقية قصص المجموعة) ، فهى توضح كيف أن اهانة انسان ما قد تشيع الاضطراب فى حياته بالرغم من أنه قد لا تظهر لهذه الاهانة نتائج لها خطورتها فى العالم الخارجى ٠ فمحمود زعتر ـ بالرغم مما انتابه من شتى الانفعالات التى وصلت الى حد التفكير فى القتل أو الانتحار ـ ذهب الى عمله فى اليوم التالى كالمعتاد وكأن شيئا ما لم يحدث ٠

هذا الهدف تناقشه القصة من خـــلال ما يمكن تسميته بالبيروقراطية ٠فنحن نلاحظ ان الكلمات نفسها التى استخدمها محمود زعتر فى مشاجرته مع زوجته فى الليلة السابقة هى نفس الكلمات التى استخدمها معه رئيسة فى اليوم التـــالى ، فقد صرخ فيها ان تخرس ، تماما كما صرخ فيه رئيسه فى المكتب فى اليوم التالى ٠ كذلك كان لمحمود زعتر اطفال يعاملهم بالطريقة نفسها التى يعامل بها زوجته ٠ وقد اصـــبحوا بدورهم فى وظائف رئيسية فى أعمالهم تماما مثل الســـيد شديد رئيس ابيهم محمود زعتر ، حتى ان زعتر يتساءل عما اذا كانوا يعـــاملون مرؤوسيهم كما يعامله هو شديد ٠ وهذا معناه ان المعاملة التى يعامل بها زعتر امرأته وأولاده فى البيت يلقى مثلها فى العمل ، بل يعمل هو وامثاله على خلقها فالبروقراطية فى تربيتنا المنزلية تنعكس بدورها على البيروقراطية فى مكاتبنا الحـــكومية ٠ واذا استطعنا أن نتصور مغزى اخلاقيا للقصة فهو اننا اذا غيرنا من اسلوب التربية المنزلية نستطيع أن نغير من اسلوب التعامل فى مكاتبنا الحكومية.

وهكذا يتضح لنا أن السيد زعتر ليس الا ضحية نفسه ٠

الاشارة الى الخريف والوحل لها وظيفة مزدوجة ، فهى أولا تحدد الفصل الذى وقعت فيه أحداث القصة ، وهذا مما يســـاهم فيما يعرف باسم عملية الايهام بالواقع أى انه يعطى القصـــة احساسا أكثر بالواقعية ٠ أما الوظيفـة الاخرى فهى وظيفة رمزية ايحائية ، فالخريف رمز للسن المتقدم ، وهو هنا رمز لعمر السيد محمود زعتر ولاحساسه تجاه الحيـــاة ٠ أما الوحل فهو رمز للاضطراب الذى أصاب حياة محمود زعتر ٠

وفى نهاية القصـــــة نقرأ ان زوجته تعد له حذاءه وبذلته وقد نفضـــت عنهما الوحل الذى جف ٠ وهذه اشارة الى أن الاضطراب الذى وقع فى حياة محمود زعتر قد أوشك على الزوال ٠

وحدة القصة تتحقق عن طريق وحدة الشخصية والفكرة والزمن ، فأحداث القصة تقع خلال ٢٤ ساعة ٠ أما حركة القصة فتتحقق بوسيلتين: اما حركة فى المـــكان حين يتحرك محمود زعتر من مكتبه الى المنزل ثم من المنزل الى المقهى ٠٠ الخ واما حركة نفسية حين ينتقل محمود زعتر من فكرة الى أخرى ، وهى أفكار تتسم بالانفعـــال الشديد فى أول أمرها ثم تخفت حدتهـا شيئا فشيئا ، يقتل رئيسه ثم ينتحر ثم يستقيل ثم يكتب خطاب عتاب ثم يحلم حلما يكون فيه موضع الاستعلاء من رئيسه (حلم طيران ـ حلم انه يطير بجسمه وهو حلم الطيران الحقيقى ، راجع فى ذلك Gaston Bachelard : L'air et les Songes: وأخيرا يمزق الخطاب ٠



بقلم : إبراهيم أصلان

في النصف الأخير من الليل ، كان الجرسون قد وضع بضعة مقاعد على شاطىء النيل ، ولم أكن أعرف أحداً من أفراد الجماعة التى كنت منضما اليها معرفة وثيقة ولكن صديقي يعرفهم ٠

وكان أثنان منهم يلعبان الطاولة التى وضعت على منضدة خشبية منخفضة وصديقي يرقبهم ٠ أما الآخرون فقد كانوا يتحدثون فى أمور مختلفة ٠ وبين الحين والآخر كان الجرسون يعبر الطريق الى المقهى الصغير الذى يقع فى فجوة بين البيوت المتراصة على طول الجانب الآخر ، وذلك كلما طلب أحد منا مشروبا ما ٠ وكان معارف صديقي يجلسون الى يسارى مما جعلنى أجلس منحرفا بمقعدى ناحيتهم ٠ وبالرغم من أن مايو كان لا يزال فى أوله فان الجو كان حارا لدرجة أن الكافورة التى انتصبت أمامنا على الطوار لم تصدر عنها طيلة الوقت أى نأمه ٠ لم يكن هناك أثر للهواء فى ذلك الوقت المتأخر من الليل ٠ وبدا سطح النهر ساكنا وفى لون الرصاص المصهور ، عندما التفت صديقى الى وقال هو يبتسم :

ـ مالك ؟

قلت :

ـ لا شىء ٠

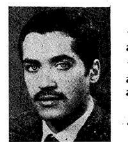
قال مؤكداً :

ـ انت متضايق ٠

شعرت بالضيق وأنا أقول :

ابراهيم محمد اصلان

- من مواليد طنطا في ٣ مارس ١٩٣٧ .
- يكتب القصة القصيرة والمسرحية منذ ما يقرب من أربع سنوات .
- نشر عددا من القصص القصيرة والمقالات في بعض المجلات المصرية والعربية .
- يعمل بادارة المواصلات اللاسلكية .
- أعزب



ـ لا أبدا .

قال :

ـ ليست عادتك .

ـ لا أشعر بأى ضيق .

ـ لماذا لا تتكلم اذن ؟

ـ وماذا أقول ؟

ـ أرأيت انك فعلا متضايق .

ـ أنت أدرى .

ـ تلعب طاوله ؟

ـ لا .

رفع الاثنان اللذان يلعبان الطولة رأسيهما . قال أحدهما :

ـ تلعب ؟

ـ لا .

هم بالقيام وهو يواصل :

ـ ليس عندى أى مانع . تفضل .

ـ شكرا . ليست لى رغبة .

قال صديقى :

ـ لماذا ؟

ـ لا أريد .

كان أحد الجالسين ، وهو شاب جهير الصوت ممتلىء وشعره خشن ومكوم على رأسه كنصف قالب من الطوب ، قد انفجر فى ضحكة عالية وأطاح برأسه وهو يدق بكفه على كف الجالس أمامه • وكان الجالس أمامه هذا شابا نحيلا أسمر اللون ، رد على صاحب الضحكة قائلا فى صوت جاد :

ـ لماذا تضحك ، ألا تصدق ؟

قال الآخر :

ـ وماذا قلت له ؟

ـ قلت له اننى لو كنت أملك هذا المبلغ ، ماكنت أتعبت نفسى وبحثت عن عمل •

قال صديقى موجها كلامه الى :

ـ أتحب أن ننصرف ؟

ـ كما تريد •

ـ بعد قليل ننصرف •

أشعلت سيجارة •

ـ تسمح كبريت ؟

كان صاحب الصوت هو الرجل الذى يجلس الى يمينى • ناولتـه علبة الكبريت • أعادها الى بعـد قليل :

ـ أشكرك جدا •

فكرت أن أطلب منه أن يحتفظ بها • كانت معى علبة أخرى • ولكنى أخذتها منه ووضعتها فى جيبى • قال :

ـ الجو حار جدا •

على الطـوار تقـدم رجل وامرأة • وكان الرجل يحمل طفلا صغيرا نائما • عندما اقتربا من مكاننا هبطا من على الطوار وخفتت أحاديث الجالسين • كانت المرأة ترتدى رداء خفيفا أخضر وفى حـوالى الخامسة والعشرين ، بيضاء وشعرها الأسود مملوم على رأسها وبطنها ممتلىء الى حد ما • همس الشاب النحيل الأسمر :

ـ ياروحى •

قال آخر ، وكان شابا وسيما وكنت أعرف أنه يجيد الغناء والعزف على العود ويدمن المقامرة •

ـ انها العودة الى البيت •

قال صاحب الشعر الخشن :

ـ طبعا • سـهرة ممتعـة ، الذهـاب الى البيت والتجرد من الملابس ، والزوجـة اللينة • أما أنت فما عليك الا الجلوس هكذا طول الليل ، على قارعة الطريق يا مبجل • لو تغيبت سـنة ما وجدت من يسأل عنك •

علق الشاب النحيل الأسمر :

ـ التجرد من كل شىء •

قال العازف لصاحب الشعر الخشن دون أن ينظر اليه :

ـ لم أقصد ذلك • لست مثلك •

ـ وماذا تقصد اذن ، يا فنان ؟

قال وهو يتطلع عبر الطريق :

أبدا • مجرد العودة الى البيت •

عبر الجرسون الطريق وهو يحمل زجاجة بيرة • فتحها ووضعها أمام الرجل الذى يجلس الى يمينى • التفت اليه • كان يجلس بجوارى مباشرة ، ولم يكن هناك أحد آخر يجلس على طول الشاطىء • رأيت بين الأسياخ الحديدية التى تحمـل القرص النحـاسى المستدير خمس زجاجات فارغة من البيرة •

التقت عيناى بعينى الرجل • قال لى وهو يبتسم فى جهد :

ـ الجو حار جدا •

ـ فعلا •

كان صدره ضيقا كصـدر امرأة • أما نصـفه الأسفل فقد كان منتفخا بشـكل مرضى ، وشـعره أبيض تماما مع أنه لم يكن قد تخطى مرحلة الشباب بعد • وبدت عيناه مرهقتين وفيهما انكسار غريب • كما كانت رائحة البيرة تفوح من فمه حارة وواضحة• قال :

ـ ولكنها موجة على أى حال ، وستنتهى • انها موجة •

كان يتكلم بصوت شديد الخفوت • قلت :

ـ كيف ؟

ـ من الضرورى أن تنتهى • نحن مازلنا فى أول مايو •

التفت صديقى الى • وعندما استدار مرة أخرى ليراقب اللاعبين استطعت أن ألمح شـبح ابتسامة تلوح على شفتيه • كان صاحب الشعر الخشن يقول:

ـ متى ؟

رد عليه الآخر عازف العود :

ـ لقد قلت فقط اننى أتمنى أن أتزوج ، ولـكنى لم أقل اننى سأتزوج •

قال صديقى :

ـ يارجل ، تتزوج ؟

تمتم العازف فى صوت رقيق :

ـ أنت لا تتصور • منذ شـهور وأنا أعانى من رغبة شديدة فى أن يـكون لى ابن • انه احسـاس غريب ولكنى أكلمك جادا • ثم ضحك وهو يواصل : « والحقيقة الواحـد كبر • ستة وثـلاثون عـاما • مشكلة » •

قال صديقى وقد ظهر عليه الوجوم :

ـ مادام الأمر كذلك ، تزوج ٠
ـ سأتزوج ٠ هناك قضية مرفوعة لو كسبناها فسأتزوج فورا ٠ سأتزوج أى واحدة ، على شرط أن تكون حلوة ٠
قال صاحب الشعر الخشن :
ـ ابحث عن شقة قبل أن تبحث عن زوجة ٠
ـ لا تعقـد الدنيا وحياتك ٠ اذا لم نجد شـقة فسنعيش فى دكان ٠
قال الشاب الأسمر :
ـ« لاتنس أن تحجز لى رفاً » ربما تزوجت أنا الآخر»
ضج الجميع بالضحك وقال الرجل الذى يجلس الى يمينى وهو يبتسم :
ـ هناك ازمة فعلا ٠
قلت :
ـ فعلا ٠
ـ تسمح لى بالكبريت ؟
أعطيته علبةْ الكبريت ، حاول أن يعطينى سيجارة ولكنى اعتذرت ٠قال :
ـ الناس تتزايد ٠
ـ فعلا ٠
لاحظت أنه كان يبتسم فى وجهى فقط عندما أنظر اليه ٠ ولكن ما أن يشرع فى الحديث حتى تتهدل ملامح وجهه وتكسوها مسـحة من الجد الممزوج بالطيبة المهمومة التفت ناحيته قليلا فقال :
ـمنذ مدة وصلنى أن المقابر الموجودة فى باب النصر ستزال ٠ هززت رأسى ٠ قال :
ـ ستزال كلها، هى والمقابر الموجودة عند السيدة نفيسة ٠
ـولماذا وصلك ؟ ٠
قال بحذر وكأنه يخشى أن أنصرف عنه :
ـما هو ؟ ٠
ـالخبر ٠
ـ اننى أملك مقبرة هناك ٠
ـأنت تملك مقبرة هناك ؟
ـأقصـد أنها موجودة من زمن بعيد جداً ٠ وأنا الموجود الآن من العائلة ٠
ـآه ٠
ـأرسلوا الى الجميع ٠
ـأرسلوا لهم ؟ ٠
ـ جميعاً ٠
ـ لماذا ؟ ٠
ـ ليتمكن من يريد أن يعد مقبرة فى مكان آخر ، وينقل اليها موتاه ٠ حتي يستطيع زيارتهم ٠

نفيسة ٠
ـ آه ٠
ـ قال لى ذلك صاحب المنزل ٠ انه هو الذى قال لى ٠
لم أجد ما أقوله له ٠ تأملنى قليلا ثم قال وهو يميل الزجاجة ليملأ كوبا من البيرة :
ـ أنا لن أتمكن من ذلك ٠
ـ من أى شىء ؟
ـ ابنى وأمى وأبى مدفونون هناك ٠ وعدد كبير من أقاربنا ٠ وأنا لن أتمكن من نقلهم ٠
صاح أحد اللاعبين :
ـ ما هذا ؟
رد الآخر :
ـ دو ٠٠ يك ٠
ـ دو ٠٠ يك ؟
ـ نعم ٠
ـ ولماذا لا تلعب شيش بيش ؟
ـ لأن الزهر كان دو يك ولم يكن شيش بيش ٠
قال الرجل :
ـ ان تحضير مقبرة أخرى ، يتكلف حوالى مائتى جنيه ، تتصور !
ـ شيش بيش ٠
قلت :
ـ هل ماتوا من مدة طويلة ؟
ـ دو ٠٠ يك ٠
ـ من مدة طويلة جدا ٠

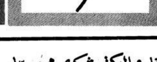


ـ شيش بيش .
ـ دو يك أم شيش بيش ؟
ـ فى الحقيقة لم أرها .
قال الرجل :
ـ كنت أريد أن أنقلهم الى مقبرة أخرى ، ولكن ذلك يتكلف حوالى مائتى جنيه .
ـ أعدها ثانية مادمت لم ترها .
كان العازف يغنى فى صوت خافت . قلت :
ـ أنت لن تعرفهم على أى حال .
اختلجت قسمات وجهه ، ثم ابتسم وقال :
ـ كيف ؟
ـ أقصد انهم ماداموا قد ماتوا من مدة طويلة كما تقول ، فأنت لن تجد منهم شيئا .
بذل جهدا واضحا كيما يحتفظ بابتسامته الشاحبة ، وهم بالكلام ولكنه عاد وعدل عنه .
كنت أشعر بالخدر . وكان يضايقنى أكثر أن جسدى كان لزجا . فى نافذة أحد البيوت المقابلة ظهر رجل يرتدى فانلة قصيرة الاكمام . بعد قليل أطل وجه امرأة من فوق كتفه . لم يبد على جارى أنه رآهما . سمعته يقول شيئا . وعندما التفت اليه كانت نظراته الواهنة تنفذ من خلالى فى طريقها الى شىء بعيد . قال العازف :
ـ ضرورى . ضرورى .
ـ أما زلت تفكر ؟
حاول الرجل أن يعطينى كوبا من البيرة ولكنى رفضت . قال :
ـ أنا الوحيد الذى تبقى من العائلة كلها .
ـ لا تلمس الزهر .. أتراه ؟ بنج .. دو .
قال الرجل :
كنت أزورهم فى المواسم كلها ، وكنت أزورهم أيضا فى الأيام العادية .
ـ هيا بنا .
قلت :
ـ هيا .
ـ هناك من لن يتمكنوا من نقل موتاهم طبعا . أليس كذلك ؟
نطق هذه العبارة الأخيرة وكأنه يرجو أن أوافق . قلت :
ـ أعتقد .
ـ فى هذه الحالة ، ماذا سيفعلون ؟
ـ سمعت آخر نكتة ؟
ـ سمعتها .
ـ قلت :
ـ وكيف أعرف ؟
ظهر عليه الخجل . قال :

ـ أقصد هل سيزيلون هذه المقابر ؟ صاحب المنزل قال لى انه لا يعرف ما الذى سيفعلونه فى الأرض . قال انه لا يعرف .
قلت :
ـ وماذا فى هذا ؟
ابتلع ريقه . واستطعت أن أرى عظمة حلقه وهى تتحرك الى أعلى وأسفل . قال :
ـ صحيح .
سمعت صوت الطاولة وهى تغلق . وبينما نحن فى انتظار الجرسون الذى كان يعبر الشارع فى طريقه الينا ، همس الرجل وهو يتعلق بعينى وأنا أقوم من جواره :
ـ لو كنت أملك مائتى جنيه ، لنقلتهم الى مقبرة أخرى ، حتى أستطيع زيارتهم .
ابتسمت فى وجهه . وصافحنى العازف بحرارة. أما الآخرون، وقد كان طريقهم جميعا مغايرا لطريقنا، فقد اكتفوا بأن هزوا لى رؤوسهم .
وعندما هبطت من على الطوار كان الرجل والمرأة قد اختفيا من النافذة . بينما كان الجرسون يضع أمام الرجل زجاجة أخرى من البيرة .
وما أن ابتعدنا قليلا أنا وصديقى ، حتى قال لى :
ـ ماذا قال لك ؟
ـ من ؟
ـ هذا الرجل ؟
ـ لماذا ؟
ـ انه مجنون .
ـ كيف ؟
ألم يحدثك عن المقابر التى ستزال ، وعائلته التى لن يتمكن من زيارتها ؟
ـ نعم .
ـ انه لم يترك أحدا الا وقص عليه هذه الحكاية . هل تعتقد أننا تأخرنا ؟
وهنا تذكرت أننى لم أودع الرجل . فالتفت خلفى محاولا أن ألقى عليه نظرة أخيرة . كان الشاطىء خاليا تماما ، وبدت السماء صافية والقمر غائرا فيها ، والجرسون واقفا فى الضوء المنبعث من مدخل المقهى يفرغ المياه باناء صغيرة من الثلاجة الكبيرة الباهتة التى كانت موضوعة تحت شجرة متوسطة الحجم . وراحت المياه التى يلقى بها تكون بحيرة صغيرة فى حضن الطوار .
ولم يكن الرجل على مقعده . بل كان واقفا هناك على الشاطىء فى أعلى الجسر المنحدر ، وكأنه جزء من الركود الرمادى الذى ذابت فيه المنطقة . تأملته طويلا . لم تصدر عنه أية حركة . كان فقط واقفا يتبول ، وساقاه منفرجتان ، ورأسه مدلى الى أسفل .



تعقيب على قصة بحيرة المساء



بقلم: الدكتور شكري محمد عياد

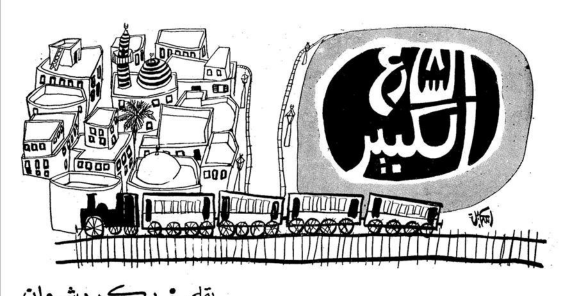
هذه قصة تعتمد على « الجو » . الكاتب يبنى ، من اول سطر الى آخر سطر ، وفى ايقاع يسوده نوع من الانقباض الحزين الشفاف ، احساسا ببيئة ، وجماعة من الناس يسيطر عليهم مزيج من اليأس والكسل . المنظر ، فى مقهى على شاطىء النيل ، فى النصف الأخير من الليل ، مقهى لابد انه فقير ، نعرف ذلك من اول لحظة ، لأن الحقيقة هى أن « الجرسون قد وضع بضعة مقاعد على شاطىء النيل » . فلسنا اذن فى كازينو سياحى . وايقاع الجمل التى تصف المكان وشاغلية ايقاع لا حماسة فيه ، ولكنه يستمد القدر الضرورى من التلوين الانفعالى من نوع من القلق الغامض . « لم أكن اعرف احدا من افراد الجماعة التى كنت منضما اليها معرفة وثيقة ولكن صديقى كان يعرفهم » . اذن فهو نوع فى شلل الارادة الذى يجعل الانسان يستسلم لأى رفقة . ومع ذلك فالراوى يشعر بالغربة عن هؤلاء . انه يبحث ، او قل يتوق الى ان يبحث . ولعله لا يبحث الا عن ارادته او كيانه الخاص ، بل يراقب ويسجل . ومع ذلك فالكاتب، بغريزة فنية صادقة ، لا يدفع هذا التناقض بين الراوى والجماعة الى أى درجة من الحدة . فجو الركود يجب ان يسيطر على هذه البحيرة الآسنة ، حسبها ان تمر عليها نسمة خفيفة فتحدث على سطحها مايشبه الحركة . ان القصة اشبه بترسيم الالوان المائية ، لا تتاجج فيه الألوان ولا تتناقض بل تتداخل فى هدوء . ويمثل هذا الاحساس الصادق لا يكتفى الكاتب برصد احساسات الراوى بل يحرك المنظر حينما تمر الزوجة الشابة — الحبلى — مع زوجها وتأخذ الجماعة فى التهامس ، وحين يلتقط الراوى نفسه شذرة اخرى فى نفس القصة — وان اختلف الأشخاص — بمنظر يلمحه فى شباك المنزل المقابل . هذه الحركة . الحية هى النبرة المناقضة — مع خفوتها وتكتمها — التى تبرز الركود العام . ولكن الموضوع الأساسى — الركود واليأس — يتضخم ويتعقد وتعلو نبرته حتى يصبح معادلا للموت . وصورة الرجل الوحيد — المجنون — تمثل هذا التضخم . انه يقدم الينا فى اول الثلث الثانى من القصة ، فى نفس الوقت الذى تمر فيه الزوجة الحبلى مع زوجها ولكن الكاتب — كعادته — لا يقحم هذه الشخصية الجديدة على المنظر ، بل يدعها تتسلل اليه رويدا رويدا ، حتى تكاد تملأ فراغه كله بعد موجة الحياة التى بعثها منظر الزوجين ، وبين العراك المفتعل على الدويك والشيش بيش . ولا شك ان الرجل سيلفتنا — بعد لحظات من ظهوره — بانه مخلوق فاقد الجنس ، فاقد الزمن ، باختصار فاقد الحياة . ما اشد « رائحة البيرة التى تفوح من فمه حارة وواضحة » بدف ! الموت ! وما أشد انسجامها مع ذلك الحر الذى لا حياة فيه ، لليلة صيفية ! ان فكرة المقبرة لا تلبث ان تطرد فكرة منزل العرس ، الذى يمكن ان يكون حتى دكانا ، وتستأثر وحدها بالمنظر الى ان تنقضى الليلة .

***

« انه مجنون » . « والمقابر ستزال » . ومع ذلك فما أشبهه بالبحيرات الصغيرة الراكدة الكثيرة التى نصنعها فى حياتنا . ان الركود الرمادى يسيطر على المنطقة كلها . أما هو فقد همدت فيه كل حركة . ليس ثمة الا حركة واحدة لعلها سخرية غير مقصودة بالحياة ، ولعلها بقية نفسه منها . انه « واقف يتبول وساقاه منفرجتان ، وراسه مدلى الى اسفل » .

***

هذه قصة جيدة . وهى اول قصة اقرؤها للكاتب الشاب ابراهيم أصلان . فليحرص على تنمية موهبته . وليكن دائما أصيلا وصادقا . (قد اعجبنى من هذه القصة ان الكاتب لا يحاول ان يصطنع الحداثة كما يفعل كثير من كتاب القصة الشبان . انه لا يزال يكتب فى حدود التقاليد التأثرية التى نعرفها فى تشيكوف وكاترين منسفلد ومعظم كتاب القصة القصيرة فى النصف الأول من هذا القرن . وليس معنى ذلك انى ادين « الحداثة » التى تنزع دائما نزعة سريالية ، ولا انى اكرهها او أنكر ان فيها اعمالا جيدة . معناه فقط : ان الكاتب فى أيامنا — وخصوصا الكاتب الشاب — يحتاج الى كثير من الشجاعة الفنية ليرفض التكتيك الحديث ، ويصطنع الأقدم اذا وجده أصدق تعبيرا عما يريد ان يؤديه .



بقلم : بكر رشوان

مدينتنا مدينة صغيرة .. ورغم ذلك فان خط السكة الحديد الطوالى يمر بها .. وكشأن أية مدينة صغيرة يمر بها خط السكة الحديد فان القطارات الفاخرة لا تقف عندها ..ورجال المدينة بل وأطفالها يعرفون القطارات التي تقف فى المدينة .. يعرفونها من مواعيدها المحفوظة ويعرفونها أيضا من شكلها فهى فى العادة قطارات ليست طويلة وليست فاخرة .. عرباتها قليلة الضوء ونوافذها صغيرة ومكتوب على جدران العربات من الخارج بالطباشير أسماء ناس ومدن عديدة .. حتى صوتها الذى يأتى من بعيد يبدو متحشرجا متسلخا كانسان مريض بصدره .

أما القطارات الاخرى فتمر سريعة شامخة .. لامعة العربات ، مدهونة النوافذ وتلقى الدخان الكثيف فى أعين المدينة فتعميها للحظات حتى اذا ما استطاعت المدينة أن تبربش عينيها لتظل مدهوشة على القطار الفاخر لم تجده .

ومدينتنا كأية مدينة صغيرة يمر بها خط السكة الحديد كان لابد أن يكون لها محطة..ومحطة مدينتنا أيضا صغيرة تقع فى مكان تنخفض أرضه كثيرا عن مستوى المنازل فيهبط الناس اليها بسلم خشبى أكلت معظمه الامطار والرياح والاقدام والزمن .. والبيوت من حولها مرتفعة مائلة تكاد تنكفىء على وجهها لتتفرج ..!

وأيضا ما دامت القطارات تمر بمدينتنا وما دام لمدينتنا محطة .. فلابد أن يكون للمحطة ميدان .. ميدان ضيق محندق تستطيع أن تجرى فيه طولا وعرضا دون أن تلهث .. تقف فيه بضع عربات حنطور سوداء كأنما أخذت ألوانها من دخان القطارات السريعة الفاخرة .. توالت على هذا الميدان منذ نشأته أسماء عديدة وكثيرة تحكى مرور الزمن ولكن الناس أراحوا أنفسهم تماما وسموه ميدان المحطة .

وما دام للمحطة ميدان فلابد أن يكون للميدان شارع كبير هو أكبر شوارع المدينة تقف على جوانبه بيوت مرتفعة مبنية بالمسلح ومزخرفة النوافذ ولامعة المداخل وأمامها نبتت الاشجار وتفرقت فى الشارع المدارس .. أيضا توالت على هذا الشارع منذ نشأته أسماء عديدة وكثيرة ولكن الناس أراحوا أنفسهم تماما وسموه الشارع الكبير .

والشارع الكبير فى مدينتنا الصغيرة ينبع من قلب ميدان المحطة ويسير فى غير انحناء ولا التواء حتى ينتهى عند الترعة التى تمر بمحاذاة المدينة من الشرق وتحدد مساحة مبانيها .. وهو يكاد يقسم المدينة الى نصفين فاذا ما سار الانسان فيه معطيا ظهره لميدان



● من مواليد ١٩٣٨ .
● تخرج فى آداب الاسكندرية قسم فلسفة واجتماع عام ١٩٦٠ .
● عمل بقنا اخصائيا اجتماعيا لمدة عام ونصف .
● فاز باحدى جوائز نادى القصة لعام ١٩٥٧ .
● نشر فى « الرسالة » ، «الشهر» ، « المساء » ، « الشعب » ، « المسرح » ، « بناء الوطن » ، « روز اليوسف » ، « الادب » ،
● يعمل بالبرامج الثقافية بالتليفزيون العربى .

حى واحد له اسم واحد .. أسم قصير سهل موذون يكاد يجبرك أن ترفع يدك بالتحية وأنت تذكر الاسم .. هذا الحى الواحد يكاد يبتلع نصف المدينة .. شوارعه طويلة نظيفة تفرش أرضها الشمس والاسفلت .. والبيوت فيه ليست ملتصقة ولا متلاحمة ولكنها متفرقة تفصلها حدائق صغيرة وشوارع صغيرة حتى البيوت القريبة من بعضها فانها لا تلتحم تماما ولكنها تتلامس فقط بخفة وكأن الجدار الابيض اللامع يهدى السلام للجدار الأبيض اللامع .

فى هذا الجانب من المدينة تقع السينما التى تمتلكها البلدية ويقع المنتزه الكبير وملعب الكرة .. وأيضا يقع مركز البوليس .

والليل فى مدينتنا أمره عجيب فهو يفصل فى قسوة بين الاحياء التى تقع على يمين الشارع وبين الحى الذى يقع على شماله ..ففى النهار تكاد المدينة تخلط بعضها ببعض .. والشارع الكبير نفسه يظل يموج بالناس من مختلف الطبقات فهو دائما ملآن مزدحم يصب مئات الناس فى الشوارع التى تتفرع منه ليستقبل عن نفس الشوارع مئات أخرى من الناس .. والاصوات المتباينة المختلفة يختلط بعضها ببعض فى قلب الشارع الكبير .. أصوات العربات الملاكى الخافت الناعم تختلط مع أصوات عربات النقل



المحطة ومموليا وجهه شطر الترعة فانه يكون على يمينه تستلقى أحياء المدينة القديمة .. خطوة أو خطوتان على اليمين حتى يجد الانسان نفسه فى قلب الاحياء القديمة .. أحياء لها أسماء كثيرة .. أسماء صعبة أحيانا ، ومضحكة أحيانا أخرى ، ولا معنى لها فى معظم الاحايين.ولكنها أحياء متشابكة متداخلة فلا يكاد الانسان يعرف بالتحديد أين ينتهى هذا الحى وأين يبدأ الحى الآخر .. فهى كلها متشابهة ، شوارعها ملتوية وحواريها سد ، وبيوتها قديمة تلتصق وتتكوم وتتمايل على بعضها فتبدو كالنساء العجائز اللاتى يهمسن لبعضهن بسر خالد لا ينتهى .. الشوارع والحوارى لا أرصفة لها والبيوت متداخلة ضيقة ومعتمة ومتشابهة كأنما بناها بناء واحد غشيم .. بناها ومات منذ آلاف السنين ..

وبالرغم من أن الشمس لاتكاد تعرف طريقها الى تلك الحوارى والازقة فان الشىء العجيب أن البلدية ـ مع أنها لم تحاول أن ترصف الشوارع والحوارى أو حتى تنشىء بالوعات للميساه ـ نجدها قد مدت أسلاك الكهرباء فى سمائها ونصبت على أرضها أعمدة النور وعلقت أيضا المبات .. !

أما الناحية الاخرى من الشارع الكبير فيقع فيها النصف الآخر من المدينة .. وهذا النصف يتكون من

الهاذرة وتتشابك مع فرقعات غربات الحنطور .. والعربات تزاحم الارجل وتصطدم بالبسكليتات .. والاصوات الهامسة المؤدبة تتصاعد مع الاصـوات الغليظة الصاخبة والألفاظ الرفيعة الخجول مثل من فضلك يابيه والف شكر يا سيدى تتشابك مع الفاظ أخرى خشنة شرسة تكاد تجرح وتسيل دما مثل والنبى أفرغ عينك أو أخلى وشك شوارع .

والاحياء الفقيرة فى مدينتنا تصبح بالنهار خلية نحل .. الشـوارع والحوارى تمتلىء عن آخرها بالاطفال والنساء والذباب .. والشجار مع بائع الطماطم والخيار والاشياء الرخيصة لايكاد ينتهى .

وحى الاغنياء أيضا فى النهار لا يخلو من زيطة رغم المنتزه الانيق المحاط بسور من حديد والذى يقف على بابه خادم أسود وفوق رأسه علقت يافطة من نحاس أصفر تلمع فى الشمس فتخطف الابصار وتعلن أن هذا منتزه خاص ورغم الاشجار التى تملأ الشوارع ورغم البيوت الانيقة المرتفعة .. رغم كل هذا فطول النهار وطبلة السينما تلف فى الحى ينقر عليها عامل ويرقص على نغماتها آخر ويسحب الضبية عربة كبيرة تحمل اعلانات الفيلم الجديد .. والحواة أيضا تجد الواحد منهم يسحب معزته وقرده والاولاد خلفه يسيرون فى شبه مظـاهرة كبيرة يطالبونه فى كل حطوة أن يلعب .

أما فى الليل .. وبعد أن تنسحب الشمس تماما من الافق وتبدأ مصابيح الشوارع فى العمل . فى تلك اللحظة تتوهج المدينة كلها وتشتد فيها الحركة وتنشـط الارجل فى الشـوارع والحوارى وتمتلىء بالعائدين الى منازلهم مع الغروب ، وتلمع لافتـات المحلات فى الشارع الكبير وتفتح عيـادات الاطباء ومكاتب المحامين .. ولكن ما يكاد الليل يتقدم قليلا حتى تنسحب الحياة وتتسلل من الشارع الكبير .. فالمحلات تغلق أبوابها والمحامون والاطبـاء يغلقون مكاتبهم ، وتظل الانوار تخفت فى الشـارع حتى تتلاشى تماما الا من أنوار أعمدة الكهرباء الضعيفة وتظل الارجل تخف من الشارع حتى لا يعود فى الشارع كله سوى السكون وعسكرى الداورية .

فى هذه اللحظات تتلون مدينتنا بلون غريب .. فبموت الحياة فى الشارع الكبير تستيقظ الحياة فى الاحياء الفقيرة التى تقع على يمين الشارع ، فالمقاهى الصغيرة على مداخل الحارات وفى قلب الشوارع تلمع فيها الاضواء والدكاكين توش فيها الكلوبات وترتفع فيها الضحكات .

وفى قلب الحوارى الضيقة المتداخلة السد تنبعث ـ ولساعة متأخرة من الليل ـ أصوات الاطفال وهم يلعبون تحت الفوانيس الموقدة ويجرون وراء بعضهم ليختبئوا فى ظلام البيوت وخلف الابواب وتجرى الارجل الصغيرة تبحث عن الرفاق والاصوات الرفيعه تتلوى فى ظلام المداخل المعتمة للمنازل لعلها تعثر على الزميل المختبىء فى الظلام .. وتظل الاحياء الفقيرة فى مدينتنا لوش الصبح ساهرة فى ضوضاء وجلبة وكأنها تعلن فى كل لحظه أنها تعيش ليلها .. تعيشه بعمق وحياة .. ربما أكثر مما تعيش النهار نفسه .

والقسم الآخر من مدينتنا يسهر أيضـا الليـل ولكنه يسهره بطريقة مختلفة تماما عن الجانب الايمن من المدينة .. يسهره بخفوت ونعومة وصمت حتى انه يخيل للغريب أن هذا الجانب من المدينة ينام من المغرب .. فالسينما فى ذلك الحى ماتكاد تلفظ رواد حفلة من ثلاثة لستة حتى تلمع الانوار فيها قليلا من الوقت ..حتى اذا ماستقر رواد الساعة السادسة فى أماكنهم داخل السينما أخذت الأنوار تخفت فى الخارج وتطفىء معظم اللمبات الكبيرة الملونة ولا يعود فى مدخل السينما سوى لمبات قليلة خافتة الأضواء وكأنها تفرك أذن الليل فى لين ورفق ورشاقة ،وذلك لأن رواد الليل ناس متعلمون لا يحتاجون للاضـواء القوية البراقة ليأتوا .. وأيضـا يغلق الميكرفون المعلق فى نافذة السينما من الخارج والذى لا يكف فى الحفلات النهارية عن اذاعة الفيلم .. وتمـوت الحياة تماما فى مدخل السينما وكأنهـا مغلقـة للتصليح .

حتى مركز البوليس تخفت فيه الحركة بالليـل وتسكت بعض اللمبات المعلقة فى المدخل عن العمل حتى الانوار اللامعة التى تنبعث أحيانا من حجـرة داخل البناء فانه يحجبها الزجاج السـميك الملون وكأن المركز يخشى أن تصـل أنواره الى الشـارع الجانبى فتضيئه وهو ليس مسئولا قطعا عن انـارة الشوارع .. ولا يعود فى المركز كله ما يدل على الحياة سوى العسكرى الواقف على الباب نصف نائم ونصف مستيقظ يخبط ببندقيته على الارض ويرفع صوته بالتحية كلما مر عليه ضابط الدورية .

الحى كله منذ الشـامنة تقريبا يهـدأ ويغوص فى الليل ويستسـلم للنور الخـافت الذى ينبعث من مصابيح الشوارع ولا يعود فى الحى كله أى دليل على الحياة سوى النادى .. فهـو البقعة الصغيرة اللامعة وسط كل هذا السكون وكل هذا الهدوء .. فالنادى يسهر ليله بطريقته الخاصة .. فمنا يكاد الحى يستلقى فى حضن الصمت حتى تزدهر الحياة

وتلمع داخل النادى .. فالموظفون الكبار وعائلاتهم يقضون ليلهم هناك .. فى الليالى الشتوية يتكومون فى الداخل تحت الضوء الدافىء وحول المدفئة الضخمة .. أما فى الليالى الصيفية فتفتح النوافذ ويسهر الرجال فى الداخل يلعبون الطاولة والبلياردو والكوتشينة ويسهر النساء فى الخارج تحت الشجر الناعس الأضواء يتحدثن عن أسرار البيوت .. والاطفال يلعبون أمام النادى بالكور الملونة الصغيرة ويجرون بالبسكلتات ذات الثلاث عجلات الصغيرة حتى يغلبهم النعاس فيعودون الى أمهاتهم فى الداخل .

تلك هى مدينتنا .. وتلك هى حياتها .

وذات أمسية من أمسيات الصيف كانت النسمات فيها قليلة لا تكاد يحس بها أحد الا نادرا فبين الحين والآخر تهب لفحة نسمة ثم يعود الجو الى سكونه من جديد وكأن يدا ضخمة عملاقة تمسك بمروحة كبيرة تهزها كل حين هزة واحدة خفيفة فما يكاد يفتح الناس صدورهم لنسماتها الطرية حتى تعود الى كسلها وخدرها تاركة المدينة للحر والليل .

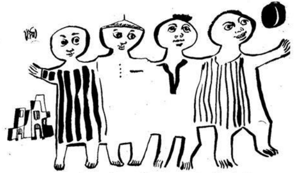
فى تلك الليلة الصيفية كان أطفال حارة السكنيدى كعادتهم يسهرون تحت الفانوس فى مدخل الحارة .. فى بداية الليلة كانوا يلعبون ويجرون وراء بعضهم فى الحوارى وأصواتهم ترتفع عاليا بالضحكات والشتائم .. ولكنهم ما لبثوا أن تغلب عليهم الحر والجرى وتصبب العرق من أجسامهم غزيرا فجلسوا على عتبة أحد الأبواب يلهثون ويحكون القصص والنوادر ويضحكون بكل ما فيهم من طاقة وحياة .. حتى اذا ما استراحوا قليلا قام كل واحد ليجرب قوته أمام الآخرين وينزل مصارعة لزميله والجدع فيهم هو من يوقع الآخر على الأرض ويضحك ضحك الغالب ويقهقه من أعماقه ويقفز فى الهواء كشيطان صغير ويرفع ذيل جلبابه عاليا حتى يكاد يبدو عاريا تماما وهو يضحك وكأنه يستعرض نفسه أمام الجميع ويظهر لهم أنه رجل ويقوم المغلوب من على الأرض يقول أن طوبة فى الأرض هى التى أوقعته وحينما يضحك عليه الأولاد يأخذه الغضب ويتناثر من فمه السباب والشتائم تصيب الأمهات والآباء .. معلنا أسرار البيوت مرددا نفس الكلمات التى تقولها النسوة لبعضهن أثناء الشجار بل ربما أحيانا يقول نفس الكلمات التى كانت تقولها أمه بصوت مرتفع أثناء الشجار وبصوت هامس مبحوح للجارات أثناء الجلوس معهن على أعتاب الأبواب .. فالأطفال دائما فى حارة السكنيدى بل فى كل حارة وشارع فى هذا القسم من مدينتنا تجد الواحد منهم ينكمش وسط النسوة مدخلا رأسه بين أكتافه ويجلس صامتا ساكنا يسمع كلامهن ويفرح حينما يجد الواحدة قد ابتدأت تبسمل وتحوقل وتلعن الشيطان الرجيم وتدعى أن أم فلان هى التى قالت لها .. وترفع عينيها الى السماء ويخفت صوتها ويرق ويتهدج وكأنها تبكى وهى تقول « اكتب عليهم يارب هما اللى قالوا .. أنا ماليش دعوه .. لا شفت ولا نضرت هما اللى قالوا يا رب » .

وبعد هذه المقدمة التى كان لا بد منها لتهيىء آذان النساء الأخريات الى السر الخطير وتبرىء نفسها من الذنب تندلق فى الكلام ولا تتوقف .. فكلمة من هنا تجر خبرا من هناك .. وحكاية عن البنت سعدية التى تحط عينها على الواد حسين تجر فى ذيلها حكاية طويلة عريضة عن أمها .. وتمط امرأة شفتيها لتعلن فى حزم وسر أن سعدية طالعة لأمها ، ألم تأخذ أمها الزوج من على أولاده .. وتظل أسرار البيوت تنطلق على ألسنة الجميع .. وكان كثيرا ما يحدث أن تأتى المرأة التى يتبادلن سرها فى أثناء الحديث وتلقى العوافى وترد النساء جميعا بالله يعافيكى يا ختى اتفضلى .. وتتفضل المرأة وتجلس وسريعا ما تدور الاسطوانة تبحث عن سر آخر لامرأة أخرى غائبة لتنهش لحمها .. وهكذا كان يفعل الأولاد فى المساء ولكنهم كانوا أكثر جرأة من أمهاتهم فكانوا يذيعون الأسرار علنا وبصوت مرتفع وفى وجود أصحابها فيقول الواحد منهم لزميله :

— انت عامل راجل ، روح شوف أختك ماشيه مع مين .. أنا شفتها النهارده مع الواد صلاح ابن خالتى نبويه ورا مكنة الطحين ..

ومن هنا تنشأ المعارك وتدور الأيدى الصغيرة توزع اللكمات على الوجوه الصغيرة .. والألسنة تتقاذف الأمهات والأخوات فى عرض الطريق .

فى تلك الليلة الصيفية كان أطفال حارة السكنيدى قد فرغوا من هذا كله .. حتى من الشجار وتبادل الشتائم .. وتمدد الملل بينهم وسادهم سكون غريب وتحركت فى أعماق كل منهم الرغبة فى أن يفعل أى شىء .. أى شىء يبعد عنهم هذا الملل وهذا التراخى الذى أصابهم .. وكان القمر ليلتها بدرا والسماء زرقاء تضوى فى ضوء القمر كعروسة مجلوة والأرض مفروشة



ببقع كبيرة من نور القمر والنسمات ابتدأت تهب لينة رقيقة والرغبة فى عمل أى شىء تبعد هـذا الملل عن قلوبهم كانت تتمدد وتكبر فى أعماقهم وتلفتوا لبعض وتلاقت العيون فى صمت تسأل .. ما العمل ؟ واقترح واحد منهم فى غيظ أن يروحوا وخلاص ولكن أصواتا كثيرة قالت له فى نفس واحد لسه بدرى .. وعاد واحد منهم يسأل فى الحاح .. طيب نعمل ايه ؟ .. وبعد صمت انتفض طفل من وسطهم وصاح :

ـ ياللا نطلع الشارع الكبير .. ياللا نلعب هناك فى القمرة .. ياه زمان الشارع الكبير كله نور دلوقت .

كانت الفكرة باهرة وجميلة بهتوا لها أول الأمر حتى كاد بعضهم أن يقول : لا ، ولكنهم مالبثوا بعد لحظات قليلة أن صاحوا :

ـ ايوه ياللا على الشارع .. ياللا بينا كلنا .. كلنا ..

وتعالت أصواتهم وأحتضن بعضهم بعضا وقاموا متشابكى الأيدى يسيرون الى الشارع الكبير .. وما كادوا يتعدون الحارة ويتخطون الماء الذى يملأ حفرة صغيرة فى مدخل الحارة .. ويتسع الشارع الجانبى أمامهم حتى غزوا السير وأسرعت الأرجل الصغيرة فى طريقها الى الشارع الكبير .

ومن بعيد لاحت لهم أنوار الشارع الكبير الخافتة اللامعة فى الليل فما كادوا يلمحون خلو الشارع من الناس ورحابته واتساعه ونظافته حتى جروا بالمشوار وراء بعضهم وقلوبهم الصغيرة تخفق بالفرح وتجدد فى أجسادهم النشاط الى اللعب والسهر . ووصلوا الى الشارع الكبير وساروا فيه خطوات كثيرة ولكن الشارع كان خاليا تماما ولا أحد فيه ولا صوت هنا أو هناك .. فمالوا على اليسار وانحرفوا قليلا ليبلعهم الحى الكبير فى مدينتنا وما كادوا يسيرون قليلا فى الحى حتى لاحت لهم أنوار النادى تلمع وتبرق وتجذب الأبصار والقلوب .. وجرت الأرجل الصغيرة أكثر فأكثر وظلوا يجرون حتى وصلوا الى بوابة النادى وهم يلهثون ويضحكون فترتفع ضحكاتهم فى الليل وتخترق آذانهم فتبعث فيهم المرح فيعودون الى الضحك بصوت أعلى وأكثر صفاء .. وعلى أصوات الضحكات جاء من داخل النادى بعض الأولاد يركبون البسكليتات ذات الثلاث عجلات ويمسكون فى أيديهم كرات ملونة وفى عيونهم الدهشة .. وعلى باب النادى وقفوا والتساؤل يطل من أعينهم وكأنهم يريدون أن يسألوا هؤلاء الأولاد الاغراب .. عايزين ايه .. ؟

ووقف أيضا أطفال حارة السكنيدى ينظرون اليهم بنفس الدهشة والاستغراب وتتجول عيونهم الصغيرة المبهورة بين الكرات الملونة التى فى الأيدى والصنادل الملونة التى فى الأرجل ، والبسكلتات الأنيقة والأصابع الصغيرة وهى تدق عليها فى مهارة ، والبنطلونات المزخرفة والقمصان المشجرة المليئة بالعرائس والأسماك الملونة .. كان كل شىء فى هؤلاء الأولاد يبهر أطفال حارة السكنيدى حتى وجوههم النظيفة وشعورهم اللامعة وأجسادهم البيضاء فلا واحد فيهم يسير حافيا ولا واحد يلبس قفطانا قديما مقطوعا من على الصدر أو الظهر .. أو بنطلونا ملآنا بالرقع من كل جوانبه .. فكل شىء فى هؤلاء الأولاد جديد يلمع وكأنهم فى العيد .

واقترب أولاد حارة السكنيدى قليلا منهم وللحظة واحدة تقهقر الأولاد الآخرون الى الخلف ولكنهم عادوا ليقفوا صامتين وفى عيونهم تحد وهم يحسون من بعيد بأصوات الآباء والأمهات فى الداخل .

وتقدم أولاد حارة السكنيدى خطوة .. ثم خطوة .. ثم خطوات حتى أصبحوا بجانبهم تماما ومد واحد منهم يده وأمسك بجرس احدى البسكلتات وحاول أن يقرعه فرحا فمد صاحب البسكلتة يده ومنعة بخشونة .. وحاول آخر أن يمسك بالكرة وثالث امتدت يده تتحسس لعبة جميلة ورابع حاول أن يمر بيده على القميص الحريرى المشجر ليلمس العرائس الملونة .

ولكن الأصوات الصغيرة ما لبثت أن ارتفعت وتعالت بالشتائم وتبادل الجانبان كثيرا من السباب وارتفعت يد لتخطف كرة بالعافية فرنت صفعة على خده فما كان منه الا أن رد الصفعة بلكمة قوية .. وبعد دقائق معدودة كانت معركة قد قامت ، وتقلب الأطفال على الرصيف فوق بعضهم فى صراع

مُزيز وخربشت الأظافر الكبيرة الخشنة الوجوه الناعمة وتمزقت القمصان الحرير واختلطت بالبنطلونات الممزقة القديمة ٠٠ والصفعات تتوالى والشتائم تنهال والاصوات ترتفع وتستغيث ٠٠ ولكن المعركة رغم أنها كانت عنيفة الا أنها كانت حاسمة لم تستمر طويلا فسرعان ما جاءت أقدام مسرعة من الداخل٠٠ وما كاد أولاد حارة السكنيدى يحسون بتلك الأقدام المسرعة التي تضرب بلاط أرض النادى فى سرعة ولهفة نحو الخارج حتى ولوا الإدبار ٠٠ ظلوا يجرون بدون انقطاع ولا توقف وكأن شياطين من الجن تدفعهم فى ظهورهم أو تلهبهم بسياط من نار ٠٠ وظلوا يجرون بأقصى سرعة والخوف يهز كيانهم هزا ويرعب قلوبهم فيجعلهم يسرعون فى الجرى ويبذلون أقصى طاقة فى امكانهم ٠٠ ووصلوا سريعا الى الشارع الكبير ٠٠ وسريعا أيضا عبروه ٠٠ وسريعا سريعا كانوا فى الحارة ٠٠ وخاضوا فى الماء الراقد فى الحفرة فى رعونة فتناثر الماء الساكن يحدث أصواتا تحت أقدامهم وكأنه يستغيث مندهشا من هذه الأرجل التى أقلقته من نومه ٠٠ وفى مدخل الحارة وقفوا يلهثون ويضعون أيديهم على قلوبهم التى تنهج ويمسحون العرق الذى تفصد غزيرا على وجوههم ويتحسسون الجروح ومكان اللكمات ويبحثون فزعين عن الأماكن المقطعة فى ملابسهم ٠٠ ولما استراحوا قليلا حاول بعضهم أن يسخر من الموقف ويضحك ويهون على زملائه وعلى نفسه فقال لهم وهو يضحك فى شبه صراخ :

ـ والله موتناهم من الضرب٠٠ هما فاكرين نفسهم ايه ٠٠ واحنا هصسنا فيهم ضرب يا وله آخر هيصه ٠٠

ولكنه لم يكمل حديثه فمن بعيد كان يلوح لهم شبح يتقدم فى الظلام ٠٠ يتقدم نحوهم فى النور الخافت فيبدو طويلا ٠٠ عملاقا ٠٠ وكادت تتوقف قلوبهم عن الخفقان وركبهم خوف مميت وتوارد فى أذهانهم ألف خاطر ٠٠ العسكرى ٠٠ الضابط ٠٠ لا بد أنه عسكرى أو ضابط جاء من المركز ليأخذهم الى هناك ٠

وبسرعة اختفوا فى المداخل المظلمة للبيوت ولكنها دقائق معدودة عادوا بعدها وهم يضحكون ويخبطون أرجلهم فى الأرض وهم يحاولون الضحك بشدة ويقولون :

ـ أما نكته ٠٠ بقى عمى ابراهيم أبو الواد حوده نقول عليه عسكرى ونستخبى منه ٠٠ يا دى الخيبة يا أولاد ٠٠ !

ولكن الضحكات كتمت فى صدورهم فجأة فعلى أول الحارة كان شبح أفندى يلبس بدلة وفى يده شىء ما يتقدم نحوهم !! آه ٠٠ لا بد أنها عملنا !! قطعا ٠٠ ضابط من المركز فالحكومة لن تدعهم يفلتون بهذه السهولة فلقد اعتدوا على أبناء الأغنياء بل ربما الحكومة نفسها كان لها أولاد ضربوا فى المعركة ٠٠ فمن يدرى ربما كان ابن الضابط هو الذى تمزق قميصه الحريرى ٠٠ أو ربما ابن المأمور هو الذى صاح يبكى ويهدد ويبحث عن كرته بجوار الرصيف ٠

وسرعان ما ابتلعتهم مداخل البيوت المظلمة ليعودوا بعد قليل وقد اطمأنوا الى أن القادم لم يكن سوى حسين ابن أم جابر ٠٠

ومرة بعد مرة كانت تلوح لهم أشباح من بعيد وكانوا فى كل مرة يحاولون أن يثبتوا وألا يخافوا ولكن ما يكاد خيال الشبح يتمدد فى ظلال الأنوار القليلة ويستطيل حتى يجرون الى الداخل ولا يعودون الا بعد أن يطمئنوا ٠

وليلتها لم يسهروا مثل كل ليلة ٠٠ ولم يكملوا لعبتهم حتى يتقدم الليل رغم أن القمر كان ساهرا يبرق ويلمع ويفرش أرض الحارة ٠٠ ليلتها لم يسهروا لأن الخوف كان أقوى من رغبتهم فى السهر ٠٠ وبلا كلام تسلل كل منهم الى منزله يطرقه فى لهفة ٠٠ وينادى على أمه فى لهفة لتفتح له ويسرع الى الداخل ليندس فى حضن أمه ويغمض عينيه ويحاول النوم ٠٠ وحتى النوم فى هذه الليلة لم يأت بسرعة ٠٠ النوم الذى كانوا يستغرقون فيه بمجرد وضع أجسامهم على الفراش وكأنه كان ينتظرهم تحت الوسادة أو وراء الباب ٠٠ فى تلك الليلة لم يأت النوم فى ميعاده فالخوف كان يتمشى فى أعماقهم ويطرد النوم بعيدا ٠٠ وكانت كل



طَرقةٌ على الأبواب فى الليل تجعـــل الطفل منهمَ ينتفض وهو تحت الملاءة الخفيفة فى حضن أمه .. ينتفض .. وينكمش مذعورا .. ويخيل له وهـو يحدق فى ظلام الحجرة أن عسكريا أســمر طويلا يمسك فى يده قايشا من جلد سميك فى نهايتـه نحاسة صـــفراء تلمع فى الظلام وتبطح الرؤوس وتسيل منها الدماء .. هذا العسكرى هـــو الذى يخبط على الباب ويخيل له أن أمه ستقول .. مين .. ستقولها باستغراب أول الأمر ولكن عندما يأتى الصوت من الخارج خشنا يجرح الأذن والقلب مطالبا بالأب .. ستنهار أمه عند سماعها الصوت ولن يرحمها العسكرى فسيأخذ أباه الى المركز وهنـاك سيضربونه حتى الصباح .. ســيضربونه بالقايش وبالخيرزانه وسيضعون رجله فى الفلكة كالأطفـــال فى الكتاب وسيقولون له يا مرة ويعايرونه بشنبه الطويل .. سيفعلون كل هذا بأبيه وهذا كله من أجل فعلته الشريرة هذه الليلة وذهابه الى الشارع الكبير .. فلقد كانت شورة مهببة تلك التى اقترحها زغلول عليهم بأن يلعبوا فى الشارع الكبير .. حتى زغلول نفسه وسط الخوف الذى يحسه كان يقول لنفسه انها شورة مهببة ويحاول بينه وبين نفسه أن يلصقها بأحد زملائه ثم يلعنها ويلعنه .. وظل الخوف يتمشى فى أعماقهم حتى تغلب النوم والارهاق أخيرا على القلق فناموا ليســتيقظوا مع الصــــباح وأخيلة من ليلة الأمس ما زالت تدور فى رؤوسهم كالحلم المزعج .. !

وفى الليلة التالية حاولوا أن يســهروا وأن يلعبوا ولكن الخوف كان لايزال يملك عليهم كل احساساتهم .. وثقتهم بأن الحكومة لن تســكت على فعلتهم جعلتهم يتسللون الى منازلهم دون أن يلعبوا وأن يسهروا ..

ليال كثيرة .. أكثر من أسبوع مر على أطفال حارة السكنيدى وهم يخشون السهر ويخشـــون اللعب وينتظرون كل ليلة فى هلع وقلوبهم واجفة من أن يأتى العسكرى ليأخذ الآباء الى المركز .

ولكن مرور الليالى وخروجهم الى الشارع الكبير فى النهار ونظراتهم من بعيد الى النادى ورؤيتهم أن كل شىء هادىء لا ينبىء عن حدوث مفاجئات .. كل هذا جعلهم ذات ليلة يجازفون ويسهرون ولم يحدث شىء .. ولذلك ففى الليلة التى تلتها عادوا الى لعبهم وسهرهم كالمعتاد .. وعادوا يجرون وراء بعضهم يلعبون الاســتغماية فى أوائل الليل ثم يجلسون على الأعتاب يقصون القصص ويتبادلون الشتائم الى ساعة متأخرة من الليل .

حتى كانت ليلة من الليالى استولى عليهم الملل وكان اللعب قد انتهى وجلسوا على احدى الأعتاب يفكرون فى لعبة جديدة تذهب عنهم هـــذا الملل الذى يطوقهم بطوق من حديد ولكنهم لم يهتدوا الى أية لعبة جـــديدة بل كانوا يقترحون العـــابا ثم يرفضونها ويعودون الى التفكير من جديد .. وكلما أجهدهم التفكير كان الملل والضـــيق يكبس عليهم شيئا فشيئا فيدفعهم الى التفكير أكثر .. حتى هرش بعضهم فى ظهره واقترح أن يروحوا ولكن الأكثرية عارضت فكرة المرواح بدرى هكذا ..

وبعد تفكير طويل قام واحد من وسطهم منتفضا صائحا وكأنه اكتشف اكتشـافا جديدا مثيرا .. « ياللا نطلع الشارع الكبير نلعب هناك » .

ونظروا اليه مبهــوتين أول الأمر فالفكرة كانت تدور فى رأس كل منهم ولكنهــم لم يجرؤوا على اعلانها .. كانت مجرد رغبــة ترقد فى أعماقهم تنتظر لحظة شجاعة كافية لتخرج من أعماقهم وتجرى على ألسنتهم .. فلما أعلنت صريحة صاحوا يهللون لها فى نفس واحد :

ـ ياللا بينا على الشارع الكبير .. نلعب هناك .

وساروا متشــــابكى الأيدى يلتصقون ببعض وعبروا الحارة والتووا فى الشارع الجانبى وساروا فيه ولكن حينما لاح لهم من بعيد الشارع الكبـير ساكنا ، نظيفا ، صامتا .. متسعا .. وقفوا دفعة واحدة وكأن أقدامهم قد شدت الى الأرض .. وقفوا صامتين يحدقون فى أنوار الشـــارع الخافتة التى تلمع من بعيد وقد كفوا عن الكلام وكأن ألسنتهم الثرثارة قد نســـيت كيف تنطق الكلمة فأخذوا يتحدثون بأعينهم .. ومن خلال الصمت المتكاثف بينهم صاح واحد منهم فجأة وكان يتكلم بصعوبة وكأنه يتعلم الكلام :

ـ وقفتوا ليه .. ياللى بينا نلعب هناك .

كانت الكلمات خافتة .. قصــيرة .. خرجت نصف حروفها الى الوجود ومات النصف الآخر على الشفاة ولكنها على الرغم من ذلك كانت كافيـــة لتدفع الأقدام الصغيرة الى الأمام .

سارت الأقدام فى بطء فى بادىء الأمر ولكنها عندما اقتربت من الشارع الكبير اتسعت الخطوات ونشطت الأرجل .. ولم يجدوا شيئا فى الشارع الكبير فعبروه سريعا ودخلوا فى الحى الكبير .. ما هى الا خطوات قليلة حتى لاح لهم النادى من بعيــد تلمع أنواره وتبرق وتجذب الأبصار والقلوب .. تباطأت الأقدام فى ســيرها وأصــبحت الخطوات قصيرة بطيئة ولكن الأرجل رغم ذلك كانت تسـير وتقترب شيئا فشيئا نحو النادى الذى تلمع أنواره فى الليل .





بقلم : الدكتور رشاد رشدي

الشارع الكبير اميل الى الأسلوب الروائى منها الى اسلوب القصة القصيرة • ومعنى ذلك انها اميل الى السرد منها الى التركيب الدرامى ، فهى تعتمد على التجميع والتراكم اكثر من اعتمادها على التركيز والتفجير •• وهذه مسألة يطول شرحها ، ولكن يكفى للتدليل عليها فى شىء من الوضوح أن نتأمل النصف الأول منهـا ، فهو يتـكون من تفاصيل كثيرة أغلبها تفاصيل وصفية للمدينة ، قد تكون مفيدة فى رسم صورة للمدينة التى يجرى فيها الحدث ولكن علاقة هذه التفاصيل بالحدث ضئيلة ان لم تكن معدومة •

وقد يقال ان هذه التفاصيل التى تستغرق نصف القصـة تقريبا تساعد على خلق الجو الملائم •• ولكن فى اعتقادى أنه لاوجود لما يسمى بالجو فى القصة كشىء قائم بذاته •• فالجو اذا وجد انما هو جزء لايتجزا من الحدث يخدمه ويساعده على التطور ، كما يخدم الحدث ويساعده على التطور اى جزء آخر من أجزائه •• والتفاصيل التى أشير اليها فى هذه القصة ليست جزءا من الحدث بل هى سابقة عليه ففى كل هذه الأوصاف لا يحدث شىء وفقط عندما تنتهى يبدأ الحدث ـ عندما يبدأ أولاد الحارة يفكرون فى الذهاب الى الشارع الكبير •• وانفصال الشارع الكبير عن الحارة ـ انعزال كل منهما عن الآخر رغم انهما فى مدينة واحدة • هذا هو الذى يحاول الكاتب ان يبرزه فى بداية القصة ولكن هذا كان يمكن ابرازه فى سطور قليلة ـ بمعنى آخر انعزال كل من الشارع الكبير والحارة انعزالا يجعل من كل منهما عالما قائما بذاته قد سرده الكاتب فى اسهاب شديد ولذلك جاء كمقدمة للحدث فى حين انه فى الحقيقة عنصر من عناصر الموقف ـ اى جزء من بدايته•

وفيما عـدا ذلك فبناء القصة سليم فالموقف يتطور تطورا طبيعيا ، ومن غير صخب أو افتعال • ولحظات التردد التى يمر بها اولاد الحارة وما يشع بها من مخاوف وآمال ـ كل هذا مرسوم بدقة الى ان يصل الحدث الى نهايته •

ونسيج القصة غنى بالتفاصيل المعبرة وفيما عدا المقدمة فليست هناك أوصاف لا تنتمى للحدث أو لا تساعد على تطويره •

وكان الأجدى هو ان المؤلف جعل النسيج يحتوى على شخص او شخصين من اولاد الحارة على الأقل ـ فالتعرفات الجماعية التى يتعرفها أولاد الحارة وكأنهم جميعا شخص واحد تفقد القصة الكثير من ملامحها الفردية كقصة ، فأولا ليس من السهل أن نصدق أن مجموعة من الناس أيا كانت تتعرف دائما وكأنها شخص واحد •• وثانيا ما يميز القصة •• أية قصة هو أنها تعنى بالأفراد كأفراد او بالأفراد كأعضاء فى مجموعة أو مجموعات ••

ولكن رغم هذه الملاحظات فبالقصة من دقة التحليل وسلامة البناء وجدية النظرة ما يؤكد ان كاتبها قادر على كتابة القصة القصيرة ان لم يكن موهوبا •



الحركة ودلالات الزمن

بقلم : جميل عطية ابراهيم

كان الهدوء يعم الطريق المؤدى الى منتصف المدينة ، ثمة رياح رطبة خفيفة تهب من المحيط تهز غصان الشجر • وقف فى الشرفة ، يرمى البصر الى لتلال والهضاب الواسعة المكسوة بالحشائش البرية لممتدة أمامه ، نظر برهة الى الساعة الدقيقة التى تحيط بمعصمه ، غادر الشرفة الى غرفته ثم أوصد باب الشرفة خلفه •• الملل يملأ قلبه من المعيشة بمفرده فى مدينة أصيلة بعيدا عن أهله ، أخذ يعيد ترتيب محتويات الغرفة ، يعلق الملابس المكومة فوق المائدة الصغيرة ، ثم جلس يقلب صفحات كتاب يبحث فى الأزمنة الضوئية وطرق التدوين البيانية للجاذبية الأرضية •

بعد قليل ترك الكتاب جانبا ، عاود النظر الى ساعته ثانية دون ما رغبة جدية فى معرفة الوقت ، لم تكن قد مضت سوى لحظات قليلة على مغادرته الشرفة •

تجاوز موزع البريد الجامع الكبير بعدة خطوات، عبر الطريق الى المدرسة الابتدائية الحالية من التلاميذ ، القى بعدة خطابات فى الصندوق الصغير المعلق على الباب الخشبى ثم انحنى جانبا الى اليمين وهو يعدل من وضع الحقيبة التى تضغط على بطنه ، يزيحها قليلا الى اليسار • تابع سيره فى الطريق المؤدى الى ضريح للا عائشة •

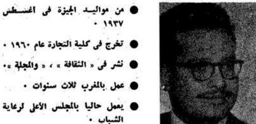
الطريق مرتفع ، تفصله عن البحر هوة يزيد عمقها عن الثلاثين قدما ، الامواج تتكسر على السور القديم الذى يحيط بالجزء الشرقى من المدينة ، فى جلبة وضوضاء • قال موزع البريد فى حسرة الرياح تلفحه من كل جانب ، هدير البحر يملاء اذنيه • مسكين رجل البريد يعمل يوم الجمعة • يحرم من التمتع براحته الاسبوعية مثل بقية الخلق • ثم توقف أخرج خطابا من حقيبته ، الى منزل رقم «٣» من زنقة سيدى عبد الرحمن ، طرق الباب عدة طرقات • لم

يجبه أحد ، ابتعد عن الباب ، نظر الى الشرفة أخذ ينادي آه سيدي الفقيه . آ . سيدي بوسلهم .
اقترب القطار القادم من الرباط من المدينة ، طغى بضجته وصفيره المتواصل على صوت البحر الهائج . توقف موزع البريد عن النداء ، ريثما يسترد أنفاسه وتخفت ضجة القطار .

وقفت الخادمة أمام حانوت السلاوي في السوق ، ترتدي جلابها الأزرق ، يخفي اللثام النصف الأسفل من وجهها ، والقب يغطي رأسها ، تنتقي البيض والخبز حتى ينتهي العجوز من ميزانه . كان الرجل يتحرك ببطء شديد داخل الحانوت ، فمه لا يكف عن الحديث والمداعبة ، سبته ، تناولت الشاي والسكر ووضعتهما في السلة ، رمت له بدرهمين على المائدة . غادرت الحانوت على عجل .

رفرفت حمامة حول الشرفة ثم حطت على شجرة أمام المنزل . ابتسم في جلسته . كان قد مضى ليلة طويلة مليئة بالترقب والقلق . استبشر بهذا الفال الحسن ، الحمام منذ قديم الزمن يطير وهو يحمل تحت جناحيه الرسائل . اعتدل في جلسته يتابع القراءة . تعلقت عيناه بالقانون المعروف ف = ع × ن في معرض الحديث عن السرعة اللحظية ، حيث تساوى المسافة حاصل ضرب السرعة في الزمن .





- من مواليد الجيزة في اغسطس ١٩٣٧ .
- تخرج في كلية التجارة عام ١٩٦٠ .
- نشر في « الثقافة » ، « والمجلة » .
- عمل بالمغرب ثلاث سنوات .
- يعمل حاليا بالمجلس الأعلى لرعاية الشباب .
- اعزب .

بدأت الحركة تشتد في المدينة . سارت مجموعة من النسوة يرتدي بعضهن الحائك الذي يخفي أجسادهن من قمة رءوسهن حتى اخمص اقدامهن . ويرتدي بعضهن الجلاب ويغطين رؤوسهن بالقب . في طريقهن الى الحمام ، كل واحدة منهن تمسك بيدها لفافة بها ملابسها النظيفة ، يتحدثن بصوت خافت .

في الجانب الآخر من ميدان سيدي محمد الخامس ، وقفت خديجة بن محمد بزيها الأوروبي ، حقيبتها المتوسطة الحجم بجوارها على الأرض ، تنتظر اتوبيس شركة الستيام السريع ليقلها الى مدينة تطوان ، لتلحق بالمدرسة الداخلية للمعلمات قبل الساعة الواحدة ظهرا ، بعد قضائها ليلة الخميس بين والديها واخوتها بأصيلة .

عبرت النسوة الميدان الصغير وعندما اقتربن منها لوحن لها بالأيدي بالسلامة .

قالت فاطمة بدهشة

ـ رفضت الزواج من سي محمد بن الزوجاري !!!

ردت رقية في سخريه

ـ عندها صاحب في تطوان .

ـ عيب عليك هذا القول . حشومة . بعد ثلاث سنوات تصير استاذه .

تابعن سيرهن ، عندما مررن على كازينو اسبانيا الذي يطل على الميدان . توقفن عن الحديث وخفضن رءوسهن .

انتهت سنيوريتا ميلي جارسيا أستاذة العلوم بثانوية الامام الأصيلي من صلاتها ، رسمت علامة الصليب فوق صدرها قبل مغادرتها الباب الخارجي ، توجهت الي مبنى البوليس القائم في مواجهة الكنيسة ،

لتتسلم تصريح الاقامة الخاص بهـا بعد تجديده ٠ اقترب منها الشرطى المكلف بالحراسة ، أخبرها بأن بطاقتها مازالت عند الكوميسير لتوقيعها ، طلب منها الانتظار عدة دقائق ، وقفت تحـاذبه أطراف الحديث فى ود ٠

منذ سبعة سنوات مضت قضتها سنيوريتا ميلى فى أصيلة ، تعيش بمفردها فى بنسـيون مع عائلة سنيور بوينو وبناته ، بعيدا عن اسبانيا ، وهى تحضر فى مثل هذا الوقت من كل عام لتجدد بطاقتها ٠ لم تتخلف مرة واحدة عن الميعاد كما يتخلف بقية الاجانب الذين يقطنون أصيلة ٠

رمت للا البتول بكـل ما تمسـكه ، غـادرت المطبخ ، هرعت الى حجرة زوجهـا سيدى بوسـلهم فقيه المدينة حيث وقف جميع افراد الأسرة حوله فى صمت ، يرنون اليه وهو يفض الرسالة الواردة من سى ادريس الذى يدرس القـانون في بغـداد منذ عامين ٠

مضى الفقيه يقرأ كلمات ابنه فى تأثر ، والدمع يترقرق فى عينى والدته ، وتردد من حـين لآخر ٠ ولدى ٠ آحبيبى ٠ عزيزى ٠

انتهى الفقيه من قراءة الخطاب ، وضعه فى جيبه تربع فى جلسته ، علامات الرضى تكسو وجهه المجعد ٠ انفض الجميع من حوله فى سرور واحـد بعد الآخر وهم يذكرون سى ادريس الذى غادرهم منذ عامين ٠ جلس الفقيه يبسمل ويقرأ الورد ٠ عادت البتول الى المطبخ ثانيه لتقطع اللحم بينمـا استعدت ابنتهـا الزهور لاشعال الموقد ٠٠ غادر ابنهـا البقالى الدار ليلتقى باصحابه فى كازينو اسبانيا ٠

وقف فى الشرفة يفكر فى مشكلة الزمن بالنسبة اليه ، يعيش فى حاضر بعيد عنه ، ريثما تنتهى الخادمة من اعداد البيض وغلى اللبن ، لمح شيئا يتحرك من بعيد على صفحة المحيط فى بطء شديد كنقطة صغيرة عند خط تماس الأفق والمياه ، سفينة ٠ قال لنفسه ٠ الأفق ينطبق على الارض كسـطح كروى يحوى كل شىء ويطويه ٠ كل شىء مهما كبر حجمه يبدو صغيرا من بعيد ٠ تذكر رسالتها التى تسلمها أول أمس ، تخبره فيها بمرضها ٠ احس بعجزه أمام تلك المساحات الشاسعة التى تفصله عنهـا ٠٠ وديان ، صحارى جبال ، انهار ، مسافات تقاس بالدول عامرة بالبشر ٠

انتهت الخادمة من اعداد الطعـام ، اخذت تنادى عليه ، دلف الى الغرفة وليست به رغبة فى الافطار ٠



وقفت رقيه وسط صويحباتها أمام باب الحمام ، عرت رأسها ، تلوح بيدها بشـدة ٠تسب ٠٠تتفوه باقذع الالفاظ ، جملة بالعربية واخرى بالاسبانية ٠ النسوة حولها يصرخن ويشجعنها ٠

بينما وقف الحجام يمسك بعصا صغيرة ، يمنع بها النسوة من الاقتراب من باب الحمام ، يزيحهن بها بعيدا الى وسط الزنقة كلما اندفعن نحوه ، يمنعهن من الدخول لا يبالى بكلامهن ٠

جلس يتناول افطاره فى ضيق ، عيناه مشدودتان الى الرسالة المطوية على طرف المكتب التى كتبت منذ أسبوع مضى أو يزيد ٠ انتابه قلق شديد ٠ لعـل المرض اشتد عليهـا ٠ سأل نفسه ٠ كيف حالهـا فى هذه اللحظة الراهنه ؟ دائما تصلنى اجاباتهـا بعد أسبوع بواسـطة الخطابات ٠ هب واقفـا ازداد قلقه وانقباضه ، بدأ فى ارتداء ملابسه ٠

عاد موزع البريد ادراجه من طريق آخر وسط المدينة ، توجه فورا الى موقف الاتوبيس القادم من مدينة طنجه ٠

لمحته الخادمة وهى تكنس الصـاله ، يسرع فى ارتداء ملابسه قبل الانتهاء من افطاره ٠ اقتربت منه قالت تطمئنه وقد عرفت مقصده ٠

ـ أستاذ ٠ باقى على أتوبيس الفالنيانا نصـف ساعة ٠ اشرب هذا الحليب ٠

كانت به رغبة شديدة فى الذهاب الى مكتب البريد لم يلتفت اليها • تناول رباط عنقه • قال يقلدها وهى تنطق ببضعة كلمات اسبانية أثناء حديثها •

ـ أنا ذاهب الى الكوريو •

كان الخالدى الفاسى صاحب حانوت ملابس الدار البيضاء باصيله ، قد اكترى الحمـــام لحسابه ، هو وزوجته لمدة ساعة نظير دفعه ثلاثة آلاف فرنك • جلست النسوة ، ملابســهن فى أيديهن على الارض خارج الحمام يثرثرن فى غيظ وقد حرمن من الدخول خفت حدة ثورتهن قليلا بعد مغادرة رقيه وصويحباتها الزنقه •

والحجام يصرخ فيهن والعصا فى يده •

ـ آ ولد الحرام هاكن حمام آخر وسط المدينة •

لكنهن لا يتزحزحن عن مكانهن خطوة واحدة •

عند ما فتحت ساميه عينيها ، كانت ساعة جامعة القاهرة ، انتهت من دقاتها الاحدى عشرة • والدتها تجلس بجوارها منـذ فترة طويله ، يخيم القلق على المنزل بأكمله •• كانت أمضت ليلتها ساهرة تئن تحت وقع آلام ساقها اليمنى التى فقدت القدرة على تحريكها بسبب جلطة فى شريان أعلى الركبة منعت الدم من التدفق اليهـا •• قلبهـا يدق بعنف كلما تذكرت كلمات الطبيب حـــول ضرورة اجراء تلك الجراحة اللعينة اذا اثبت التحليل صحة توقعاته •

حركت ساميه رأسها قليلا ، مرت بأصابعهـا على عينيهـا المتعبتين ، حتى تسترد وعيهـا بعد تلك الاغفاء ، المتقطعة • انحنت والدتها عليها • قبلتها فى حنان • صباح الخير • ناولتها الرسالة الواردة من أصيله ، وهى ترسم على شفتيها ابتسـامة ذات مغزى لتدخل البهجة على قلب ابنتها • غادرت الغرفه• انهمكت سامية تفض الرسالة على انفراد •

تجمعت بعض فتيات ثانويه الامام الاصيلى حوله يسألنه فى عطف عن امتحان الرياضيات فى الغد • حدثهن فى اقتضاب وطمأنهن •• عبر ميدان محمد الخامس الذى يتوسط المدينة • اقترب منه العياشى سائق التاكسى وحياه •

ـ أستاذ •• مسافر الى طنجه ؟

ـ لا •• شكرا •

اقترب من لوحة الاعلانات الموضـوعة على الارض بجوار قهوة السحراوى • فيلم عربى الليله • تجمع حوله صبيان المدرسة •

ـ لا بأس أستاذ •

قال السوسى انجب تلاميذ الصف الثالث بالثانوية

ـ لا تقل له لا بأس • قل ازيك باللهجة المصرية•

قال آخر •

ـهذا ولد الحرام صاحب السينما خصه الشنق يقدم كل اسبوع فيلم عربى فقط يوم الجمعة •

قال السوسى •

ـ فيلم واحد بس •

••طلبمنهم العودة الى البيتللدراسة والاستعداد للامتحان ، تفرقوا من حوله • ســار فى طريقه الى مكتب البريد •

عندما نزل من أتوبيس ١٢ ، بدت له اللافتـــة واضحة فى الدور الثالث من عمارة الفلكى التى تقف سامقة تطل على سوق باب اللوق • معمل التحاليل الطبية • غاص قلبه الى قدميه ، تنهد •صرخ من اعماقه رحمتك يا رب لسامية • دلف الى العمارة على مهل والهواجس المختلفة تسيطر عليه • وقف امام باب المصـعد فى خوف كأنه مقبـل على امتحـان كبير • الجراحة اللعينة تتوقف على نتيجة تحليل الدم • كان المصـعد يقترب من الدور الارضى • وقف ينتظر على مضض •

فرغت سامية من قراءة الخطاب ، أخفته فى صدرها تنهدت • ساورتها رغبة فى فتح النافذة ورفع الستائر لتهوية الغرفة • حركت جذعها ، ارتكزت بمرفقيها على السرير • همت بالنزول ، لكنهـا فشـلت فى



تحريك ساقها ، احست بها ثقيلة كأنها صنعت من الطين • مرت بيدها على ركبتها ثم ساقها حتى نزلت الى قدمها ، قرصت أصابع قدمها برفق ثم بشدة •• لم تحس بشيء • فزعت• تيبست ساقها من اسفل الركبة حتى القدم ، اصبحت كالصلصال • تسمرت فى جلستها برهه مشدوهه • ثم صرخت بصوت عال تستنجد بأمها •

أفاقت والدة سامية من زهولها فجأة • هرولت فزعه الى غرفتها لتطمئن عليها • تذكرت ساعة وفاة والدتها • احست بسحب الحزن تخيم عليهم ثانية أغمضت عينيهـا لتطرد عنهـا ذكرى تلك الايام الحزينة •

تناولت سنيوريتا ميلى من رجل البوليس الجالس أمامها بطاقة الاقامة • كانت قد تعلمت بضعة كلمات عربية من جراء طول اقامتها بالمدينة • تمتمت بصوت خافت •

ـ شكرا •• السلام عليكم •

تذكر وهو يسـير بمفرده قانون السرعة • قال لنفسه • عندما تزيد السرعة يقل الزمن فى حالة ثبوت المسافة • سار على مهل وصوت تكسر الامواج على بعد شـارعين يملأ اذنيه وقف أمام استوديو الشرادى ، سأله عن فيلم صـوره للمحيط • تابع سيره ، حيا الحـلاق ، طلب منه المرور عليه فى المساء ليقص شعره •

على بعد بضـعة خطوات منـه بالقرب من مبنى البوليس ، كانت تقف سنيوريتـا ميلى تتحدث مع احدى طالبـات المدرسة • رحبتـا بقدومه • وقف يتحدث معهن قليلا بالاسبانية •

قالت ثريا وهى تودعهما •

ـ أستاذ •• انت تنطق الاسبانية جيدا الآن •

ابتسم • كانت سنيوريتا ميلى جارسيا فى طريقها الى كازينو اسبانيا ، غيرت اتجاهها • سارت معه الى مكتب البريد • سألته برفق بالاسبانية •

ـ كيف حال سامية ؟

قال والقلق يطل من عينيه •

ـ لم تصلنى اخبار أخرى حتى الآن •

سارت بجواره فى صمت وهى تحترم مشـاعره وقلقه •

جلس البقالى يتناول قهوته بكازينو اسبانيا بين مجموعة من أساتذه الثانوية المغاربة والاسبان يحدثهم عن الرسالة التى وصلت من بغداد «صباح اليوم» •

قاطعه أحدهم يسأل عنه •

ـ تأخر اليوم عن المجىء •

قال البقالى ضاحكا •

ـ لابد انه الآن بمكتب البريد ينتظر الرسـائل الواردة عن طريق طنجه •

قالت سنيوريتا كارولين سافدرا •

ـ انه ليس على ما يرام منذ ثلاثة ايام • لم يعد يضحك ويروى النكات كعادته • اكملت بلهجة مغربية

ـ مش مزيان اليوم •

قال البقـالى وكان يطيب له فى بعض الاحيـان مداعبتها •

ـ أنظرى انه تعلم الاسبانية خلال عامين بينما انت ولدت فى أصيله ولم تتعلمى من العربية سوى ثلاثة كلمات ، مزيان ، صافى ، لا بأس •

قالت على مضض •

ـ اصمت بقالى ، لا تتكلم ثانية •

والجميع يرشفون القهوة وينظرون اليها ويبتسمون

وقف والد سامية وسط الغرفه ، يمسك بنتيجة التحليل ، يحـاول قراءة الكلمات القليـلة المدونة باللغة الانجليـزية •• كانت الكلمـات مكتوبة باقتضاب شـديد ، بجوارها شرط ونقط ودوائر • عجز عن فهم ما تعنيه هذه الرموز وهو كبير مفتشى اللغة الانجليزية •

اقترب من الرجل الذى ناوله النتيجة ، سـأله فى عطف •

ـ هل هناك ضرورة لبتر ساق ابنتى ؟

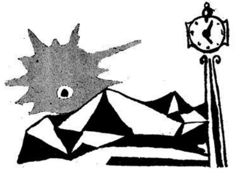
حدثه الرجل فى اقتضـاب وهو لا ينظر اليه ، طلب منه عرض النتيجة على الطبيب ، وجهه جامد لا يفصح عن شيء ، يخاطبه بدون اكتراث كأن قلبه قد من الصخر • غادر المعمل فى ضيق على عجل ، زادت هواجسه •

قال وهو يقترب من مبنى البريد •

ـ فى بعض الاحيان ، عنـدما اعود الى المنزل فى المساء وأوصد خلفى الباب الخارجى بالمزلاج وادلف الى الشقة السابحة فى الظلام • احس برهبة الوحدة ووحشة الصمت الكئيب •

أمنت سنيوريتا ميلى جارسيا على قوله •

ـ عندما يجتمع الصمت والظلام فى مكان واحد •• احس بأننى غرقت فى المحيـط وابتلعنى اليم



اقترب من الصندوق ، عيناه متعلقتان بواجهته المربعة يود اختراقها بنظراته ، حياته معلقة • الحنين الى الارض التى تربى عليها يقتله •

غادر الخالدى الفاسى وزوجته الحمام من الباب الخلفى دون أن تحس النسوة بهما ، عبرا الزنقة • انحنت الزوجة فى طريقها الىالسوق ، لفافة ملابسهما بين يديها تحت الحائك ، دون ان تقترب من زوجها او تحدثه ، بينما شق هو طريقه الى الجامع الكبير ليسمع الدرس ويقرأ الورد قبل صلاة الجمعة مع مجموعة من أشراف أصيلة •

سألت سامية عن والدها • قالت الأم دون رياء –

– ذهب الى معمل التحاليل الطبية منذ ساعة ليأتى بالنتيجة •

أحست بنفسها تقف على حافة هاوية بمفردها بعد سماعها تلك الكلمات • مدت يدها تمسك ساقها خشية أن تنزع منها • تسير مستنده الى عصا خشبية• صرخت تبعد عن مخيلتها هذه الصورة البشعة •

ذهب الرجل والأوراق فى يده الى عيادة الطبيب بميدان المحطة •• قال له الممرض •

– الطبيب لا يحضر الى العيادة يوم الجمعة فى الصباح •

فاق الرجل من ذهوله على كلمات الممرض • عقارب الساعة لا تدور ، ابنته تتعذب • الحف فى السؤال عن عنوان الطبيب • أجزل العطاء قبل ان يفك عقدة لسان الممرض •

تلقف العنوان من فمه ، دونه على ورقة صغيرة وضعها فى جيبه وهو ينزل الدرج بسرعة • لم ينتظر المصعد • على باب العمارة وقف ينتظر تاكسى •

عندما اقتربمن كازينو أسبانيا قالتله سنيوريتا ميلى •

– الجميع ينتظروننا بالداخل •

كان يفكر فى تلك السفينة التى لمحها فى الصباح من بعيد على صفحة المياه • عابرة محيطات ؟ سفينة صيد ؟ • فرقاطة حربية ؟ تشق عباب البحر حتى تصل الى أهدافها بعد شهر أو شهرين تسير بسرعة مرسومة لها •

ظنته لم يفقه كلماتها ، أعادت على مسامعه قولها ثانية بالفرنسية •

وقف الاصدقاء كافة عند قدومها • انطلقت كلمات الترحيب بالعربية والاسبانية من كل جانب •• جلس• حاول أن ينسى همومه وقلقه بينهم • نظر الى سى علال ، قال له بلهجة مغربية قحة •

– خصنى واحد الكويس دى الأتاى بالحليب • مفخم مضخم من الطبقة الرفيعة •

قهقه سى علال وقد سره حديثه باللهجة المغربية• قال احدهم •

– سيقدم التلفزيون الاسبانى بعد سبعة دقائق برنامجا عن غرناطة •

تأهبت سنيوريتا ميلى لمشاهدة موطن رأسها • اعتدلت فى جلستها بينما مضى آخر يعالج مفاتيح التليفزيون برفق وقد سرتها المفاجئة • قال البقالى •

– ربما مرت الكاميرا بشارعها وصورت منزلها وهى تصور غرناطة •

كانت مجموعة من الشبان تجلس خارج الكازينو تستمع الى اذاعة القاهرة من راديو صغير يحمله أحدهم بين يديه •

قال البقالى •

– القاهرة تشنف آذاننا وبعد قليل نرى غرناطة . على بعد خطوات تجلجل امينة الادريسى بأغنيتها النمرة غلط ياسيدى من اذاعة الرباط فى قهوة السحراوى • أصبحت موجات اللاسلكى تلاحق الانسان ، تنقله الى عوالم بعيدة فى كل لحظة • لا تتركه يسعد بالهدوء فى مكانه •

صمت على مضض • لو ظهرت صورة سامية على شاشة التلفزيون ، أحسست بأننى عدت الى القاهرة بضعة لحظات • الرسائل تصل بعد اسبوع من كتابتها • تنقل أحداثا مضت • الحاضر لا يقوى على حمله سوى موجات اللاسلكي او الحركة بسرعة الضوء حتى تظل لحظات الحاضر مستمرة •

انطلق به التاكسى يقطع شوارع مصر الجديدة بأقصى سرعة شعر لأول مرة بأن القاهرة مدينة مترامية الأطراف ، واسعة الارجاء •

قطع راديو القاهرة اذاعته مد السائق يده الى مؤشر المذياع المثبت بسيارة التاكسى •

انطلق صوت يدوى • هنا القاهرة • ثم بدء فى قراءة كلمة بمناسبة ذكرى انشاء هيئة الامم المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية •

كانت قد بدأت تلوح فى الأفق بوادر النزاع بين دول افريقيا ، حوادث الاشتباكات على الحدود خاصة بالقرب من الأماكن التى ينتظر أن يتدفق فيها البترول • وقعت عدة حوادث حول منطقة حاسى بيضا وتندوف فى شمال افريقيا • اشتد سعار الحرب فى الكونغو • تفاقمت الازمة بين الحبشة والصومال حول الحدود • خرجت مجموعة دول ملاجاشى عن منظمة الدول الافريقية • حرب وحشية تدور فى فيتنام الاستعدادات العسكرية تجرى على قدم وساق بين الهند وباكستان حول كشمير • حرب التحرير يشتد عودها فى عمان والامارات •

قال سائق التاكسى فى ضيق •

ـ لتقم الحرب الثالثة حتى يكف البشر عن النزاع •

تذكر الرجل خطيب ابنته القابع على المحيط بعيدا عنه • قال بقلب مفعم بالالم •

ـ الناس لا تحب الحرب • لكنها آفة العصر •

كم يود أن يجد الطب علاجا لساق ابنته ،ان تتقدم العلوم الطبية فجأة كما تقدمت علوم الفضاء • قال السائق وقد ندم على كلماته السابقة •

ـ شوهت القنبلة الذرية ابناء اليابان • حرقتهم • قطعت أطرافهم •

غاص قلبه الى قدميه على ذكر قطع الاطراف • تذكر تلك الجلطة اللعينه • ابعد نظره عن الرجل وقد ضايقته كلماته • مضى ينظر من النافذة الجانبية الى الناس والسيارات والمنازل • وهم يتراجعون الى الخلف امام عينيه

انتهت الخادمة من تنظيف الشقة • قررت ان تعد له طبقه المفضل •

جلس الجميع ينصتون الى موسيقى دى فايا • الكاميرا تدور بهم فى ارجاء قصر الحمراء بين النقوش العربية التى تغطى جدرانه • وسنيوريتا ميلى تردد من وقت لآخر صيحة الفرح عند الاسبان •• أولى ••• أولى •

وقف الرجل امام شقة الطبيب بمصر الجديدة • سأل عنه • قيل له • ذهب فى زيارة عاجلة الى أحد المرضى بالعجوزة منذ دقائق قليلة • نزل على مهل وهو مصمم على الانتظار والعودة للسؤال بعد ساعتين •

جلست سامية فى الشرفة ، تغطى ساقيها بقطعة من الصوف السميك تنظر الى الطريق فى قلق من حين لآخر ترفع رأسها الى الأفق الواسع الممتد أمامها بغير نهاية •

تعقيب على قصة الحركة.. ودلالات الزمن



بقلم: نجيب محفوظ

لحظة حضور شاملة ، جمعت فى اطارها تراكمات من المواقف ، بين « اصيلة » والقاهرة ، ثم ضمت اليها ـ بمعونة الراديو ـ مجموعة اخرى من المواقف والاحداث فى الأرض كلها • باسلوب يذكر بتكتكة ساعة ، فى رتابته ولا مبالاته ولكنه يطابق موضوعه مطابقة فنية بارعة • وتتلاقى هموم انسانية يومية صغيرة بهموم الدنيا الكبيرة • تسجل فى الظاهر بحياد يكاد يجعلها محض تسجيل آلى • والفن لا يسجل ، لا يعكس الواقع ، كلا ، انه يقدم فكرة الفنان عنه ، ولكن مهلا • القصة ليست تسجيلا آليا كما قد يخطر للذهن • انها تقول شيئا • تقوله همسا من خلال تكتكة الساعة • فهى لم تضع هموم الانسان الصغيرة الى جانب هموم الدنيا الكبيرة فحسب • هناك حروب وغارات ومنازعات ، وهنا رجل يكترى الحمام لأسرته ويترك النساء فى انتظار اليم ظالم • وهناك طاقات تبذل فى الضرب بعبقرية على حين توجد هنا ساق تحتاج نجاة صاحبتها الى بعض هذه العبقرية •

ولكنى أسأل كيف دخلت القاهرة فى الصورة ؟

ان جميع ما يدور فى (اصيلة) يمكن ان يقدم من وجهة نظر الشخص المقيم فى اصيلة بعيدا عن اهله • ويتكفل الراديو بالأحداث الكبيرة • اما مناظر القاهرة فمن اى وجهة نظر دخلت صورة القصة ! هذه ملاحظة لا اجد بدا من اعتبارها مأخذا او اسمع رأى المؤلف عنها •

وعندما اقارن هذه القصة باول قصة كتبتها فانى المس ـ سعيدا كل السعادة ـ مدى التقدم الذى احرزته القصة القصيرة، ويليق بى أن أتخيل مدى الذروة التى تسير اليها •





بقلم : ضياء الشرقاوي

- من مواليد ٢٠ ابريل ١٩٣٨ .
- تخرج في معهد التامين العالي عام ١٩٥٩ .
- نشر في « الآداب » ، « القصة » ، « الحرية » ، « الاذاعة » . كما اذيعت له بعض قصصه من البرنامج الثاني لاذاعة القاهرة .
- تصدر له قريبا عن الدار القومية ـ الكتاب الماسي ـ مجموعة قصص بعنوان «رحلة في قطار كل يوم» .
- يعمل بشركة النصر للاسمدة والصناعات الكيماوية .

ربما ماتت يا دكتور .. بل من المؤكد انها ماتت ، فكل من يصبح ذا صلة بهذا العجوز المجنون يصير محكوما عليه بالموت ، سوف تراه ، وسوف يحدثك عن حديقته وكأنها حديقة حقيقية مليئة بالأشجار والأزهار ، سأريك اياها ، فهي في طرف المدينة ، مجرد أرض عالية لايصلها الماء ومع ذلك فهي مليئة بأشجار الشوك، رغم تربتها التي تكلست وصارت في لون الملح ، لا أدري لماذا تكلست هذه الأرض العارية ، وأصبحت أرضا ميتة أشد صلابة من خشب البلوط ، فان موت هذه الأرض لغز أشد صعوبة من لغز هذا العجوز المجنون الذي ستراه بعد قليل ، والذي لابد وانه سيحدثك عن حديقته المزعومة ، لقد كنا نسمع من جداتنا ورجال القرية العواجيز انها كانت حديقة بالفعل ، حديقة واسعة غناء ، كانوا يتحدثون عنها حديث خرافة لا نصدقه نحن أولاد هذه الأيام ، وكان جده ـ جد هذا العجوز المجنون يقيم في قصر كبير يطل على هذه الحديقة ، ولم يبق من هذا القصر ولو حتى جدار ، ولم تبق من هـذه الحديقة شجرة واحدة ـ كأن لعنة غريبة حلت بهما ، أنت تعرف تهاويل « ناس زمان » حينما يتحدثون ، الكوخ يصير قصرا ، والشجرة تصير حديقة ، والقطة تصير أسدا ، لذا لا أصدق كل هذا الذي قيل ، وكل هذا الذي قاله العجوز .

وأحيانا كنت أمازحه عن حديقة الأمس المزعومة وأسأله عن عدد أشجارها فأجده ينطلق يحفر حول الجذور القديمة المختبئة في باطن الارض وكأنه يعرف أماكنها جميعا ، ويقول لي هيا لأريك كل الأشجار هذه الليلة ، انني أعرف أنواع الأشجار من جذورها، فأضحك حتى تمتلىء عيناي بالدموع ، وأربت على كتف العجوز وأطيب خاطره وأؤكد له انني أحب حديقته كما يحبها هو نفسه بل أكثر ، فأرى عينيه

تلتمعان بالبهجة والامتنان ، وينسى نفسه وينسى كل شىء حوله ويغمض عينيه نصف اغماضة كعاشق مفتون ويحكى لى حكايته المجنونة عن حديقة جده ، ثم عن حديقته التى سينشئها مكان الحديقة القديمة، وأنه سـوف يجعلها تفوق الأولى رحابة ، ويروح يعـدد الأشجار التى سيزرعها وأنواعهـا وأماكنها أيضا ، فانه يرى ان لكل شجرة ميزتها وسلالتها ومكانتها وقيمتها ، فان الأشجار كالناس لكل قيمته ومنزلته ، فليس من المعقول أن تكون أشجار التفاح بجوار السور فى متناول أيدى الأطفال العابثين ، وفى مهب الرياح فذلك متروك لأشجار الكازورينا والعبل ، أما شجرة التفاح فهى رقيقة وديعة أنيقة يجب أن يكون مكانها فى قلب الحديقة ، كأن كل الأشجار الباقية فى حراستها وخدمتها وكأنها ملكة متوجة يحيطها الوزراء والوصفاء والحراس، وبجانبها أشجار من نفس فصيلتها ، تماثلها فى الرقة والأناقة



جذورها فى المستقبل وليس فى الماضى ، لك أن تضحك لهذه الملاحظة الساذجة يا سيدى الدكتور ، فلقد استمروا فى العمل بالحديقة ست سنوات متواصلة ـ حتى صار الأمر خرافة لايصدقها عاقل ـ وصارت الحديقة حكاية يرويها مجنون • ولكن العجوز الصلب الرأس يؤكد انها حكاية يرويها عاقل لأناس مجانين ولا برء من جنونهم ، وتحولت سخريتنا منه ومن ولديه الى اشفاق عميق يغلفه الأسى ، وصارت دقات فؤوسهم فى الليل والنهار أغنية عذبة طويلة ، أغنية شجن تنشدها قريتنا فى تواصل حزين •

وأحس الناس انهم لابد وأن يفعلوا شيئا لهذه الخرافة التى تضرب جذورها فى قريتنا خاصة وان القرى المجاورة بدأت تتناقل هذه الحكاية المجنونة ، وكلما تراكم احساس الناس بأنهم لابد وأن يقفوا أمام هذه الخرافة كلما ازداد صمتهم أمامها ، لهذا يا سيدى الدكتور سألت من قبل عن علاقة الصمت بالوجود الانسانى كافة ؟

وأدرك الناس ان العجوز وولديه يسابقون الموت والجنون • فأرض الحديقة لا أمل فى اصلاحها الا بوسائل ليست فى مقدورهم ووسائل تحتاج لآلات كثيرة ولزمن طويل • فهل ثلاثة أنفار يذوبون بلا توقف ـ فى الحديقة ـ الولدان فقط هما اللذان كانا يذوبان فى الأرض اما العجوز فكان مثل جذر ميت متجمد لا تؤثر فيه فؤوس الأيام ـ أقول هل يكفى ثلاثة أنفار لأن يسووا أرضا مساحتها ثلاثة عشر فدانا مرتفعة عن مستوى الأرض المجاورة بثلاثة أمتار تقريبا ـ وذلك حتى تجرى فيها المياه جريانا طبيعيا ـ وهذه الأرض مليئة بالجذور العتيقة الميتة والصخور القديمة ـ الى جانب أنها تكلست وصارت فى لون الملح وتحتاج لغسل لعدة أعوام ولن أقول لعدة شهور ـ ان هذا عمل خرافى يحتاج لأناس كثيرين وليس لثلاثة أنفار ، ويحتاج لآلات كثيرة وليس الى ثلاثة فئوس •

وكأن القدر يعاكسهم ويعاندهم اذ يعيد اليهم الشتاء أكوام الرمال ، التى حملوها بعيدا ، فى عربات الرياح ثم يسكب فوقها مدرارا من المطر فيجمدها كالصخور ، وتتهدم القنوات التى شقوها، وتمتلىء القناة الكبيرة التى تمدهم بالماء العذب بالرمال وكانوا قد شقوها فور انتقالهم الى البيت الجديد ، فيضطرون الى تعميقها ثانية وتقوية سدودها ، واقامة سور عال حول الحديقة ناحية الجزء العارى والذى تحمل منه الرياح أكوام الرمال الى حديقتهم ، ولكن كان ذلك كله دون طائل ـ وصارت المسألة واضحة تماما أمام أعيننا ، فلقد كانت هذه المسألة ببساطة تحديا مريرا بين الجنون الانسانى ولن أقول الارادة الانسانية ـ ممثلا فى العجوز وولديه ـ وبين الطبيعة القاسية التى لا تعرف الهوادة أو المهادنة أو الاستسلام ممثلة فى هذه الحديقة •

وكان أهل قريتنا مثل متفرجين يشهدون مأساة تمثل أمامهم فأمسكوا أنفاسهم ولاذوا بالصمت ـ أقول الصمت مرة أخرى يا سيدى الدكتور ـ وكنت أنا بين هؤلاء المتفرجين أشد قربا من هؤلاء الممثلين الثلاثة أرى مأساتهم من زاوية خاصة ، من نافذة ضيقة فتحتها أمام عينى المصادفة وحدها • وكانت الفتاة تذوب هى أيضا ـ أسرع من الولد الأكبر ـ رغم انها لا تعمل فى حديقة العجوز ـ فكأنها تعمل فى حديقته الميتة هى أيضا وتستنبت فى أرضها البيضاء المتكلسة أملا ميتا ، تستنبت أملا فى أرض المستحيل ، وكان الفارق بينها وبينهم انها كانت بمفردها ، أما هم فكانوا ثلاثة ، وكانت حديقتهم ثلاثة عشر فدانا أما حديقتها فبلا حدود ، كما كانت حديقتهم مليئة بالجذور الميتة الغائرة فى الأعماق أما حديقتها فكانت مليئة بالأيام الميتة الغائرة فى الماضى وفى الحاضر ولا أمل فى أن تورق يوما ما • كما كانت آمالها أشد جنونا من آمال العجوز فحديقتها ملك لها وحدها هى والولد الأكبر ولكن حديقة العجوز ربما صارت الى الولدين أو الى الدائنين والمرابين أو أى أناس آخرين ـ وهى تسقى حديقتها المجدبة من دماء قلبها ودموع عينيها وأيام ربيعها وأحلامها الذابلة ـ ولا تنى تحفر وتعمق قناة الأمل بعد أن تردمها رياح الشتاء الدائم ـ شتاء بعد شتاء ـ فلقد صار ربيعها شتاء مستمرا لا يعرف غير الغيوم والأمطار والرياح والليل الطويل • فكان ايمانها بحديقتها أشد ضراوة ويأسا من ايمان الثلاثة مجتمعين • كانت حديقتها هى وجودها الانسانى الحقيقى ـ وجودها الأصيل •

وكلما مرت الأعوام ازداد المتفرجون صمتا ـ وكان صمتهم عميقا حتى صار رنين ابرة يشبه فى آذانهم كدوى قنبلة عنيفة ـ وازدادت الأيام صمتا حتى صار كل شىء سواء كان عاديا أم غير عادى مثل المفاجأة المتفجرة • لذا كان موت الولد الأصغر مفاجأة عنيفا ، له وقع شديد على نفوسنا ، وكاننا جميعا كنا ننتظر مثل هذا الموت حتى نهتز له ،

ويجيء هذا العجوز اليوم ليعيد الحديقة الى سالف مجدها ـ ولكن بلا انجليز ، ولا أدرى كيف استولى العجوز على عقلى الولدين استيلاء تاما ، فلقد كان أصغرهما صعب المراس لا يقل عن أبيه صلابة رأس، ولا يقل رأس أبيه العجوز صلابة وتكلسا عن الارض الميتة ، فلابد أن رأسه هذه لم تنبت فكرة واحدة منذ عشرين عاما على الأقل ، ولا حتى هي بقادرة على أن تنبت عشبا لا نفع فيه أو شجيرات شوك لاطائل وراءها .

ولكنى ذات ليلة ، وبالمصادفة ، ولكم تميط المصادفة اللثام عن حقائق غريبة ، أمسكت بأحد أطراف السر ، سر الولدين ، أو سر الولد الأكبر على الأقل ، وهذا يفسر ارتباطه بالحديقة ، أو قل ارتباطه بالأرض الميتة المتكلسة المرتفعة ، ففى تلك الليلة ، ماكدت أدلف خارجا من الجامع بخطى خفيفة حتى سمعت الولد الأكبر يهمس لفتاة بكلمات عذبة ، بأنفاس متقطعة ، ويتحدث عن حديقة أبيه وعن آماله ، بل عن أملهما المشترك ، وتجمدت في مكاني، وأمسكت أنفاسى ، انها رغبة غامضة تكمن فى أعماقنا ولا أعرف لها تفسيرا ، رغبة أن تكون مكشوفا ومغطى فى نفس الوقت ، وعرفت من همسهما حكاية كانت خافية عنا نحن أولاد القرية العزاب ، عرفت قصة حب ، وعرفت أيضا ان العجوز المجنون وعده بأن يزوجه منها اذا ما انتهوا من الحديقة ، فكان لزاما أن يفعل الولد الأكبر كل ما يمكنه وأن يبذل قدر طاقته لكى ينشئوا الحديقة ويتزوج من فتاته ، لا أدرى الآن ماذا يكون رأيى لو خيرت فى ان استمع الى هذا السر الذى همست به شفاههما أو لا أستمع اليه مطلقا ـ ذات ليلة بعيدة وبطريق المصادفة ؟ ـ ولا أدرى أيضا أى طبيعة غامضة ولا تفسير لها تلك التى تكمن فى أعماقنا وتقيم مملكتها وعالمها وقوانينها الخاصة فى أجسادنا ـ فلقد طويت هذا السر فى أعماقى ـ لماذا ؟ لا أدرى . لقد كنت شابا صغيرا السن حينذاك ، ولقد كانت هذه الأسرار تخلب لبنا ـ نتداولها بيننا كالعملة السرية ، وان لم توجد خلقناها وابتدعناها من أعماق مخيلاتنا التى لم تكن تضن علينا بالأقاصيص الملتهبة المحكمة .

وان هذا السر يا سيدى الدكتور الذى احتفظت به لنفسى وخبأته فى أعماقى مناقضا لطبيعتى حينذاك ومناقضا كل ما كان متعارفا عليه ، أقول ان هذا السر أدفع ثمنه الآن أحزانا مريرة ، فلكم ندفع آلاما ودموعا لمسائل ليست هى مسائلنا ولقضايا ليست هى قضايانا ، ولكننا نرتبط بها بروابط خفية وثيقة ـ فلربما كنت أستطيع أن أفعل شيئا حينذاك للفتاة أو للولد الأكبر ـ وبذلك كنت أستطيع أن أجنبهما أشياء كثيرة قاسية ـ ولكنى لذت بالصمت بالصمت ياسيدى الدكتور، وكنت كلما رأيت الفتاة أو الولد الأكبر فى تلك الآونة ابتسم فى مكر ، فاننى أعرف سرهما وحدى ، ربما لهذه الابتسامة ، ربما لهذا الشعور بانك الوحيد الذى تعرف ، ربما لهذا أو لذاك كنت أخبىء هذا السر ، وأقول لك أيضا ربما لم يكن سرا ولربما كان يعرف غيرى كما أعرفه أنا .

وكأن الحديقة كانت تمتص الولدين شيئا فشيئا فأخذا يهزلان ، وأخذا يغوران فى قلب الصمت ، وصارا يتكلمان بصعوبة وجهد اذا ماحدثهما أحد ، هل كان يثقل عليهما العمل ؟ . هل كان يضنيهما الأمل فى انشاء الحديقة ؟ ـ أقول يضنيهما الأمل وليس يضنيهما اليأس ـ فضنى الأمل أشد قسوة ومرارة من ضنى اليأس ، ومنذ عرفت سر الفتاة والولد الأكبر دخلت الى عالمهما ، بل الى عالم الحديقة، بل الى عالم هذه الأسرة الغريب ، دخلت الى هذا العالم من باب ضيق خلفى لا يبرره أى منطق ولايلده أى عقل . أى علاقة بين سر صغير مثل هذا السر ، وبين اهتمامى بالحديقة ؟ ـ هذا أيضا ما أحيله الى الطبيعة الانسانية الغامضة ـ وماذا يهمنى فى أن ينجح العجوز المجنون فى تنفيذ فكرته الواحدة المسيطرة على عقله ، وفى أن يتزوج الولد الأكبر من فتاته ، فالاثنان سيان عندى : أن ينجح العجوز أو لا ينجح ـ وأن يتزوج الولد الأكبر أو لا يتزوج ؟

ولكن بعد قليل يا سيدى الدكتور سوف تدرك تماما ان ما ليس له معنى فى الوقت الحاضر سوف يصير له معنى بعد ذلك ، ومايغمض على عقولنا فى وقت ما ، يصير معروفا فى الوقت الذى يليه . ماهى علاقتنا جميعا بالأمل الانسانى ؟ هذا هو السؤال الذى يلح على رأسى الآن ـ هل نحن كلنا مسئولون عن آمال بعضنا البعض ؟ ربما تراءى لك هذا السؤال ساذجا أو لا معنى له ، أو سؤال رجل أضنت قلبه الآلام والأسرار الحزينة التى تقليها أمامنا المصادفات .. يجب أن نرفض المصادفة يا سيدى الدكتور فنحن الذين نصنعها . فلو كنت قد أفشيت ذلك السر لما كان لهذه المصادفة أية قيمة الآن ، وان كان هذا الافشاء لا يغير من مصائرنا وأقدارنا .

انى أحكى لك يا سيدى الدكتور حكاية قديمة تمتد جذورها فى اليوم وفى الغد، فالحكايات القديمة

جذورها في المستقبل وليس في الماضي ، لك أن تضحك لهذه الملاحظة الساذجة يا سيدي الدكتور ، فلقد استمروا في العمل بالحديقة ست سنوات متواصلة — حتى صار الأمر خرافة لايصدقها عاقل — وصارت الحديقة حكاية يرويها مجنون • ولكن العجوز الصلب الرأس يؤكد انها حكاية يرويها عاقل لأناس مجانين ولا برء من جنونهم ، وتحولت سخريتنا منه ومن ولديه الى اشفاق عميق يغلفه الأسى ، وصارت دقات فؤوسهم في الليل والنهار أغنية عذبة طويلة ، أغنية شجن تنشدها قريتنا في تواصل حزين •

وأحس الناس انهم لابد وأن يفعلوا شيئا لهذه الخرافة التي تضرب جذورها في قريتنا خاصة وان القرى المجاورة بدأت تتناقل هذه الحكاية المجنونة ، وكلما تراكم احساس الناس بأنهم لابد وأن يقفوا أمام هذه الخرافة كلما ازداد صمتهم أمامها ، لهذا يا سيدي الدكتور سألت من قبل عن علاقة الصمت بالوجود الانساني كافة ؟

وأدرك الناس ان العجوز وولديه يسابقون الموت والجنون • فأرض الحديقة لا أمل في اصلاحها الا بوسائل ليست في مقدورهم ووسائل تحتاج لآلات كثيرة ولزمن طويل • فهل ثلاثة أنفار يذوبون بلا توقف — في الحديقة — الولدان فقط هما اللذان كانا يذوبان في الأرض اما العجوز فكان مثل جذر ميت متجمد لا تؤثر فيه فؤوس الأيام — أقول هل يكفي ثلاثة أنفار لأن يسووا أرضا مساحتها ثلاثة عشر فدانا مرتفعة عن مستوى الأرض المجاورة بثلاثة أمتار تقريبا — وذلك حتى تجرى فيها المياه جريانا طبيعيا — وهذه الأرض مليئة بالجذور العتيقة الميتة والصخور القديمة — الى جانب أنها تكلست وصارت في لون الملح وتحتاج لغسل لعدة أعوام ولن أقول لعدة شهور — ان هذا عمل خرافي يحتاج لأناس كثيرين وليس لثلاثة أنفار ، ويحتاج لآلات كثيرة وليس الى ثلاثة فئوس •

وكان القدر يعاكسهم ويعاندهم اذ يعيد اليهم الشتاء أكوام الرمال ، التي حملوها بعيدا ، في عربات الرياح ثم يسكب فوقها مدرارا من المطر فيجمدها كالصخور ، وتتهدم القنوات التي شقوها ، وتمتلىء القناة الكبيرة التي تمدهم بالماء العذب بالرمال وكانوا قد شقوها فور انتقالهم الى البيت الجديد ، فيضطرون الى تعميقها ثانية وتقوية سدودها ، واقامة سور عال حول الحديقة ناحية الجزء العاري والذي تحمل منه الرياح أكوام الرمال الى حديقتهم ، ولكن كان ذلك كله دون طائل — وصارت المسألة واضحة تماما أمام أعيننا ، فلقد كانت هذه المسألة ببساطة تحديا مريرا بين الجنون الانساني ولن أقول الارادة الانسانية — ممثلا في العجوز وولديه — وبين الطبيعة القاسية التي لا تعرف الهوادة أو المهادنة أو الاستسلام ممثلة في هذه الحديقة •

وكان أهل قريتنا مثل متفرجين يشهدون مأساة تمثل أمامهم فأمسكوا أنفاسهم ولاذوا بالصمت — أقول الصمت مرة أخرى يا سيدي الدكتور — وكنت أنا بين هؤلاء المتفرجين أشد قربا من هؤلاء الممثلين الثلاثة أرى مأساتهم من زاوية خاصة ، من نافذة ضيقة فتحتها أمام عيني المصادفة وحدها • وكانت الفتاة تذوب هي أيضا — أسرع من الولد الأكبر — رغم انها لا تعمل في حديقة العجوز — فكأنها تعمل في حديقته الميتة هي أيضا وتستنبت في أرضها البيضاء المتكلسة أملا ميتا ، تستنبت أملا في أرض المستحيل ، وكان الفارق بينها وبينهم انها كانت بمفردها ، أما هم فكانوا ثلاثة ، وكانت حديقتهم ثلاثة عشر فدانا أما حديقتها فبلا حدود ، كما كانت حديقتهم مليئة بالجذور الميتة الغائرة في الأعماق أما حديقتها فكانت مليئة بالأيام الميتة الغائرة في الماضي وفي الحاضر ولا أمل في أن تورق يوما ما • كما كانت آمالها أشد جنونا من آمال العجوز فحديقتها ملك لها وحدها هي والولد الأكبر ولكن حديقة العجوز ربما صارت الى الولدين أو الى الدائنين والمرابين أو أي أناس آخرين — وهي تسقي حديقتها المجدبة من دماء قلبها ودموع عينيها وأيام ربيعها وأحلامها الذابلة — ولا تني تحفر وتعمق قناة الأمل بعد أن تردمها رياح الشتاء الدائم —شتاء بعد شتاء— فلقد صار ربيعها شتاء مستمرا لا يعرف غير الغيوم والأمطار والرياح والليل الطويل • فكان ايمانها بحديقتها أشد ضراوة ويأسا من ايمان الثلاثة مجتمعين • كانت حديقتها هي وجودها الانساني الحقيقي — وجودها الأصيل •

وكلما مرت الأعوام ازداد المتفرجون صمتا — وكان صمتهم عميقا حتى صار رنين ابرة يشبه في آذانهم كدوي قنبلة عنيفة — وازدادت الأيام صمتا حتى صار كل شيء سواء كان عاديا أم غير عادي مثل المفاجأة المتفجرة • لذا كان موت الولد الأصغر مفاجئا عنيفا ، له وقع شديد على نفوسنا ، وكأننا جميعا كنا ننتظر مثل هذا الموت حتى نهتز له ،

وكأننا جميعا كنا ننتظر نهاية لهذه اللعبة الطويلة العنيفة .

وكأن هذا الموت فتح للناس بابا فتدفقوا منه الى عالم العجوز الغامض ، وراحوا مثل أطفال عابثين يطأون بقسوة الأشجار الصغيرة فى حديقته الوهمية ، وحاولوا أن يضعوا حدا لهذه الحماقة الأنسانية وذلك بقوانين العقل ، فقد كانوا يعتقدون ان العقل يستطيع أن يبنى العالم الحقيقى ، عالم الحقيقة ، ولكن كان عالم الجنون وقوانينه ، عالم العجوز وآماله ، أشد صرامة وحقيقية من عالمهم جميعا ، فازداد بعدا وتفردا وبعد ان كان يظهر فى سوق القرية أو فى الجامع أو فى الساحة التى نجلس فيها فى الليالى المقمرة من حين لحين ، انقطع مرة واحدة وبتصميم غريب . وبعدا ان ايقظ موت الولد الاصغر مشاعر الناس ودفعهم لان يحاولوا ويفعلوا شيئا للوقوف امام عالم عجوز ، خمدت مشاعرهم ولاذوا بانفسهم وبعوالمهم المتفردة الرتيبة ، عالم كل يوم ، وركنوا الى الصمت ، الصمت العميق ، مرة أخرى .

وصار كل شىء بعد هذا ممكنا ، فلو صعد العجوز مئذنة الجامع وأذن فى الناس لصلاة الظهر فى منتصف الليل لصدقه الناس — وهذا أيضا أحد الاشياء التى تحيرنى فى الطبيعة البشرية يا سيدى الدكتور — فلماذا عالم الوهم والجنون واللا تعقل أكثر اصالة ورسوخا من عالم الحقيقة والعقل ؟ — لماذا عالم الليل أكثر قوة وسرا من عالم النهار الواضح ؟ .

واكتشف الناس بعد عدة سنوات اختفاء الولد الاكبر وقد بلغ به العذاب والهزال والصمت مبلغا لا يصدق وصفه على انسان . لا أحد يعرف متى اختفى غير العجوز وحده . والعجوز لا يجيب اذا ما سئل عن ابنه الاكبر — كان يلوذ بالصمت — وكانت عيناه المتوهجتين فى سالف الايام تصمتان عند هذا السؤال — نعم يا سيدى الدكتور كانت عيناه تصمتان — ألا تعرف صمت العيون وهو اعمق من أى صمت آخر وقال الناس ان الولد هرب من جنون ابيه وهذا شىء طبيعى جدا — بل لقد احس الناس بشىء من الراحة والسرور لهروب الابن .. احسوا بأنه يهرب من عالم ابيه المجنون اللا متعقل ، الى عالمهم الذى يحكمه العقل ويصنع له قوانينه ، عالمهم الذى تعودوه وصاروا يستطيعون التنفس فيه بحرية .

وفجأة ، صار الناس يبتسمون بسخرية مريرة حينما يرون العجوز او يذكره احد فى مجلس أو حديث . فقد احسوا ان الماساه انقلبت الى مهزلة يحكمها العنف لا اكثر ، واحسوا ان عالم العجوز الذى كان يهدد عالمهم بالتفسخ قد بدأ يتشرخ ويتساقط ، وصارت النهاية معروفة للجميع ومنتظرة من آن لآخر ، ليس الا ان يكتشفوا ذات يوم ان العجوز قد مات . ورغم قسوة هذه النهاية المحتملة والمتوقعة فانها لا تعطيهم الاحساس الحقيقى بان عالمهم هو العالم الحقيقى والمعقول والاصيل .

وكنت انا وجدى الذى يمسك بطرف المصادفة فى هذه المأساة ، أقول انها مأساة رغم ان الآخرين اعتبروها مهزلة بعد حادث فرار الولد الاكبر ، فلو كان الولد الاكبر قد هرب حقيقة لأخذ معه الفتاة بشكل من الاشكال فلن يكون لهروبه معنى من المعانى دون فتاته التى يحبها ، بل ليس هناك دافع حقيقى واحد يستشف من الهروب سوى امله فى زواجه من فتاته .

وهنا ، أدركت ادراكا حادا ان القدر يخبىء مفاجآته الكبيرة وربما الاخيرة فى مأساة العجوز . ومثل كلب ضل طريقه فى سوق فأخذ يتشمم اثار الاقدام المتشابكة ، الاف الاقدام ، ليكتشف اثار قدمى صاحبه ، رحت اتشمم آثار الولد الاكبر فى عيون الناس الصدئة ، التى اكلها اللا مبالاة ، حتى عثرت عليهما فى عينى الفتاة ، فى صمت عينى الفتاة ، فى ليل عينى الفتاة .

واستمر العجوز وحده فى العمل فى الحديقة ، يزيل تلال الرمال البيضاء ، ويحفر القنوات ، ويرمم السور ، ويعمق القناة الكبيرة ، ويخلع الجذور الصماء ، ويغسل الارض ، ويقاوم الرياح ايضاً .

اعتكف ببيته فترة بعد اختفاء ولده الاكبر ، ثم عاد مرة اخرى ، وفى عينيه صمت اشد حدة وقسوة وعمقا — غريب ان يحارب الانسان المستحيل بالعمل بالاصرار ، بالصمت ؟ .

ورأيت الفتاة ذات مرة تساعد العجوز — كانت ترتدى ثوبا اسود قاتما — لم يدهش أحد لعمل هذه الفتاة فى حديقة العجوز ، أو لأية فتاة اخرى فى نظرهم . فلم يكن لهذه الفتاة بالذات أى معنى خاص يرتبط بحكاية العجوز ، رغم ان تلك المساعدة جديرة بأن تثير أعمق التساؤلات وأغرب الشكوك ، فهل نجح العجوز أن يقنع انسانا آخر بحلمه

المجنـــون ، بحديقته الوهمية ؟ هل يزحف عالم العجوز على عالمهم ويزيله فردا فردا ؟

ولكنهم رأوا الحكاية من أبوابها المفتوحة • ورأوا ان العجوز مهما بلغ به العناد فانه يحتاج لانسان — أي انسان — معه ، حتى يموت وينهى هذه اللعبة المملة ؟ ولكنى أنا أدركت عنف الوقع الحاد لعمل هذه الفتاة فى حديقة العجوز • أدركت حدة هذا العنف بأذنى المصادفة !! هل تبحث هذه الفتاة عن حديقتها المفقودة فى حديقة هذا العجوز المجنون ؟ ليس هناك أى تفسير آخر • أو على الأقل لم أر أنا أى تفسير آخر لهذه المسألة •

وفوجىء الناس — ألم أقل لك يا سيدى الدكتور ان كل شىء فى عالم الصمت يبدو كالمفاجأة المدوية — أقول فوجىء الناس ذات ليلة مطيرة بانسانة تدق أبوابهم فى منتصف الليل • استمرت تدق الأبواب فى أنصاف الليالى والأمطار تهطل ، والقمر طالع ، والرياح تعوى ، والليل ساكن سكون الموتى ، لقد فقدت عقلها ، لقد عثرت هى والعجوز على الولد الأكبر ميتا فى بئر مجهول كان مختفيا كالقدر فى قلب الحديقة • عثروا على حفنة من العظام البيضاء ملقى الى جانبها تعويذة كانت قد صنعتها له فى أول حبهما • لماذا لم تمت التعويذة أيضا ؟ — هـــذا ما لا أدريه — ولا أدرى أيضا من أين حصلت الفتاة المجنونة على ثوب أبيض ، ناصع البياض ، بدل ثوبها الاسود القديم — هل تحتفل لنفسها بعرس. همى •• بعرس أبدى ؟!

لقد أطلت عليك يا سيدى الدكتور — ولكن هانحن أولاء قد اقتربنا — هل ترى حديقة العجوز ؟ هى تلك التى تراها مرتفعة هناك — مازالت مرتفعة فى تصميم — لا ، ليس فيها شىء غير الجذور العتيقة الصماء — وذلك البيت المرتفع هو بيته — أرجو ألا تكون قد ماتت • فها هو ذا اليوم الثانى الذى تعانى فيــه من آلام الولادة — لم تستـطع « الداية » أن تولدها رغم انها عجوز وتتقن عملها — لقد ولدت نصف القرية — لقد كانت تعمل معـه فى الحديقة الملعونة رغم حملها — لعل الجنين غير مكانه الطبيعى فلابد وانه مجنون مثل أبيه — نعم يا سيدى انها زوجته — زوجة العجوز الجديدة — ماذا كنت تظن ؟ — انه عجوز مجنون لا يعرف المستحيل أو اليأس أو الشيخوخة — لقد كنا ننتظر موته ولكنه كالخرافة يولد مـرة أخرى — كالأمل الانسانى .يتجدد مـرة أخرى — لقد تزوج فتاة صغيرة عاقلة — عاقلة وهذا هو الغريب فى المأساة — هـل يضحكك هـــذا يا دكتور ؟ — انه يعدنا — صدقنى يا دكتور — انه يعدنا بأن ينجب عشرة أولاد قبل أن يموت — ويعدنا أيضا وهو يخرج لنا لسانه ساخرا بانهم سيعملون معه لانشاء الحديقة •







تعقيب على قصة الحديقة

بقلم : محمد عبدالحليم عبدالله

مؤلف سبق أن قرأت له ٠ لم اقرأ له الكثير لكن فاصلا زمنيا يقع بين ما سبق وبين ما قرأت الآن ٠ رأيت المؤلف بعد هـذا الزمن وقد زاد طولا وعرضـا وعمقا ٠ كأننى تركته فى الخامسة عشرة ورأيته فى الخامسة والعشرين ٠

وكان قبـل ذلك يميل الى الأفكار العميقة المجردة الواقفة وحدها بين سطور القصة بلا اندماج ولا تعامل ٠ مثل الخال على الخـد ٠ وربما كان الخال فى ذاته جميـلا لكن فى بعض المواقف لا يكون كذلك ٠

والمهم أن ضياء الشرقاوى قد تطور ٠ أصبح قادرا على امساك القلم بثقة ٠ لا يفصله اول العمل عن آخره ولا تشغله (الفكرة) عن (الفنية) بل لعل (الفنية) هى التى تبرز (الفكرة) او لعل (الفكرة) هى التى تجعل (الفنية) أكثر اشراقا ٠٠

هذا ما أستطيع أن أقوله عن كاتب القصة ٠

أما عن القصة التى أمامى (الحديقة) فممكن ان يقال فيها كلام كثير ٠ فقد أدخلنى كاتبها فى عالم متناقض : كثير الصخب كثير الصمت ٠ عاقل الى حد التفلسف مجنون الى درجة التخبط٠ ايجابى الى درجة السهر سـلبى الى نومة أهـل الكهف ٠ واقعى ؟! ٠٠٠ لا أظن ٠ رمزى ؟! ربما كان الجواب بنعم ٠

فشخصية العجوز والحديقة شىء محير فعلا ٠ أحيانا أكون معه وأحيانا لا أكون ٠ رجل يحـاول قهر الطبيعة القاسية ويعيش على حلم ليس رديئا ٠٠ حلم أن يعيد الجنة المفقودة الى الأرض التى تكلست ٠ لكن ٠٠٠ اذا كان هذا العجوز مجنونا حقا فكيف استطاع اذن أن يقنع ثلاثة عقول شابة فيهما رجلان وامرأة ٠ ثم كيف استطاع ـ وهو العجوز المجنون ـ ان يتزوج حبيبة ابنة الذى مات واكتشفف جثته عظاما نخـرة فى قاع بئر فى الأرض البوار ؟

اننى حين اناقش هذه الشخصيات على ضوء الأدب الواقعى لا استطيع ان اقتنع بها ٠ لكننى اذا اعتبرتها رموزا فاظن ان وطاة النقاش تخف نوعا ما ٠ على حين أنه مفهوم ان الرمز اذا تناقض فى عالم من بقية الرموز فى القصة كانت ترجمته أيضا الى (واقع) لا تخلو من التناقض ٠ لذلك فان قانون التوافق الذى يحكم الرمز فى القصة لا يقل صراحة ـ ان لم يزد ـ عن عن قانون التوافق فى عالم القصة الواقعية ٠

لذلك فاننى افضل ان تكون هذه القصة رمزية لأنه لا يمكن أن يكون هناك ممثل هذا فى عالم الحقيقة ٠ خصوصا بالنسبة للفتاة وبالنسبة للقرية تلك التى تنظر الى هذا المجنون نظرة مجنونة بالتالى يؤيد ذلك قول المؤلف : « فلو صعد العجوز مئذنة الجامع واذن فى الناس لصلاة الظهر فى منتصف الليل لصدقه الناس » ولعل المؤلف استكثر هذا على نفسه وعلى الناس فأردف ٠٠ « وهذا أيضا احد الاشياء التى تيرنى فى الطبيعة البشرية »

ولعل المؤلف نسى أن عالم كل انسان هـو فى الحقيقة عالمـان اثنان ان لم يكن عدة عوالم ٠ فلو صح هذا بالنسبة للقرية والعجوز وصدقه النـاس فى كل شىء ظاهرا فلا شك أنهم ينكرون عليه باطنا ٠ وهذا ليس تصديقا لأن الايمان ياتى من الداخل الى الخارج وليس العكس دائما ٠

ثم كيف تنكر القرية عليه عمله فى الحديقة الخربة وهـو هذا الذى لو اذن بالليل لصلاة الظهر لصدقه الناس ٠ وانا شخصيا استبعد وجود مثل هـذا النوع من الخلق لانه ليس مجرد رفع اليد بالسلام يؤكد ان هناك سلاما بين اثنين ٠

على ان جو القصة جو « كحولى » يمتص الاحساس الواعى ويبعث بالخدر الواعى أحيانا والمضطرب احيانا والكاتب قادر على أن يبث بين سطوره ما يحمل على التامل : « كم يدفع آلاما ودموعا لمسائل ليست مسائلنا وقضايا ليست قضايانا ولكننا نرتبط بها بروابط خفيـة وثيقة » ٠٠٠ « كانوا يعتقدون ان العقل يستطيع أن يبنى العالم الحقيقى ـ عالم الحقيقة ـ ولكن كان عالم الجنون وقوانينه اشد صرامة من عالمهم جميعا » ٠٠٠

شجرة التفاح عفيفة ليست مثل شجرة الموز التى تحب أن تكون غارقة ليل نهار فى الماء مثل عجوز مخمور » ٠

وهناك ومضات كثيرة فى هذه القصة القصـيرة لا تقل عن وميض الماس تحت المصابيح ٠ هزتنى واعجبتنى ٠ وان كنت حائرا فى هذا الجو الذى غمستنى فيه القصـة ٠ جو العجوز المتجبر الذى يريد أن ينجب أبنـاء كثيرين ويخرج للناس لسانه سخرية واغاظة ٠ هؤلاء الناس الذين لم افهم هل هم يحبونه او يكرهونه أو يخافونه ٠ لكنهم يصدقونه ٠

ولعل قارىء القصة يقول عنى : لماذا لم يفسر الشخصية؟ لأن القارىء نفسه سيتحير فى تفسيرها ويرى من حقه على ـ هو والمؤلف ـ أن افسرها له ٠ وعندئذ اقول مجتهدا (فان اصبت فلى اجر وان اخطات فلى اجران) اقول :

لعل الكاتب يقصد بها : اما الاسـتعمار واما الأقدار ٠ لعله هذا ٠

هوامش...

بقلم : حمدى أبو الشيخ


حمدى أبو الشيخ

أنا فتحية أحمد المصرى « أم السيد » كما ينادينى الزبائن والأهل والجيران وزوجى عبد المطلب أيضا .. عمرى بالضبط لا أعرفه ولكنى أعرف أنى لم أكبر أو أشيخ ، فمنذ سنوات قليلة مضت أنجبت طفلتى الصغيرة « هنية » ومنذ ساعات قليلة أيضا كنت أجلس أمام طشت غسيل واسع ممتلىء وأتيت على مافيه من ملابس فى ساعتين أو أقل .. ومنذ أكثر من عشرين عاما عمر ابنى الأكبر «السيد» وأنا أقوم بهذا العمل بنشاط وقوة يؤكدان رغم مايتركه العمر من بصمات أنى مازلت فى شرخ الشباب .. زبائنى فى المنازل من السيدات المرهفات ينظرن الى ذراعى المشمرتين فى اعجاب ، فلم أطلب واحدة منهن لتجلس أمامى تساعدنى فى غسيل الملابس مهما كثرت أو نشرها بل كفيلة دائما بأن أفعل ذلك وحدى كل يوم فى منزل أو منزلين .

فجأة أحس بدمعة ساخنة تطفر من عينى .. هل المرض يقهر البنى آدم الى هذا الحد ويفعل به ما لا يمكن أن تفعله عوادى الزمان .. يسقط الدمع من عينى التى لا تعرف الدمع أبدا .. هبط الليل فسقطت تماما تحت وطأة الألم .. منذ أن عدت من الخارج واستكنت فى الدار وانتهيت من أعمالى المنزلية الصغيرة .. بدأ التعب يغزو جسدى ويحتل

خلاياى واحدة واحدة .. ويسرى من جزء لآخر فيدك قواى .. لكنى تماسكت قابعة خلف جدار الحجرة وسندت ظهرى الى الوراء وأرخيت ساقى أمامى ومددت بصرى من خلال الضوء الخافت أتفحص وجه ابنى « السيد » وقد عاد منذ وقت قصير من سفريته الى القاهرة باحثا عن عمل بعد أن نال الدبلوم منذ أكثر من شهر .

كان وجهه جامدا وسحنته راكدة آسية..وشفتاه مغلقتان .. وانتزاع كلمة من بينهما أمر عسير .. منذ أن جاء فى آخر قطار هذا المساء لم أسمع منه غير التحية رددها بلا وعى .. ثم ألقى بجسده الى الأرض جالسا قبالتى ولم يكن قد انتزع قميصه أو سرواله .. فلم أشأ أن أحادثه .. فالحقيقة انى لا أفهم شيئا عن الشغل والوزارات والأوراق وهذه الأشياء الطويلة المعقدة .. فقط كنت أتوق الى أن أرى فى وجهه بارقة أمل .. ولكنه ظل ضنينا حتى قام من مكانه صامتا ثم تمطى وبدأ يخلع ملابسه .. وانبثقت عن ثغره بسمة خفيفة فى وجه أخته الصغيرة « هنية » التى استيقظت فجأة فجاءتنا من الحجرة الثانية وقد أحست بمقدم أخيها وكانت قد نامت بعد العشاء وقد احتجزنا لأخيها العائد نصيبه من الطعام .

كانت الليلة ليلة صيفية .. هبت موجة من النسيم الرائق خارج المسكن الذى يقع فوق سطح واحد من المنازل القديمة لكنه عال وخلوى..نفذت النسمة الينا من خلال الكوة الصغيرة المفتوحة فارتعش ضوء المصباح المعلق على الجدار ثم انطفأ فساد الظلام..كان القمر محتجبا خلف كومة من السحاب المتراكم تناثرت فجأة فى رذاذ خفيف .. أردت أن أغادر مكانى لأجمع قطع الثياب المنشورة حتى لا تبتل ، غسلتها بعد عودتى قبل أن تغرب الشمس فلا يعقل أن يذهب « السيد » الى مصر بملابسه متسخة ويصدق على المثل بان « باب النجار مخلع » فقد غسلت خلال هذا اليوم ذاته ثلاثة غسلات فى ثلاثة بيوت وكل منزل له ثلاثة حبال طويلة .. ربما حدث ذلك للمرة الأولى أن أجلس أمام الطشت يوما كاملا .. لكنى كنت مضطرة الى مزيد من العمل .. فقد اتفقت منذ أول الشهر مع ثلاثة بيوت جديدة حتى أحصل على بعض النقود الزائدة تعادل مصاريف « الولد » الذى يجرى كل يوم يمينا وشمالا فى البحث والمسعى .. فليس من العسير أن أشقى شهرا أو شهرين كى أستريح بقية العمر .

خذلتنى قواى .. وعجزت عن القيام من مكانى لجمع الثياب .. قلت « للسيد » أن ينهض عنى وقد أحس بأنى تعبة مجهدة .. وان كان هو الآخر — مسكين — يرزح تحت وطأة جهد شديد وكأنه قضى نهاره كله فى طاحونة لا بداية لمدارها ولا نهاية .. سيعود لها فى الصباح مرة أخرى .. قال لى ذلك .. فمتى يكف عن الدوران .. دعوت له من قلبى. سكن كل شىء حولى .. طفرت الدمعة من عينى



.. والحمى تكاد تصرخ بى .. أنا « أم السيد » .. أشعر بكل هذه الرغبة الشديدة الى الرقاد .. هل يمكن للنوم أن يمسح عن وجهى عفرة النهار الطويل .. والبس الى الليل الهادىء لأستريح بعد يوم شاق .. على أن أستيقظ مبكره فى الصباح .. فالزبائن يحبون أن تطلع الشمس فوق الغسيل المنشور وأن تمتص الملابس شمس الصباح البنفسجية .. وأكثر من ذلك أن زبائن الصباح الجديد. زبائنه جدد « سيعرفوننى لأول مرة ولابد من التبكير اليهم ولو مرة واحدة على الأقل وبعدها تفرج .. فقد لا أعود اليهم مرة أخرى .. قربت أيام الراحة أن تجىء .. وتنقشع السحب .. ويسطع القمر .. وتكف السماء عن البكاء .

لكن الآلام لا تعرف الراحة وتستيقظ حين تلمس أقدامها الأرض .. وتلمع عيونها الشريرة فى الظلام الدامس .. الليل قارب أن ينتصف وأصوات الكائنات قد غابت فى المضاجع خلف الجدران .. لكنى لم أنم .. فى ذراعى حز الطشت .. طشت أم ماهر .. أو طشت أم سمير .. أو طشت «المدام» .. فى كل اصبع من أصابعى جرح ينفر فاه .. وينفث الحمى فى عروقى .. تسرى فى الجسد أصداء الآلام والندم لايجىء ولا أعثر عليه فى مكان وكأنه تائه فى أغوار جرح .

منذ شهر واحد كنت أمنى النفس بآمال عريضة .. نجح « السيد » فى الدبلوم وآن الأوان لاستريح .. فالسيد أكبر الأبناء وأكثرهم تدللا .. لكنه طيب وابن حلال قال لى يومئذ والفرحة تسطع من عينيه .. لن تذهبى بيتا واحدا! .. ستنالين المرتب كله وليس لى فيه سوى نصيب ضئيل .. لن أستطيع أن أسد الدين يا أمى .. برد الصباح القارس .. الشتاء والزمهرير .. الثوب المرتوق الوحيد فوق الجسد .. القيظ المحرق حين يأتى الصيف .. والجروح التى لا تلتئم سريعا فى الشتاء .. آه من الجراح .. تئن حين يأتى ذكرها .. الساعة قاربت الواحدة صباحا والكلاب المسعورة تعوى فى الأصابع والذراعين والساقين ..تمددت الآلام فى الجسد كله .. وصدى نباحها يرن فى كلا جنبى .. فأتقلب على كل جانب دون جدوى .. واستصرخ النوم الضائع أن يجىء فقد يبتلع كل هذه الآلام .. لابد أن أستيقظ فى الصباح .. كم تمنيت أن أنام حتى التاسعة .. سوف يأتى الشتاء قريبا .. منذ أكثر من شهر وأنا أحلم بالضحى والشمس تفرش السطح فأمد ساقى وأعريها تحت شعاعاتها الرائعة وأظل هكذا كما أشاء وقد أشغل نفسى



بتربية بعض الكتاكيت وأهش عنهم الحداة والصقور .. وأربى بجانبهم الكتكوتين الصغيرين « رمضان وهنيه » وبين يدى كل شهر عدد من الجنيهات لن أصرفها كلها بالطبع .. فلابد أن أقتصد منها جزءا .. فالسنين تجرى وتلهث وسوف يأتى اليوم الذى يطلب فيه « السيد » زوجة ولا يمكن أن يلومه أحد فى ذلك الوقت .. أشياء جميلة رائعة .. لابد أنه يحلم بها الآن فى نومته .. اننى أسمع شخيره من خلف الباب .. أنه مرهق مكدود تحمل الأعباء فوق كاهله صغيرا .. أمثاله مازالوا يلعبون فى الشوارع أنا أذكر يوم ولادته وكأنها الأمس القريب .. لكن الأيام تتوالى ولا نعرف كيف تمر . لكنه رغم المتاعب كلها عثر على النوم .. حمدا لله .. مازال طريق سفره طويل .. لكن الليل أكثر طولا .. الظلام يكتنف العالم كله .. يطل على من الكوة الصغيرة المفتوحة عاريا متجها جامد القسمات مثل وجه «المدام» الجاد المكشر حين تلقانى فى الصباح يوم الغسيل مصرة على أنى تأخرت وأن الناموسية كحلى وأن غسيل المرة السابقة لم يكن نظيفا لأن ورائى أكثر من غسلة أخرى .

ماذا أفعل فى الزبائن الجدد .. كيف أستطيع أن أصحوا مبكرا ولم يبق غير وقت قصير حتى يطلع الفجر .. الجراح مازالت تصرخ وتولول .. وجسدى يزداد ثقلا فوق الأرض .. وأحس بوزنى يتضاعف وكأن الآلام أيضا كثيفة ثقيلة .. هل شخت دون أن أدرى وابتلع الطشت عصارة شبابى وذابت مع الصابون ثم انسكبت فى أكثر من بالوعة .. متى

تسللت الشعرات البيض الى رأسى .. لا أعرف .. رأيتها فجأة وأنا أمشط رأسى ذات مساء .. لكنى طمعت فيما بقى من العمر .. « السيد » يقول بحماس شديد انه سيعلم أخويه كما تعلم هو .. سوف يضيف نقوده الى بعض النقود التى يعود بها أبوه أحيانا فالأربعة جنيهات لا تزيد عن طعامه وشرابه وثمن الشاى الذى يشربه فى الطريق وهو على ظهر العربة النقل التى يعمل حمالا عليها.. لكنه أحيانا يختصر مطالبه ليحضر معه بعد جولته الأسبوعية بضعة قروش .. حينئذ سوف أستريح من زمهرير الشتاء وهجير الصيف وأمكث فى الدار فى انتظار عودة رمضان وهنيه من المدرسة وقد أعددت لهم الطعام وغسلت ما اتسخ من ملابسها فهى لا تحتاج أن تغلى ثم تغسل ثلاث مرات حتى تبيض كى تصبح مثل قمصان « الخواجا » لكن على أى حال سيذهب الأولاد الى المدرسة نظافا مثل باقى الأولاد .. متى يجىء هذا اليوم .. أشياء كثيرة تعذبنى وتطفو سطح رأسى ولا أستطيع أن أفتح عينى المثقلتين بالظلام رغم النوم الذى ضل السبيل اليهما .. ولا أدرى كيف تؤرقنى هذه الأشياء وأنا التى أقول « للسيد » كل صباح .. لا تفكر فى شىء .. أريد أن أكمم هذه الأفواه التى تتحدث رغما عنى .. أريد ساعة أو ساعتين من النوم لعل الجراح تسكن وتهدأ .. انى أحس بأرجوحة تتذبذب بى يمينا ويسارا فهل قارب النوم أن يطفو على سطح الجراح فأمسك به .. فى الصباح ثلاث غسلات أيضا .. ليس بينهما ساعة راحة لابد أن أبدأ فى السادسة .. لكنى لن أفعل .. تكفى غسلة واحدة أو اثنتان ، وبعدها تفرج.. سيحتاج السيد الى مصاريف كثيرة .. ثلاثون قرشا فى كل سفرية .. لكن من يعرف .. ربما يعود غدا بخبر سار وتنتهى الأيام العصيبة الخانقة فى فال طيب فانى أسمع عن بعد بواكير الفجر تصدح لها الطيور فى الأعشاش المجاورة .. لكن شفتى لا تفتر عن دعاء .. يكفى أن يدعو القلب .. لا ليس القلب فقط .. كل حواسى وأطرافى وجراحى اليقظة الساهرة والسنتها الطويلة التى أسكتت لسانى .. لا بد من أن يجاب الدعاء .. ولن تذهب المتاعب هباء .. فلابد من رصيد ضخم لها فى السماء .. اذا لم يكن لنا فلمن اذن .. كم ليلة قضاها « السيد » ساهرا حتى الصباح أمام المصباح الغازى الصغير وهو يستذكر .. لقد عانى كثيرا .. الليل طويل لا آخر له .. وانتظار الصباح وهو يعزو جحافل الظلام الفاشمة شىء يقصر عنه الصبر وتنوء به الأجساد حقا كنت أصحو بالليل بين الحين والحين وأرى عينيه تلمعان بالعزم والمقاومة لكن النوم كان يسرقنى بالساعات .. يابنى ياحبيبى..هل تؤرقك الآلام مثلى هل أنت جريح وجراحك تؤلمك .. ان يديك لم تعرف غير الكتاب .. أم أن جراحك من نوع آخر .. تقول لى دائما لن تذهبى الى منزل أحد .. وأقول لك لبيك .. لن أذهب مرة أخرى الى المنازل .. مافات قد فات .. وكل شىء يهون حتى تصل الى ما تريد .. نم هادئا .. انى أسمع سعالك فأستيقظ وكأنى كنت نائمة .. فلست أدرى هل أنا فى يقظة أو نوم .. عيناى مغمضتان ووجهى منكس الى الارض .. وذراعاى ترقدان تحت جسدى .. وفوق ظهرى ثقل كبير وكأن سطح الحجرة قد أناخ على وكأنى أصبحت بين شقى رحى ضخمة تدور وتدور فى رأسى فانقطع عنى كل ماغداها من أصوات .. وانضغمت الثرثرة والهمس .. وضاع صياح الديكة وتلاشى صوت المؤذن الجهورى من أذنى .

* * *

ليلة طويلة ساهرة حتى الفجر .. وجراح تئن وتنزف .. فعلت بى ما فعلت .. كنت أظن أن ساعتين من النوم قد تضمد الجراح وتخرس الألم .. وتسكت الألسنة والنباح .. لكن النوم أيضا قد تواطأ مع الأعداء فاقتسموا جسدى قطعا.. الرأس فى ناحية..والذراعان فى ناحية والساقان احداهما قد تورمت بشدة واحمرت .. وبقية الجسد يلتصق بالأرض هامدا بلا حراك .. كان ضوء النهار قد بان رغم الشمس المختفية خلف بعض السحب المتراكمة رأيتها من خلال النافذة المفتوحة .. لكن يبدو أن النهار قد تأخر « فالسيد » قد خرج الى قطار التاسعة لم أحس به ولم يقل لى شيئا فهو لا يعرف أن ورائى تسعة حبال مشدودة كان يظن أنى خالية فتركنى لاستريح وهو لا يعرف أنى

هامدة مشلولة وأن قواى قد هربت فى الظلام خلسة ·· وكنت اليـوم فى حاجة اليه ·· فهـل كنت استبقيه ؟؟ دمعة تطفر من عينى والحمى تصرخ بى أنا فتحية أحمد المصرى « أم السـيد » أريدك أن تعود الليلة ياحبيبى مستبشرا فقد أتحامل على نفسى وأرفع جسـدى من الأرض وأتطلع الى وجهك حتى لاتدرك وهنى وضعفى فهى ملمة سوف تزول وليس من المحتم أن أعكر صفو هنائك ·· سوف أقول لك انى متعبة قليلا ..الجراح القديمة تتآمر الآن وقد تثور .. سوف تهزمها أنت بيديك .. انى أثق بك وأرى « رمضـان وهنيه » فى عينيـك ·· هذان الكتكوتان الصغيران مازالا نائمين ·· حتى هـذه الساعة ·· كنت أسبب لهما القلق كل صباح حين أصحو مبكرا ويظلان هائمين حتى أعود ·· قومى يا هنيه ·· سوف تشبعين نوما بعد ذلك ·· قومى يا هنيه.. الباب الخارجى الهش يهتز تحت طرقات متعجلة ·· وألمح من خلال ألواحه المتباعدة البالية جلبابا حريرا لطفلة صغيرة ·· ماذا تقول يا هنيه ·· ارفعى صـوتك يابنت ·· هى سـهير بنت الباشمهندس·· تقول ماذا·· لايريدون أن يغسلوا ·· لماذا ؟؟ لأنى تأخرت تأخرت كثيرا ·· لقد أتوا بغسالة أخرى ·· فلا داعى لذهابى ·· ماذا قلت لها يا هنيه ألم توافقيها ·· هل قلت لها أن أمى لن تذهب لكم ·· مازالت نائمة ·· هل قلت لها ذلك ·· ماذا قلت يا هنيه ؟؟





بقلم : يوسف جوهر

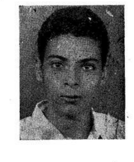
هذه قصة مقنعة ينـاى بك سياقها عن الملل ، ويضعك امام موهبة متفتحة ·· كلنا رأينا الغسالة فى بيوتنا ·· وما اكثر من شعروا نحوها شـعورا يختلف عن شعورهم نحو الغسـالة الأوتوماتيكية ·· ولكن كاتبنا ينبض قلبه وفكره بحب الأنسان للانسان ، ويستطيع بحسه المرهف ان يدخل الى حياة أم السيد ، ويعايشها ، ويكابد ما تكابده ، ويدرك انها تموت على مهل وهى لا تدرى ·· فى سبيل الولد الذى تريده ان يتعلم ويسعد ·· وفى سبيل الزوج الذى لا تجد فى نفسها السخط عليه لأنه ينفق ما يكسب على شايه وتبغه ·· انها أم الجميع ·· ذاقت التعب فهى ترحم المتعبين من حولها ، ولا يضيرها أن تشترى الأمل بالعذاب ·· الأمل فى ان يجد السيد الوظيفة التى يصبو اليها ·· ويعلم اخوته ·· وتجد فى يدها جنيهاته ، وتبلغ بكاتبنا الرقة انه يشعرك انها لا تريد هذه الجنيهات لنفسها وان ظنت ذلك ، والحقيقة انها تريدها للآخرين ··وان حلمها الجميل لا تمزقه بتاريخ الألم لأنها تؤمن « ان الدعاء لابد ان يجاب والمتاعب لها رصيد ضخم فى السماء » ·

والأخ « أبو الشيخ » بالغ الانفعال بماساة ام السيد ، حتى ينسيه ذلك ، احيانا انها هى التى تتكلم ويستبعد اسلوبها البسيط وطريقتها فى التفكير ، وينوب عنها فى التعبير ، ويعيرها بلاغته فتقول أم السيد الغسالة ان السماء لا تكف عن البكاء · وان الليل يغزو حجافل الظلام ·· والسنين تلهث ·· والعمر يترك بصمات ·· والتعب يحتل خلايا الجسد ·· والملابس تجف تحت شمس الصباح البنفسجية ولكننا فى مواطن آخرى نعود ونصغى لأم السيد شخصيا حينما تشتهى ان تمدد ساقيها فى شمس الشتاء ·· وحينما تقرر انها لا تفهم شيئا عن الشغل والوزارات والأوراق ·· وان الزبائن يحبون ان تطلع الشمس فوق الغسيل · وانها تحرص ان تبكر فى الذهاب للزبائن الجدد لابد من التبكير فى المرة الأولى على الأقل · وهذه « المدام » المتجهمة التى تتهمها دائما ان غسيل المرة السابقة لم يكن نظيفا ·· ثم شعورها ان شبابها ذاب مع الصابون فى الطشت ثم انسكب فى اكثر من بالوعة ·· الى آخر الصور التى تنم عن دقة الملاحظة والشفافية ·

انى اهنىء مؤلف « مؤامرة » وانتظر منه المزيد من الحرص على صحة العبارة وسلامة النمو ·· واتوقع منه الكثير من القصص الجميلة ·

الثلاث ورقات

بقلم : يحيى الطاهر عبد الله



- من مواليد الأقصر فى ٣٠ ابريل ١٩٤٢
- نشر فى «الكاتب» ، «روزاليوسف» ، « المساء » ، « الحرية » ، « الجمهورية »
- يقوم بالكتابة فى مجلات الأطفال بدار الهلال .
- أذيعت معظم قصصه من البرنامج الثانى لاذاعة القاهرة .
- أعزب

ـ « كانت تظن أن ملابسها .. » .. أغلق لترانزستور وتشاغل بقضم أظافره ، خالس الرجل ونظر اليها .. كانت .. ضغط الأصبع فهب صوت المذيع .

ـ « .. رياح شمالية شرقية تصحبها موجة باردة تستمر .. »

لم معطفه فى عجل وتابع السماع .

ـ « أسبرو صديقك .. أسبرو رفيقك .. دس يده فى جيب معطفه وتحسس .. ومع كلمات المعلق انفرجت أساريره .

ـ الرشح .. الزكام .. نزلات البرد .. أحذر عدوك .. باستعمال .
أسبو .. »

لم تكن بالعربة نافذة مفتوحة ـ أغلقها حال ركوبه بالشيش والقزاز . ما بينهما .. ما بين الشيش والقزاز .. تسلل الخارج .. رجال تروح .. رجال تجىء .. ويخلفون البصمات . الابد لاصق بأرضية العربة والكراسى . أعمدة نور قائمة كالرجال على طول الطريق .. تلوح بالأذرع فينفر فى العروق الدم ، الأحمر ويلهب الثور ، والريح يلهبه الدم

النافر فى عروق الرجال .. وما بين الشيش والقزاز تمتد أذرعتهم .. تطاردها ريح الشر فتنفر العروق ويطفر الدم . ويهوى المضرب فتنتفش أكوام القطن ـ ليصبح كل شىء واضحا ـ عيون للقطن .. وذرات للهواء .. وبصمات بيضاء ميتة على الكراسى وأرضية العربة ـ ليبدو الكل واضحا ـ الزيت للطبخ والعلف لثيران الرجال .

فى محطة « قنا » توقف القطار وركب الرجل ـ قبله بما تحت اللحظة ـ ركبت المرأة وركب معها آخر ـ لم ينتظر القطار كثيرا ـ سلم عليها مرافقها وفتح النافذة بعجل وسقط فى الخارج .

ـ « .. فى بنى سويف حتلاقيه منتظرك .. هيه يا مصرية .. »

جرى مع القطار مكملا .

ـ « .. يمكن تكون معاه عيشه .. قولى لعبد النبى مشتاقين .. أوعى » .

غاب صوته وأغلقت هى الشباك بالشيش والقزاز وجلست «مصريه» قبالته .. ما أذهل « رجاء عمر هاشم » وجود الآخر ـمتى .. كيف ؟.. ما لايدريه ما يعرفه أنه ركب قطار الشلال من محطة الاقصر.. ركب القطار واختار مكانه ولم يكن بالعربة غيره . فى محطة قنا توقف القطار وركبت امرأة . كان معها آخر وذهب .. ذهب تاركا شوقه لعيشه وعبد النبى ـ معرفا رجاء عمر هاشم لمصرية .. ذهب تاركا مصرية لرجاء . لم يكن بالعربة سواه . ما يدرى . وما كان حقيقة . وما كان بالحالم .. هذا الرجل القصير السمين لم يكن موجودا . ووجود هذا الرجل السمين القصير قلب كل شىء . ورغم أنه لا شىء هناك ـ الا آن وجود هذا السمين القصير ليس بالمريح .. عيون مطفأة فيها شىء ـ أى شىء ـ ربما تاجر غلال . ساعة جيب مدلاة على حائط صدره . عباءة أمبريال أصلى ـ هكذا يسمونها فى ريف الصعيد ـ وبهذا يعرفون مرتاح الحال . وكما يقولون : « .. جاك الشوم .. كى الغيمة .. » .. كالمصيبة .. كالغائمة كان الرجل . لم ينطق بكلمة .. بحرف . والجائز والممكن .. أنه لم ينطق فى حياته كلمة واحدة ـ كما لم يناغ طفلا وان داعب شاربه ـ وتلك قد تكون مهمتـه الأبدية . رجل غامض كالسر . خالس مؤلفه البوليسى وربما قتله ـ بضربة ساحقة من قدمه تطايرت ضلفتا الكتاب ثم تباعدتا فى صرير مخيف .. وانفتح باب القلعة .. واندفعت ريح نتنه خبيث عملاق قذفت بالرجل الى هنا . واحد من رجال شيكاغو لولا ملامح مصرية وعباءة نفضها والتف بها متمددا بطول المقعد مستـندا الى فخذيه كالكاتب المصرى القديم . قد يكون متخفيا . كما قد لا تقوم لظنون « رجاء عمر هاشم » قائمة . عندما يسقط القناع يظهر الرجل . قد لا تكون له بالمرأة صلة ـ عندها ـ يراها رجاء يغرس عيونه فى تقاطيع مصرية ويعتش عن شىء ـ أى شىء يمتص هذا الفراغ .. صدأ النحاس وصداه يولولان بالفراغ فى الفراغ وتتلوى روحه ويمتلىء المنخر . ينحنى ويطبق على ما بين الكتف والعنق ويفرغ أنفاسه ويلقى بما فى منخريه .. وينشق ريح المرأة . ريحا مندى مخلوطا بالعرق . للأنثى .. لكلهن ريح مندى مخلوط بالعرق طعمه لغز لم يحل بعد . طعم لم يذقه .. غير الذى ذاق فى الكتب . بلا زعاق معلن ولا مساومة بائع ولا دورات عشر حول سـور الأزبكية ـ الجنس بلا أستاذ يفنده ـ من غير دفع ولا تقدم ـ سيتقدم ـ ينحنى ويغرس شفتيه ما بين الـكتف والعنق .. ويتدفق الدم حارا .. وتولول المرأة .. ويصحو الرجل يهب كالشيطان ـ « دراكيولا أيها الملعون » .. يمد ذراعه ويجمع حقل ثوم فى حزمة ـ يسحق ما بين كفيه كحجر الطاحون ، حقل ثوم ، ويدفسهما ما بين فتحتى المنخر .. وينتفض جسد رجاء وتفارقه الروح . و .. سعل الرجل . فانتفض رجاء .. وردت اليه روحه . لم ينظر الى الرجل السـمين القصير وما كان بجرؤ ـ كفاه أن روحه لم تفارق جسده ، ويكفيه أن يسترد أنفاسه . تمنى لو أدار الراديو . وانطلق محلقا فى سموات الست « ثومة » سابحا فى البعيد .. بعيدا عن الوجود .. عن الارض والناس وكل ما هو حى طويل أو قصير .. يبكى وينهنه على صدر الحنان .. على ألا يفرط فى عينيه ـ فهما ـ يرى تيتى .. ولتيتى يعيش . كفاه ست شهور عاشها بعيدا عنها . اقتلع من القاهرة قلب الحياة لينزرع فى الصعيد كملاحظ عمل .. ستة شهور كان فيها كالنبات الشوكى .. جذر قصير ولا ثمر . ملاحظ عمل بمصلحة الآثار . بلغة المصلحة « سواق أنفار » . رجال بعـدد الحصى . يرفعون الهراوات ويضربون الارض .. يحملون حفنات تراب من مكان لآخر .. فقط حفنات تراب وهذى مهمتهم .. يلقيها الرجل منهم وهو يلهث . بعد مشـوار وآخر يغافله ويستلقى تحت ظل ـ ينشطر صدره الى نصفين ويلهث .. ينهره رجاء فينوح كامرأة .. ويشكو حيث لا مبرر للشكوى .

ـ .. أصلى تعبان يابيه ـ والله تعبان .. بلاش

تخصم من اليوميه .. أبوس رجلك .. دول تلاتة وأمهم .. حبل فى رقبتى .

رجال حالهم هكذا لا يساقون . ليسوا فى حاجة لمن يسوقهم . ليسوا شيئا يفرض على رجاء كعمل . ويأتى به من القاهرة للصعيد ليسوق هؤلاء . عمل رجاء ليس بعمل . لا قيمة فيه .. ستة شهور . يا للقسوة يا للسفلقة . لم يفعل شرا فى مخلوق .. حتى هؤلاء .. لم يفعل شرا ليفرشـــوا له ثمانى ساعات بينه وبين القاهرة . ثمانى ساعات كاملة عليه أن يقضيها فى قطار الشـــلال مع هذا الرجل السر وهذه المرأة ليصل الى تيتى . كما قضى ستة شهور فى لا عمل . يصحو فى السادسة صباحا .. يتناول افطاره فى استراحة المصلحة مع المهندس ومفتش الآثار . بعدها .. يتمم على الأنفار .. أيام يركب المهندس والمفتش العربة ويهبطان البر الغربى يبقيـــان لما بعد الظهر . حسب طول الفترة التى يغيبانها أو قصرها .. يرجع هو ويأخذ حقه من النوم ومع الأنفار يترك « أحمد أبو مجاهد » . هذا الاحمد أبو مجاهد كان يظنه غبيا . ما أن يدير له ظهره حتى يجمع العمال حوله ويغنى بصـــوت قبيح وبالكره يسمعون .

ــ بقه انته يازناتى عملت ع القوم فارس . حولت بر تونس خرايب . خلاص رجعت لك أنا أبو زيد . لم يتركه مرة مع الانفار الا وبدأ من هنا وانتهى من هنا . كانوا يسمعون غصبا فهو الذى يملك وحده قسرهم على العمل من بعده . ضربه مرة بالقلم فاحنى رأسه فى خزى .. وطعم هذا الخزى كان يحســـه رجاء عندما يذهب المفتش والمهنـــدس بالعربة الى الاقصر ــ يقضيان الليل فى « ونتر بالاس » ويأتيان آخر الليل . المفتش الشيخ يستند على زراع زوجته الشابة وزوجته الشابة تستند على ذراع المهندس الشاب . ولليل ستائر وحرمة « الله أعلم بما تحجب الجدران » كانت زوجة المفتش كبطة برية .. تطير هنا وهناك وتطير العقل . حتى عقل رجاء طار وتمنى لو تسبح فى بركته . نسى تيتى وأهمل نساء كتبه تمنى لو مثلا معا هو وهى فلم الوسادة الخالية .. أو خذنى بعارى ــ لكنها ــ كانت شيئا آخر ــ حتى غير تيتى ــ غير تيتى بكثير . جهود الكوافير وحدها تستحق مرتب والد تيتى فى مصلحة البريد . كان وحده مع الانفار . تيتى بالقاهرة وهى فى الجنينة على كرسى منامة ــ بنظارة وفستان بلا أكمام ومجلة فرنسية ــ على جبينها فراشـــات . وهو وحده مع رجال كأعواد الكبريت. يستندون تحد ظل ويلهثون

تنشطر صدورهم الى نصفين ويلهثون . عندما ينهر رجاء واحدا منهم يبكى كامرأة . ينوح ويشكو حيث لامبرر للشكوى . رجال كهؤلاء لا يساقون.. رجال كهؤلاء لا نساء معهم . حتما فالنساء يعبدون الرجال والعافية .. من هنا لم ينظر رجاء لامرأة من حريم هؤلاء .. ومن الجائز أنه لو طلب منهم ــ من الجائز فهو قادر ــ لكن رجالا كهؤلاء لانساء معهم . أما ان تكون معه امرأة وبينه وبين القاهرة ساعات يحركها قطار الشلال .. أن تكون معه امرأة وعربة بلاركاب ــ الا ــ هذا ــ ثالثهم ــ الغامض كالزوج ــ كالمجهول الخالد .

سبح بعينه فى العربة متجنبا نظرات الرجل . جاهدا ألا يظن به نيات حسنة أو خبيثـــة فى العثور على المرأة . فوقه لمبات خابية تهتز مع القطار .. ضوء أفرغ فيـــه الطبيب محقن الدم .. على الكراسى والارضية أصابع بيضاء ميتة بصمها الخارج متسللا من الشيش والقزاز . حاول فتح شـــفتيه فأغلقهما الجفاف .. أطبقهما فتعثرتا فى الجفاف .. الداخل قرضته أسراب الجراد . لا أخضر ولا يابس .. الراديو لا أمل .. كانت تظن .. ملابسها كانت بيضاء تظن .. أومو .. تايد .. ساعة تيتوس . أسبرو يقتل الصداع .. هاء .. هاء .. هاء .. ويضحك الولد .. يستلقى على ظهره .. يلوك الاب كلماته .. يهرسها جيدا ويخرجها ممطوطة .. هم .. هم .. هم .. مالك ياله ــ يرد الولد ــ البدلة الجديدة يابا ــ البدلة الشعبية ــ يضـــحك الاب . .. بطنه .. رأسه .. الافين ؟ ويقوم المتفرجون جميعهم ليذهبوا لشركة بيع المصـــنوعات . ويقفل صاحب المقهى التليفزيون ــ هو حر .. ملكه ــ كل حر فيما يملك ــ رجاء حر فى أن يقفل الراديو ــ ولكن الراديو يتكلم والمذيع لا يسكت والشاشـــة لا تنطفىء والتليفزيون يشع ــ والمسئول هذا الجالس قبالته ــ الرجل الغـــامض كالسر .. غرس داخله بالمزراق فانفتح وسال كل شيء واختلط . تركه تائها حائرا فى داخله .. لداخله ــ بعد لحظة سيجن .. يصرخ .. يزعق بعلو الحس . ليس معقولا أن يجالس شانون ويأكل مع الهارب من الايام ويتناول شريحة لحم من عظم دجاجة خلفها عويس أبو ضب ــ ليس معقولا ــ أن لا يلين هذا الرجل قسماته . سيصرخ فيه رجاء .. سيصرخ فى الفراغ .. ينحنى للرجل .. يقبل قدميه .. يركع تحتهما ــ أرجوك . من فضلك .. تكلم .. ابصق .. انطق .. كالمذيع تماما .. ليس مثله .. لم أقصد .. أعنى .. اياك اياه .. أنت هو .. هو أنت .



(٢) الشايب

وقفوا بينه وبين ابنه « كالسد » الذى يسمونه « مركز قنا » .. وأقسموا جميعا على المصحف ـ أنه ضرورى وضرورى جدا وجود « مركز » بين «البندر» و « العاصمة » .. لكنهم لا يفهمون .. يعرفون فقط ـ لهذا وقفوا فى وجه القطار الذاهب الى العاصمة حيث ابنه « محمود » .

ـ .. أبعث له جواب يا أخى .

ـ .. بلدياته وياه فى السكن .

ـ يعنى لو كان هناك مشغولية .. بقليله واحد منهم يبعت جواب .

نعم ـ « عبد الصابر » و « الهادى النوالى » . « محمود الساكت » و « عبد الحكيم الرقاص » لا يفهمون .. فقط يعرفون .. كلامهم يقول ذلك .. والرجل كلمة .. هو لا ينكر أنهم يعرفون البيضة كما يعرفون الحجر .. كما يعرفون أيضا اللعب بالبيضة والحجر ـ لكنهم لايفهمون ـ ان الابن أيضا بيضة وحجر .. كما هو لعبة أبيه .. الابن بيضة « كاكا » لها الرحم . قال الرحم « كاك » .. فمشت الحرارة كالدم الذى هو ماء فى جوف العيدان .. اشتعلت النار وغلى الماء واستوت البيضة . لمها الأب بين جوانحه وأعطاها دفء حياته ففقست الكتكوت .

والحق لقد كان ابنه « محمود » فى صغره كتكوتا .. يمشى بقدمين ويضرب بجناحين ويصوصو فى « الآه والهيه » .

ـ ماليش دعوة عايز بنطلون .. مفيش فلوس لكن عايز بنطلون ـ بابا جاب بنطلون هيه .. هيه .. هيه .

كلهم يعرفون ـ القرية كلها تعرف ان « مجاهد أبو دراع » علم ابنه فى مدارس « البندر » ـ أعطى ابنه الارض ـ مع بداية كل عام كان يعطى ابنه فدانا ـ لم يبع أرضه ولكنه أعطاها لابنه ـ أعطاه العمر ليتعلم كانت السنة تمر على الأرض لتغطى المحصول ـ وكان «مجاهد أبو دراع» ينتظر المحصول ليعطى ابنه سنة جديدة ـ وبجهود « مجاهد أبو دراع » يعيش ابنه « محمود » الآن فى العاصمة ليأخذ « الشهادة الكبيرة » ـ لو توقف مجاهد أبو دراع لتوقفت حياة ابنه ـ ولو فقد ابنه الحياة لما نال « الشهادة الكبيرة » . بعد الشهادة الكبيرة فقط يواصل ابنه الحياة .. وقد تتوقف ومؤكد ستتوقف حياة « مجاهد ابو دراع » ـ ويبقى محمود ابنه ليبحث عن البيضة .. عن الفهم ـ الذى هو كلمة الرجل ـ الكلمة التى هى نار وماء ـ تحت ضلوع « محمود » ترقد البيضة ويخرج الكتكوت ـ بقدمين بجناحين ، بلون النجمة بلون الأرض بلون النيل ، بلون الغيمة . وكما يفهم « محمود » سيكون « ابن محمود » .. تماما كما يفهم « محمود» ـ لكن « محمود » ابن « مجاهد ابو دراع » ما زال يسير فى طريق الفهم ـ وللفهم دروب .. وقد اختار « مجاهد » لابنه درب «الشهادة الكبيرة» وأمام « محمود » عامان كاملان ليصل الى نهاية الدرب ويفتح الباب ويدخل الدار فيكاكى الأولاد .

ـ بابا جه .. بابا جاب .. بابا عاد .

عامان كاملان ـ لا أحد فى القرية يعرف أنهما عامان كاملان ـ لا أحد غيره يفهم أنه سيعطى فدانين .. لكل عام فدان .. لا أحد يفهم أنه يجاهد ليعطى

ابنه عامين . فدانين .. فالفدان عام والعام فدان . لو قال هذا لقالوا « مجنون — ولو عرفوا أنها نهايته وأنه يجاهد ليموت ويعيش ابنه .. لتفقس البيضه ويكاكى الكتكوت . لو عرفوا البيضة ورموه بالحجر وصرخوا بالطول والعرض .. مجنون .. مورستان .. خانكة » .

— ابعت جواب له يا أخي .

— بلدياته وياه في السكن .

— لو كان فيه مشــغولية كان واحد منهم بعت جواب .

لقد أعطوا لمجــاهد « الحجر في يده — لــكنهم لا يفهمون — كسر كل منهم بيضته — لكنهم لا يفهمون ســيضربهم بالحجر الذى أعطوه ويصرخ بالطول والعرض .. مجانين .. مورستانات .. خانكة .

ولدى « محمود » ماء ودم .. خمســة وعشرون سنة .. ماء ودم .. كتكوت في بطن البيضة في رحم الفرخة .. فقس بين ضلوعى منذ خمسة وعشرين سنة .. كان بقدمين بجناحين وأصبح بجهودى رجلا بعد عامين سيقول الكلمة — الــكلمة رجل . الآن فقــط نبت له ما ينبت للرجال وما ينبت في قدم السائر من نشع الأرض وشوك « الهلوك » .. في الجفاف طفولة الرجل — صباحه الذى طلعت شمسه منذ لحظة — تتبعها لحظات .. « دقائق .. ساعات يوم .. سنة .. خطوة في الطريق الى باب الدار ويكاكى الاولاد » : بابا جاب بطيخة .. البطيخــة طلعت حمرة .. بابا اداني شريحة .. الشريحــة طلعت حلوة .. هيه هيه ..

خمسة وعشرون عاما . قضى في البنــدر عشرة أعوام وفى العاصمة ثلاثة — والباقى اثنتــان .. تلتاشر سنة بتلتاشر فدان . ولكي يقابل ابنه لابد من أن يسير « مجاهد » تلتاشر سنة .. تلتاشر فدان — وتكون المقابلة — بعد أن يفور الدم والمــاء تحت النار فتتشقق القدم .. ومن الشق يبرز « الهلوك » صلب الاشواك . ومن صدر « محمود » يبرز شعر الرجل وينغرز في صدر « مجاهد أبو دراع » ومن ذقن ابنه من عرضها وطولها الذى هو خمسة وعشرون سنة يبرز الرجل وتسرى الحرارة في الاعواد وتلتهم لنار المحصول — وبفور الماء ويفور الدم ، هنا فقط سيطمئن « مجاهد » على ابنه محمود — عندما يتنفس ابنه الحرارة والماء والدم — سيفهم أن ابنه حى لم يمت ، سيتأكد انه لم يبع تلتاشر فدان .

وليتهم يفهمون — ولكنهم يعرفون فقط — أبدا لن يفهموا أن السنة فدان وان الفدان سنة والبيضــة كتكوت والولد كتكوت .

ويقسم « مجاهد أبو دراع » ان أهالى « بندر قنا .. مركز قنا .. محــافظة قنا » يعرفون فقــط ولا يفهمون — لذلك فهم « مجانين .. مورستانات.. خانكة » يعرفون البيضة والحجر ويلعبون أيضا بالبيضة والحجر .

(٣) البنت

— في بنى سويف تلاقيه منتظرك .

« عبد النبى مستنظر .. في الايد حبل وفى العب سكينة .. اليوم .. يجى والساعة تجرى والقمرة نطل وتغيب .. والعجلات تدور وتنشال وتنحط وتنشال بلاد وتنحط .. والقطر يا مصرية يشيلك من قنا ويرميكى في بنى سويف .. يرميكى للظن « لعبد النبى » أخوكى .. ابن أمك وأبوكى منتظرك .. زى الوعد .. كلمة البلد جواه .. اللى مايساوى كلمتــه في عب عبد النبى .. وعين عبد النبى في



التراب وفى التراب حكايتك وعلى التراب خطـاوى
ــ والحرام حد قده ٠
ــ الستر يارب ٠
« والقطر شايل تراب قنا فى عجله ٠٠ والتراب على كتفك وريحته جواكى » ٠
ــ يمكن تكون معاه عيشه ٠
« يمكن ويمـــكن ٠٠ يارب ٠٠ ياعبد ٠٠ قلبك يا عبد ع العبد هين ٠٠ وأنا مصرية بنت أم مصرية عبدتك يا عيشة ٠٠ الستر ياعيشة ٠٠ آخ ياعيشة لو طمس المسطور قلبك ٠٠ لو عملتى ودن من طين وودن من عجين ٠٠ لو قفلتى قلبك بمليـون ضبة وألف مفتاح » ٠
ــ قولى لعبد النبى مشتاقين ٠
« وأنا مشتاقة لعبد النبى ٠٠ أخويا مشتاقه له ٠٠ ومشتاقة لعيشه ٠٠ مشتاقة لكم تنهشـــونى وترموا العيب من جواى ٠٠ أرتاح ٠٠ ترتاحوا ٠٠ مش ابنى ٠٠ دا كلمة الناس فى عبى ٠٠ كلمـــة يتجرى جوايا ٠٠ مالت الشفايف على الودان وهمست ٠٠ وشوش الزرع بعضه ٠٠ ونزل الليل ٠٠ البلد كلها طرحة سودة وكلمة سودة ٠٠ البنات سبلوا رموشهم ٠٠ والرجال صبغوا عمايمهم » ٠
ــ والحرام حد كده ٠
ــ الستر ع الولايا يا رب ٠
ــ واحنـــا مالنا ٠٠ كل غراب ينعق على خراب عشه ٠

٠٠ ح أحميك ٠٠ ح أقفل ودنى ولا أسمع ٠٠ نن عينى أنته ٠٠ ضنايا حبيبى ٠٠ أصونك فى بطنى ٠٠ وتكبر مع كلمتهم ٠٠ وتشق بطنى وتطلع ٠٠ يقابلك الليل الاسود والكلمة الســودة ٠٠ الانس نايم والجنى صاحى ـ قدام باب الدار عوى الكلب ٠٠ اتكوم ع الفرش جنبى ٠٠ عوى ٠٠ قلت : « لأ ٠٠ لأ ٠٠ لأ » ٠٠ قفل ودنة وخرس لسانى ٠٠ زام ٠٠ وزام الكلب بره الدار ٠٠ زام وهمد ٠٠ وهمدت أنا ٠٠ عينى فى الارض ٠ وعلى الارض دمعتين ٠٠ وعلى الخد دمعتين ٠٠ شهر ٠٠ التانى ٠٠ التـــالت ٠٠ واسودت الكلمة ٠٠ رميت اللقمة ٠٠ حتة بسبوسة ٠٠ غصب عنى أديت البراح ٠٠ عايزاك يا ضنايا ٠٠ لو عشت تعيش ٠٠ لكن للحيطان ودان ٠٠ والنجم « فتان » ٠٠ والكلمة يا خدها البق ويسلمها « لبق » والنجم سيار يجرى مع القطر ويقول لعبد النبى :
« من قنا جات مصرية ٠٠ وفى بنى ســـويف انتظرها ٠٠ انتظرها يا عبد النبى بالحبل والسكينة ٠٠ وتعالى يا بنى سويف ٠٠ مشتــاقة لأخويا ٠٠ مشتاقة » ٠



بقلم : يوسف الشارونى

الفكرة جديدة ولها طرافتها ، ومجرد عثور الفنان على فكرة جديدة جيدة اول توفيق له ينبنى عليه كل توفيق آخر ٠ فالعمل الفنى الذى يقلد لا يضيف شيئا وبالتالى فهو يولد ميتا مهما زركشه صاحبه ٠

من عالم الكوتشينة ، العالم الذى للحظ فيه نصيب كبير ، الى عالم الناس حيث جمع الحظ بين ولد وشايب وبنت ٠٠ تلك هى الفكرة الأولية البعيدة للقصة ٠ اجتمع الثلاثة فى قطـار قادم من الشلال ٠٠ اقصى نقطة فى جنوب مصر ٠٠ كل منهم منطو ، منعزل عن الآخر ، لولا أن الولد ـ ولسبب فنى ـ يقدم لنا من خلال رؤيته الورقتين الاخريين : الشايب والبنت ، فالولد هو وحده الذى ينتقل مابين عالم الخارج : القطار والشايب والبنت ، وعالمه الداخلى ٠ اما الشايب والبنت فمعزولان تماما ٠ وكان لهذا أثره فى اسلوب كل قسم من اقسام القصة الثلاثة ٠ فى القسم الأول ، حيث يتداخل العالمان الخارجى والداخلى ، نجد الكلمات تتداخل ، ولهذا فاننا نقرا اول جملة على هذا النحو ، كانت تظن ان ملابسها ٠٠ اغلق الترانزستور وتشاغل بقضم اظافره ، خالس الرجل ونظر اليها ٠٠ كانت ٠٠ ضغط الأصـبع فهب صوت المذيع ٠

وهكذا قدم المؤلف فى هذه الجملة الافتتاحية شخصياته واسلوبه فعرفنا ان هناك بنتا وولدا ورجلا ، لكننا لم نعرفهم من خلال قواعد المنظور اى من خلال وعى يقظ يضع الحدود الواضحة بين كل ادراك يتلقاه ، بل من خلال درجة اقل وضوحا من الوعى ، لعلها درجـة بين الوعى واليقظة حيث المرئيات لا تختفى تماما أحيانا ويهيأ للقارىء انه يغمض احيانا اخرى ٠

ولكن الأسلوب قد يغمض لسبب آخر ، ذلك هو استخدام الكاتب لكلمات عامية فى السرد ، يبدو انها ترتبط به هو عاطفيا ، وان كان ليس لها نفس الدلالة او اية دلالة اخرى عند جمهرة قراء العربية ٠ وما دام الكاتب قد خطا خطوته الأولى فى العبور نحو الآخرين عن طريق رموز اللغة ، فيجب ان يستمر فى مغامرته التى بداها فيستخدم من الكلمات مالها دلالة فى اوسع دائرة ممكنة لجمهور قرائه ، والا اصبحت قصته لنفسه وبالتالى ما كان هناك مايدفعه الى كتابتها اطلاقا ـ من ذلك اصرار الكاتب على

استخدام كلمة « القزاز » بدلا من الزجاج واستخدامه تعبير : الا فين ، أو قوله : لقد كان ابنه محمود فى صغره كتكوتا ·· يمشى بقدميه ويضرب بجناحين ويصوصو فى الآى والهيه · وليس الاعتراض على استخدامه هذه الألفاظ اذا كانت هناك ضرورة فنية كحرص الكاتب على أن يضفى لونا محليا على قصته ، ولكنه يمكن أن يوحى فيما بعدها أو قبلها للقارىء بمعناها · وقد فعل الكاتب ذلك فى قصته ، مثال ذلك قوله : « عباءة امبريال أصلى ·· هكذا يسمونها فى ريف الصعيد » · أو قوله : « وكما يقولون : « جاك الشوم ·· كى الغيمة » · واذا كان على الكاتب أن يجدد ، فليس عليه ان يقطع الجسور بينه وبين القارىء · لأنه كما ان القارىء يمل الأسلوب القديم المعاد فانه ينصرف أيضا عن الغريب الذى لا يفهمه · ان الفن الناجح هو الذى يستطيع ان يقيم توازنا بين المؤلوف والشاذ بحيث لا يكون أحدهما ·

الولد اسمه « رجاء عمر هاشم » ركب من محطة الأقصر ، البنت والشايب ركبا من محطة قنا · من الأقصر الى قنا لايسمح لنا المؤلف بالاطلاع على العالم الداخلى لرجاء ، فقط ابتداء من قنا ، وبدخول البنت والشايب رؤياه ، يرى المؤلف أن هناك عالما داخليا يستحق ان يطلع عليه قراؤه ، فبمجرد اجتماع الثلاثة وانصراف كل منهم الى اجترار همومه ، أصبح هناك مجال للتهكم على هـذا التجمع الظاهرى ، الذى انغلق عليه شيش النـافذة وزجاجها والانعزال الباطنى الذى استغرقه اصحابه ·

ومن سلسلة تداعى افكار الولد تعرف الكثير عنه ، فهو أولا شيق ، يعيش فى فراغ ، عمله ملاحظ عمل بمصلحة الآثار ، يجتر بمرارة خزيه أمام رئيسه ، ثقافته مستمدة من الاذاعـة والتليفزيون والروايات البوليسية ·

أما الشايب « مجاهد أبو دراع » فليس فى شعوره أو هامش شعوره الا ابنه ومايتفقه عليه من محصول الأرض كل عام كى يتعلم · وهو حريص على التفرقة بين الفهم والمعرفة : الفهم موقوف عليه اما المعرفة فهى فى متناول أهل قريته ، ابنه هو الزمن ، والزمن هو ابنه : الماضى والحاضر والمستقبل ، ولهذا فلئن كان التداخل فى القسم السابق أساسا بين عالمى الداخل والخارج ، فانه فى هذا الجزء يتم أساسا بين أزمنة الزمان الثلاثة ·

أما البنت « مصرية » فيؤرقها هم أفدح واخطر · وعنـدما يقحمنا المؤلف فى عالمها الداخلى ندرك أن للقطار وهو يندفع من اقصى الجنوب الى أقصى الشمال دلالة تختلف عند كل ورقة من الورقات الثلاث · فهو بالنسبة للولد حلم جنس موضوعه البنت وتهيب مر من التمادى فى الحلم بسبب وجود الشايب · انه حاضر ، ولهذا شمل وعى الولد وجود البنت ووجود الشايب ، ولهذا تداخل العالم الداخلى والعالم الخارجى · انه ليس قطارا قادما من ··· ولا قطارا متجها الى ·· بقدر ما هو قطار متحرك فى الحاضر · يقـول المؤلف : « ثمانى ساعات كاملة عليه ان يقضيها فى قطار الشلال مع هذا الرجل السر وهذه المراة ليصل الى تيتى » ·

أما القطار بالنسبة للشايب فهو ليس حركة بقدر ماهو صلة صلة فدادينه فى القرية بشهادة ابنه المنتظرة فى العاصمة على مدى السنوات الماضية والسنوات الباقية لتعلمه ، ولهذا توارى الحاضر ممثلا فى العالم الخارجى : القطار والولد والبنت ليصبح مجرد صلة بين الماضى والمستقبل · ولهذا أيضا ينتابنا الاحساس بأن « مجاهد أبو دراع » قطع هذه الرحلة من قبل وسيقطعها فيما بعـد · وأن الهدف منهـا أبعد من مجرد اتمامها كرحلة مستقلة ، فهى ليست الا حلقة فى سلسلة رحلات سابقة (تعبة) لأن وظيفتها هى استمرار الصلة بين الشايب وابنه ·· بين الديك والكتكوت ·

أما دلالة القطار فى حياة « مصرية » فهو الاندفاع نحو قضاء متربص ، ولهذا تفجؤنا هذه الجملة فى أول هذا القسـم : « فى بنى سويف تلاقيه منتظرك » ومما يضاعف من فداحة هذا القضاء أنه « مستعجل » كما يقال فى المثل ، فمصرية اول من يغادر هذا القطار وقبل ان تنتهى رحلته ·· ستغادره فى بنى سويف بينما الولد والشايب لن يغادراه الا فى نهاية الرحلة عند القاهرة · فالقطار بالنسبة لمصرية حركة الى ··· ولهذا كان المستقبل هو اهم ما يؤرقها ، المستقبل بمخاوفه أساسا وباحلامه أحيانا · الخوف يتمثل فى أخيها : فى اليد حبل وفى العب سكينة ، والحلم يدور حول الجنين الذى يثقل بطنها · ولفداحة ما يعانيه العالم الداخلى من تأزم لم تعد هناك فرحة للتنبه للعالم الخارجى من حين لآخر كما عند الولد ، ولا للتجول او حتى للقفز من الماضى الى المستقبل كما عند الشايب ، بل هى جمل قصيرة سريعة مرتبطة أشد الارتباط بصاحبتها ·

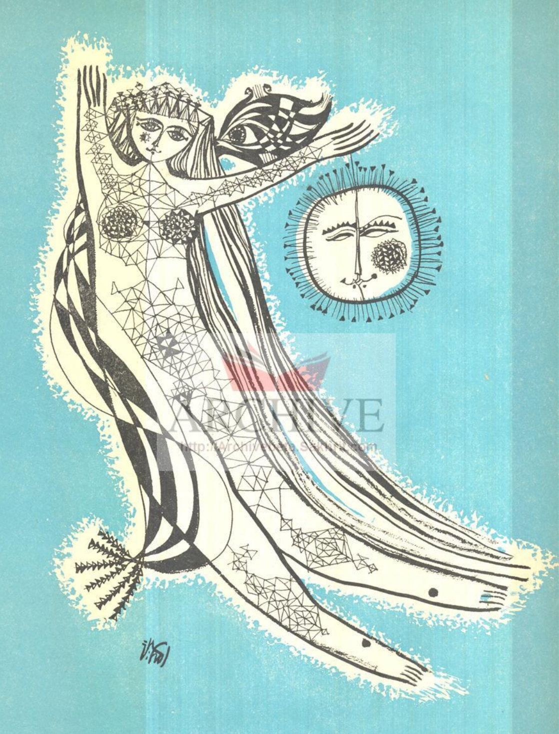
ولعله بهذا كان هذا القسم هو اقصر اقسام القصة ، ولعله لهذا أيضا مكتوب كله بالعامية فهو ملتصق بصاحبته الريفية · وكان يمكن للكاتب أن يجهتد قليلا فيعطينا ماتجتره « مصرية » من مخاوف بلغة يفهمها جمهور أوسع من قراءة العربية · فالفن ـ كما أعلن أرسطو منذ أكثر من خمسة وعشرين قرنا ـ لا يقدم لنا ما وقع بل ما يحتمل أن يقع · ويحيى الطاهر عبد الله لم يقدم لنا قطعا ما وقع من هؤلاء الثلاثة بل ولا ماوقع فى احدى رحلات قطار الصعيد ، بل مايحتمل أن يقع فى مثل تلك الرحلة من مثل هؤلاء الأشخاص الذين الف بينهم مؤلف اصر على أن ينبه الى ذلك فى نهاية القصة موقعا باسم المؤلف بينما توارى الكاتب يحيى الطاهر عبد الله بعيدا ·



من فنانى الطليعة المجـددين ٠٠ يعمل مدرسـا بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية ٠٠

عشق المدينة البكر الساحرة ، وهام فى أسرار بحرها الازرق ، وعاش بكل وجدانه في اعماقها ٠٠ فانتفضت ريشته تبدع صـورا من وحى عالمه الاسطورى الجديد ٠٠ وانطلق ينشد اهازيج الشعر المنثور ٠٠ ليؤكد بكل مواهب الفنان ٠٠ حبه للناس ٠٠ والحياة !!

قلبى يرقص ٠٠ كزغرودة ٠٠ فى زفاف عـروس(عروس البحر) ٠٠ وتنطلق ذاتى ٠٠ من قوقعـةالسكون ٠٠



اسكندرية فى لون السحب الأخضر
اسكندرية غانية فى دثار ٠٠ اسكندرية عاشقة ٠٠اسكندرية رطبة الخد ٠٠ عروس بحر ٠٠ عـــذراء بكر
مهرتها قلبى ٠٠ واحتوتنى ٠٠ لأننى طيب

ويتسال اللحن الى اعماقى ·· فوق أطراف الأنامل ·· ويغوص الى بعيد ·· ويعود ·· على صفحة البحر الكبير ··

افكارى كالموج ·· صاحية ·· صاخبة ·· صارخة تشد أعماقى ·· تعض قلبى
كقوي كمان في نغمة صبا ·· كخصلة تداعب جبين حبيبي



- من مواليد عام ١٩٤٠ .
- تخرج فى كلية الفنون الجميلة عام ١٩٦٢ .
- فاز بالجائزة الأولى للمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب فى القصة القصيرة عام ١٩٦١ .
- صدرت له مجموعة « عيش وملح » عام ١٩٦٠ بالاشتراك مع مجموعة من الأدباء الشبان . كما صدرت له مجموعة « أيام العز » عام ١٩٦٢ .
- تصدر له قريبا عن الدار المصرية مجموعة « المثلث الفيروزى » .
- اخصائى فنى بدار الثقافة بقصر النيل .
- أعزب .

ـ سيدة .. ألم تسمعى ؟
قالت دون أن ترفع رأسها :

ـ كل ياعواد وانت ساكت
ـ لن ألمسه قبل أن أعرف ..

فجأة أنزلت الطفل من على ركبتها وصاحت :

ـ يا أخى من عند الله .. انت لاترحم ولا تخلى رحمة ربنا تنزل ؟

ارتعش ضوء مصباح الجاز على الطبلية عندما هبت نسمة مجهولة المصدر .. صرخ طفل واشتكى لأمه من أخيه الذى خطف ليمونته المخللة .. لاحظ عواد مزقا جديدا فى جلبابه عند الحجر .. كان رأسه تحت المصباح تماما .. يغمره الظلام .. أخذ يلملم المزق بأصبعه ووجهه فى حجره .. قام فى صمت ودس قدميه فى حذائه البالى وغادر الدار.. يخترق ظلام الزقاق .

كانت أرنبة أنف الحاج شعبان تلمع .. وحدها .. وسط وجهه الغارق فى الظل .. فكر عواد (انه لم يكن يلاحظ أن أنفه بهذه الضخامة)

ـ هيه .. ماذا قلت ياعواد ؟
ـ أنا تحت أمرك ياحاج .. لكن ..
وعاد يلملم المزق فى جلبابه ..

ـ اسمع ياعواد .. هل تعرف لماذا اخترتك أنت بالذات ؟.. لأنك الرجل الوحيد فى هذه البلد .. هل تفهمنى ؟! الرجل الوحيد الذى أثق به ..

ـ لكن ياحاج .. حتى لو قبلت .. سينتهى الأمر فى ليلة .. وبعد ذلك ؟ سأعود الى البطالة .. و ...

ـ كم تأخذ يومية مع الأنفار ياعواد ؟ اثنى عشرة قرشا ؟ هه ؟



وكم يوما تشتغله لكى تجمع خمسة جنيهات .. هه ؟ شهرا ؟ شهرا ونصف ؟ أليس كذلك ؟ لكننى سأعطيك الجنيهات الخمسة فى ليلة واحدة فقط .

توهجت المسبحة الفسفورية فى قبضة الحاج وهو يلوح باصبع واحدة فى الظلام .. وكانت الظلال كثيرة وباردة فى المضيفة الكبيرة التى رصت بجوار جدرانها مجموعة من الكنبات ذات الملاءات البيضاء

ـ خمسة جنيهات ياعواد .. خمسمائة قرش .. تسدد منها ديونك .. وتكسو نفسك والعيال .. وتملأ صوامعك بالغلة .. ثم تضع بعد ذلك رجلا على رجل ، دون أن تكون فى حاجة الى العمل ..

ـ لكنك ياحاج تعرف اننى طول عمرى لم آكل لقمة حرام .. وكل الناس تعرف ذلك وتعزنى .. ماذا لو .. لو عرفوا أننى الفاعل !

ألقى الحاج المسبحة فى حجره وضرب كفا بكف وهو يهتف :

ـآى !.. هـذا نفسـه هو السبب الذى جعلنى أختارك أنت من دون البلد كلها .. من المجنون الذى يفكر انك تفعل ذلك ؟ لن يشك فيك مخلوق ..أبدا أبدا .. حتى لو رآك أحدهم فلن يصدق عينيه .

وعاد فالتقط المسبحة وراح يطرقع بها فى الصمت الذى يطن بوسوسات غامضـة (تك ترك .. تك ترك ...) كزير يرشح فى اناء .

ـ أما مسألة الحرام والحلال .. فأنت مغفل .. انت ؟.. المسئول هو صاحب الشغل .. أما انت.. آى والله مغفل ! ألست تشتغل وتأخذ أجرا ؟ مالك فلا حساب عليك .. انت تشتغل فقط .. هىء .. حرام !!

ثم اعتدل فجأة فى جلسته ومد قدمه أسفل الكنبة يتحسس حذاءه وقال بلهجة حاسمة :

ـ هيا ياعواد .. لم يعد هناك وقت .. كن عند حسن ظنى بك .. ستذهب الآن .. وسيكون معك حمصون .. وسينتهى كل شىء فى ساعتين .

تراجعت البيوت القصيرة السوداء الى الخلف .. لم يعد هناك غير حفيف ثياب الرجلين وهما يندفعان وسط المزارع المظلمة . فقط من بعيد كانا يسمعان صوت ماكينة الطحين يتتابع رتيبا .. واهنا

كانا يسيران فى صمت .. تذكر عـواد انه لم يتناول عشاءه .. غامت نفسه فجأة عندما تذكر طعم اللقمة الوحيدة التى أكلها .. (لماذا رفض الحـاج شعبان أن يذكر لى صاحب القطن الذى سنقلعه ؟) .. ضرب حجرا صغيرا اصطدم بقدمه فطاح بعيدا (لكن ـ على رأيه ـ مالى أنا ؟ ان أعداءه كثيرون على أية حال .. هذا عيب الأغنياء) .

توقف حمصون وأمسك بذراع عواد .. أشـار الى حقل قطن ..

ـ أين ؟

ـ هنا ..

ـ قطن من هذا ؟ أليست هذه أرض أم كمال ؟ هز العجـوز رأسه فى صمت .. كانت عينـاه تلمعان فى الظلام .

ـ عم حمصون .. انت متأكد ؟

ـ لاتصح هكذا يابنى .. أخفض صوتك .. هيا لا تضيع الوقت .

ـ أم كمال .. كيف ! . ماذا فعلت له ؟

ـ يا بنى اخفض صوتك ستفضحنا . هذا شأنه هو .. علينا التنفيذ فقط .

ـ لكن هذا حرام .. حرام ياعم حمصون .. ماذا

فعلت له ؟ آه ٠٠ ألأنها رفضت أن تتزوجه أو تبيع له أرضها ٠٠ من أجل هذا ؟

ـ ياعواد أسكت الله يسترك ٠٠ هيـا نبدأ ٠٠ الوقت يسرقنا ٠

جلس عواد على طرف القناة الجافة ٠٠ راح يفرك قطعة من الطمى بأصابعه ٠٠ مرت الدقائق ثقيلة ٠ جلس العجوز بجواره يفح فى أذنه بالهمس ٠٠ تناول قطعة أخرى من الطمى ٠٠ (ماذا يكون طعم الطمى ٠٠ ؟ ليته يجربه ٠٠ لن يكون أسوأ من طعم الخبز الذى ذاقه الليلة ٠٠) ٠٠ سحق قطعة ثالثة ٠٠ ورابعة ٠٠ ثم قام فى صمت وخلع جلبابه ٠٠ وكان صوت ماكينة الطحين يسمع بوضوح فى أنحاء الحقول المظلمة ٠٠

كان المؤذن فوق المئذنة يسبح للفجر عندما فتح عواد باب البيت ودخل ٠٠ طابور الآدميين مرصوص ومتلاحم فوق (قبة) الفرن ٠٠ دس نفسـه بجوار زوجته التى شعرت بمجيئـه الآن فقط ٠٠ رفعت رأسها ثم نهضت جالسة تفرك عينيها ٠

ـ جئت ياعواد ؟

كان يعطيها ظهره ٠٠ أغمض عينيه وتكور تحت الغطاء ٠٠ مالت عليه حتى صـارت أنفاسها تلفح أذنه ٠

ـ عواد ٠٠ قم ياخويا ٠٠ العيش من بيت أمى٠٠ ليس من أحد غريب ٠٠ قم ياخويا وبكره تتعدل٠٠

انتبهت كل حواسه ٠٠ أوشك أن يستدير ناحيتها (أين سمع ذلك من قبل ؟ انه قريب ٠٠ دافىء ٠٠ على طرف الأذن ٠٠ على طرف اللسـان ٠٠ آه ٠٠ وكان الوجه يضحك ٠٠ وبياضه يخطف ببياض طرحة الصلاة حوله ٠٠)

(أقعد ياخويا ٠٠ أتعشى مع أخوك كمال ٠: نعم)

تجمد فى موضعه قبل أن يستدير الى امرأته ٠٠ شىء ما جعله يرتعب من أن ينظر فى وجهها قال من تحت الغطاء :

ـ أنا أتعشيت ياسيدة ٠٠

فى ضحى اليوم التالى كان الخبر يملأ القرية كلها ٠٠ حملته اليه طفلته نوسة قبل أن يفتح عينيه من النـوم ٠٠ ولاحقه صوت امرأته وهو يغتسل من الجرة :

ـ شفت ياعواد كفر اولاد الحرام ٠٠ وياضـناى كمال ابنها هناك فى الغربة ماهو دارى !



ثم أردفت ويداها مضمومتان فوق بطنها :
– ياندامة ياختى طول عمرك أصيلة وخيرك يغطى على الكل ٠

وعندما خرج ، سمع النواح يأتى من بيت أم كمال الملاصق لبيته ٠٠ كانت النسوة تملأنه ٠

واستطاع أن يلمح بينهم أم كمال وحول وجهها طرحة سوداء ٠٠ سار خطوات فى الشمس التى تملأ الزقاق ٠ تمعن فى خياله قليلا ثم عاد فدخل الدار وطلب من سيدة أن تذهب بعد قليل لتأخذ نقودا سيعطيها لها الحاج شعبان من حساب قديم له عنده٠

وعلى جسر الترعة الجافة ، كان نفس الموضوع ينتظره٠٠الرجال العاطلون يتحدثون عن نذالةالفعلة، يخمنون من عساه فاعلها ، وما عسى أن يكون السبب، (فالوليه) وحيدة ولا عدولها ٠٠ كل القرية تحبها ٠٠ وكثيرون من الأعيان حفيت أقدامهم على عتبتها دون جدوى ٠٠ لقد أقسمت ألا تتزوج بعد موت رجلها ، حتى تعلم وحيدها كمال وينال أعلى شهادة، مكتفية بالفدانين اللذين تركهما المرحوم تنفق منهما على تعليمه ٠٠ يثرثر الرجال بلا ملل ، تفتح أم كمال فى صدر كل منهم نافذة لهمومه الخاصة ٠٠ وعواد يسمع ، دون أن ينظر فى وجه أحدهم ٠ يتأمل الشقوق العميقة فى قاع الترعة ٠٠ ويحاول أن يمنع رعدة تتملك جسده ، فيرفع بصره الى الشمس التائهة وسط السحاب ، ويعلل باختفائها سر ارتجافه ٠

– أليست جارتك يا عواد ؟ ألم تحدثك عن شىء من قبل ؟

التفت الى السائل فى ذعر ٠٠ ملأ فمه بابتسامة ماسخه وهز رأسه نفيا ٠

وانتبه مرة أخرى على ذكر اسم الحاج شعبان ، فانتفض قلبه وهرب منه الدم ، لكنه أكتشف أنهم غيروا الحديث ، وبدأوا فى موضوع القضية التى ستنظر الليلة فى بيت الحاج شعبان ، ليكون هو قاضيا فيها ، لما يعرف به من نزاهة وسداد رأى ٠

كان النهار على قصره طويلا وشاقا ، ولم يجد عواد رغبة فى العودة الى البيت ٠ ظل يتسكع فى فى الحقول حتى أحمر قرص الشمس وعادت طلائع الأطفال الذين يعملون فى جمع الدود من شجرات القطن ٠٠ كان الأطفال يسيرون جماعات ويغنون ، تتقدمهم فتاة تدق على طبلة ، تخلف عنهم عواد وراح يتابعهم وهم ينتظمون فى شريط طويل رفيع على



شاطىء الترعة ، ثم يختفون فى غبشة المساء وسط سحب التراب٠٠ وطافت بخياله ذكرى بعيدة، عندما كان يعود من الحقول فى أمسيات كهذه وسط الأطفال وهم يغنون الأغنية الشائعة :

عواد باع أرضه ٠٠٠ ياولاد !
شوفوا طوله وعرضه ٠٠ ياولاود آ

يغنونها ويضحكون ليغيظوه ، حتى تحدث المطاردة الضاحكة وسط الحقول والحيوانات والأتربة ٠٠٠

ولم يكن يغضب منهم ، فما كان فى يوم من الأيام مالكا للأرض حتى يبيعها ٠٠ لكنها أصبحت عادة والسلام !

***

مضت سنين على مثل ذلك ، وكبر الأطفال الذين كانوا يغنونها ، وأصبح بعضهم زملاء له فى العمل، أما الأجيال الجديدة فلا تعرف هذه الحكاية ٠

وعندما سمع صوت المؤذن يؤذن المغرب فى المسجد البعيد ، اتخذ طريقه الى البيت على مهل ٠

لم تكن زوجته قد عادت بعد من فرن الجيران حيث ذهبت تعد الخبز الجديد ٠٠ ظل ينتظرها ويمنى نفسه بالخبز الطازج الذى لم يذقه منذ أسابيع ٠٠ كان بوسعه أن يشم الرائحة المعتادة التى تفوح من الخبز لحظة خروجه من الفرن ٠٠ وكانت معدته خاوية ، فلم فلم يكن قد ذاق طعاما منذ الصباح ٠

عند العشاء عادت سيدة تسبقها الرائحة الحلوة وفوق رأسها (برج) الخبز المرتفع وقد أكتسى ردؤها ببياض الدقيق والعجين ، وجهها متورد ضاحك شهى يشع الدفء ، وحولها الأطفال فى يد كل منهم رغيف طازج يلتهمه بشراهة ٠

وقطع ثرثرتها عما أنجزته من أعمال طول اليوم ، ليسألها هامسا عن بقية النقود التى أخذتها من الحاج شعبان .. ومن طيات ثوبها أخرجت عدة ورقات مالية راح يعدها فى لهفة .. كان وجهه يلتهب من الدماء الحارة التى تدفقت فيه فجأة .وخيل اليه أنه أصبح أكثر توردا من وجه زوجته ! قفزت الى ذهنه على الفور كل الطلبات العاجلة والمشروبات المؤجلة .. طوى النقود فى قبضة يده التى دسها داخل جيبه يستمتع بملمس الأوراق الدافئة ... وجذبته رائحة الخبز .. فتناول رغيفا وطواه فى قبضته الأخرى وقربه من فمه .. كانت رائحة الخبز قوية نفاذة لم يحتملها لأول وهلة .. عجب لاحساسه المفاجىء بأن نفسه تعافها .. قضم من الرغيف قضمة صغيرة فأحس لها لذعة غريبة .. فكر أن زوجته أكثرت من دقيق الحلبة مع العجين .. لكن مرة واحدة وكانفجار بيضة فاسدة تذكر لقمة الأمس الغريبة فى العشاء .. ثارت أمعاؤه وأحس برغبة جادة للتقيوء ..بصق الخبز وظل لحظات مشمئزا غائم النفس .. كانت قبضته اليمنى مازالت تقبض على الرغيف ، بينما اليسرى تقبض على النقود .. تولته قشعريرة كالتى أنتابته على جسر الترعة مع الرجال .

ملأت ذهنه الطرحة السوداء تحيط بوجه أم كمال .حزينا عاتبا .. ألقى بالرغيف فى فزع ، وأخرج يده الأخرى من جيبه بعد أن ترك فيه النقود .. تذكر فجأة الجوال الملىء بالقمح الذى ارسلته اليه أم كمال فى العام الماضى بمناسبة نجاح ابنها . يومها صنعت زوجته فطيرا وأهدتها منه فقالت هذا أول فطير أذوقة بعد موت المرحوم ... ضاق تنفسه وأخذ يروح ويجىء فى وسط الدار .. صرخ فجأة فى أحد الأطفال آمرا اياه بأن يرمى ما بيده من خبز ، نظر اليه الطفل فى ذعر وزام وهو يخبىء رغيفه بحركة تلقائية داخل جلبابه .. انتابته الرغبة فى أن يضربه أو يحطم أى شىء .. لكنه شعر بمنتهى العجز فأمتلأ بالتعاسه

غادر الدار فى صمت بغير هدف .. قادته قدماه بلا وعى نحو بيت الحاج شعبان ..غير أنه توقف فجأة عند أول الصالة التى يقع فى نهايتها البيت أذ صدم عينيه ضوء (كلوب) معلق فى المضيفه المفتوحه .. أخذ يقترب ببطء وقد زاد أنقباضه .حاول أن يتبين أحدا من الجالسين هناك لكن ضوء الكلوب أغشى عينيه فحولهما بسرعة .

(نسيت أن عنده الليله مجلس رجالة !)

وتصاعدت من الداخل ضجة عالية تصنعها أصوات غليظة ، تشتبك فى نقاش حاد ، وتعالى فوق الضجة صوت الحاج شعبان الوقور المطوط :

ـ صلوا على النبى .. صلوا على النبى ياجماعة .

ثم بدأ يتكلم بهدوء بعد أن تلاشت الضجة تماما .

اقترب عواد أكثر .. أصبح جسمه كله فى رقعة الضوء العريضة أمام المضيفة .. فكر أن يدخل وان منعوه أخبرهم بكل شىء .. (ليحتقروه ! ..ليبصقوا عليه ! .. ليصبح سيرة نتنة فى أفواه القرية كلها ! .. لا يهم ! .. فقط ليعرفوا من هو القاضى المتربع بينهم !) .

لكنه استدار يذرع المكان فى عصبية .. وتوقف أمام جذع نخلة منزوى فى الظلام بجوار أحد الأبواب جلس واسند رأسه بيديه .

كان خط الضوء على مسافة قدم واحدة من مجلسه، يهتز اهتزازات خفيفة مع أرجحة الكلوب المدلى من السقف .

(لكن ماذا تقول عنه أم كمال عندما يصلها النبأ؟)

تحرك فى تلك اللحظة خط الضوء من أمامه .. أخذ ينسحب وينسحب ، فتضيق رقعة النور فى الزقاق .. وسقط فجأة على المكان ظلام ثقيل .. نظر هناك .. كانوا قد أغلقوا باب المضيفة .

كانت هناك قبضة باردة تضغط ببطء على قلبه.. أنتفض واقفا .. ليس باستطاعته احتمالها ، أو احتمال الظلام الجاثم على الحارة .. مشى فى اتجاه المزارع .. تجنب المرور أمام مصطبة أبو حسين التى يجلس عليها أصحابه .. كان مشدودا بجاذبية غامضة الى مكان لا يعرفه .. الظلام يلفع وجهه بالندى ورائحة الزرع .. ونقيق الضفادع يصاحبه على ايقاع صوت ماكينة الطحين .. ووجد نفسه بلا أرادة أمام حقل أم كمال .. تخطى القناة الجافة .. شق طريقه وسط أكوام من شجيرات القطن المخلوعة. دار ببصره فى المكان الفسيح .. فوق الكتل السوداء المتناثرة ، لأكوام الشجيرات الميتة . جلس على كوم منها والتقط عودا ذابلا أخذ يلويه .. جثث ! .. أكوام القطن كالجثث ! .. من كل جهة تحيط به .. تحدق فيه .. كل شىء الآن يحدق فيه .. (وأم كمال ماذا تقول ؟ كان الرجال على جسر الترعة اليوم يتحدثون عنها ويحكون الحكايات .. من منكم يعرف حسنية ؟ كلكم تنادونها يا أم كمال .. وأنا فقط

كنت أقول لها : ياست حسنية .. ليس من حقكم أن تتحدثوا عنها .. أنتم لاتعرفونها .. أنها لم تأمن لرجل غيرى ليدخل دارها .. لهـــذا أختارك الشيطان أنت بالذات لهذه المهمة .. كان يعـــرف أنك لن تبوح ولو ذبحوك ! ياويلك ياعواد .. وكيف تبوح ؟ .. بل كيف تلتقى العينان ؟ الطرحة حـــول وجهها لم تعد بيضاء أستبدلتها بأخرى سوداء .. وكمال فى المدينة هناك لا يعرف المصير .. وضعت أنت ياعواد ..)

كان ينظر الى الجثث من حوله كأنما يحدثها ، او يرثيها .. وخيل اليه فجأة أنه يسمع اسمه يتردد من بعيد .. بصوت خافت .. (عواد .. عواد) .. ارتعش كل جسده .. أرهف أذنيه فلم يسمع غير صفارة ماكينة الطحين .. رفيعة .. مجروحة .. فاجعة : توك توك توك توك ! وفى أعقابها عاد النداء: (عواد .. عواد .. ياولاد ! ..)

حينئذ .. وكالهدير .. أنفجرت الأغنية :

عـــواد باع أرضــــه ... ياولاد
شوفوا طوله وعرضه ... ياولاد

أنتفض واقفا .. دار حول نفسه كالممسوس .. وضع يديه على أذنيه يمنع الهدير .. لكن الأغنية كانت تنتظم فيها الآن أصوات الأطفال .. رفيعـــة ممطوطة مولولة .. تدور وتدور .. تملأ الحقول والبيوت والسماء والقرية كلها :

ياولاد غنـــوله ... ياولاد
شوفوا عرضه وطوله.. ياولاد

جرى عواد .. ظل يجرى فى اتجاه القـــرية .. والنواح يلاحقه يملأ أذنيه .. يلبش ساقيه .. حتى بلغ أول الشارع .. فخفف من جريه .. ولم يتوقف الا عند المسجد .. وقف دقائق يتدارك أنفاسه .. ثم عاود السير بلا تفكير الى مصطبة أبو حسين .. ألقى بنفسه بين الرجال وهو يلهث ويرتجف . كانت قصعة النار مازالت بها بقايا جمرات .. أحـــاط الرجال به فى لهفة ، ودثره أحدهم بتلفيحته وأشعل آخر كمية ضخمة من الخشب وقربها منه .. وفشلت كل محاولاتهم ليعرفوا ماذا جرى له .. هتف أحدهم بخوف :

ـ طلعت له الملعونة من بئر الساقية .

وسعل الرجال مفزوعين .. وطلبوا من قـــائل الكلمة أن يستعيذ بالله .. كان عواد قد هدأ كثيرا .. وأعد الشاى ودارت انفاس الجوزة من جديد .. وتصفح عواد وجوههم على ضـــوء الجمرات ، كبيرة مكدودة طيبة .. وكانت قريبة جدا من وجهه .. خطر له (ليس بينهم من له اسم عواد ..) ومع رشفات الشاى الساخن .. استرسل صوته .. باهتا نحيلا .. يحكى كل شيء .. كان يشعر براحة كبيرة لأنه يتحدث الى أحياء .. وليس الى جثث .. والوجوه تتقلص .. وتنذهل .. وتخرج الشهقات .. لكنهم لم يقاطعوه .. وتمنى أن يظل يحكى .. ويبكى حتى الصباح .

لكن الصمت خيم أخيرا .. ولم يعد يجد مايقوله.. وملأته الراحة .. فكر (أنه على استعداد الآن لأن يموت ..) .

اللحظات الثقيلة تجر بعضها على الشـــوك .. الرجال ينظرون الى بعضهم ويطرقون .. كأنهـــم فقدوا النطق .. وأخيرا .. تنهد واحد ، أخـــرج مخزونا ضخما من شيء يحترق ثم ألقى بها ..

ـ والله وقعت ياعواد ..

أضاف أحدهم الى الجمرات خشبا جديدا فتأججت النار .. لمعت فى العيون نظرات قاسية أو شـــاردة ووضح القمر الحقيقى لكل منهم .

ـ ماذا جرى للدنيا ياجدعان ؟ .. دائما كنـــا نقول عواد عواد .. ثم ...

ـ كفاية يا محروس .. انتهى كل شيء .. فلنر ما يمكننا عمله الآن .

قالها فى صرامة فلاح قصير تملأ التجاعيد وجهه.

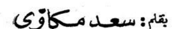
ـ والله طيب ياسعادة القاضى .

ودارت الانفاس مرات عديدة .. وراح عـــواد يتابع نقاشهم تشمله راحة لا قــــرار لها ومازالت تطوف به أمنية أن يموت الآن .

وفجأة أطفأ أحدهم بالماء ما تبقى من جمرات .. ونهضوا جميعا .. ودسوا الأقدام فى الأحـــذية وأسند اثنان منهم عواد ، بعد أن أحكما التلفيحة حول كتفيه .

ولم تمض لحظات حتى كان الموكب الصامت ينعطف الى العطفة التى توجد فى نهايتها مضـــيفة الحاج شعبان .. وكشف ضـــوء الكلوب فجأة وجوههم الصارمة .. كانت المضيفه ملأى بالرجال .. والنور يفرش أمامهم كل الطريق وصوت الحاج شـــعبان يدوى .. بينما الموكب الصامت يتقدم فى ثبات .. وخلفه ـ على أرض الطريق ـ مجموعة من الظلال .. تتراقص وتتلاحم .. وتقصر قليلا .. قليلا .. حتى اختفت تماما .. عند ما أصبح أصحابها داخـــل الحجرة المضيئة .





ما بين ليل ونهار تكثفت ماساة عواد ، وانعصرت حقيقته فى حالة ضمير حادة •

عاطل لا يجد عملا ، وفى قلب البؤس تنتصب امامه جنيهات خمسة يمكنه ان يكسبها فى ليلة واحدة ، بل فى ساعتين •

غول القرية الحاج شعبان الذى لا حدود لبغيه ولا لارضه يستاجره ليقلع قطن الجارة الطيبة ام كمال ، الطاهرة فى اطار من طرحه الصلاة ، لانها بعد موت زوجها رفضت ان تتزوجه كما رفضت غيره من الأعيان ، ونذرت نفسها لتعليم وحيدها كمال فى المدينة من دخل الفرائيين اللذين تركهما رجلها •

فعلة نذلة يطلع عليها النهار وهى حديث القرية كلها •

وامراة عواد الفرحة بالرزق الطارىء تعود من فرن الجيران بخبز طـــازج يملا الدار برائحته النفاذة ، فيتناول عواد رغيفا ويقضم منه قضمة صغيرة تعافها نفسه وتثور بها معدته حتى لتكاد تلفظها ، فيبصق الخبز ويلقى بالرغيف فى فزع واشمئزاز •

هو ذا فى قلب ازمته التى اجاد عز الدين نجيب رسمها ، بكلمات قليلة ولمسات موفقة •

هوذا يصرخ فى احد اولاده يامره ان يرمى ما بيده من ذلك الخبز ، وها هى ارادته تريد ان تتشـــكل ••• يريد ان يضرب الولد ، لكن التعاسة تملا عليه نفسه اذ يشعر بعجزه عن تحطيم كل شىء ، عن رفض اللقمة الحرام •

لنصحب عواد وهو يغادر داره على غير هدف ، وفى صمت • وفي ساعة الغروب الشاحبة يقوده احساسه المرير بالعجز الى مكان فعلته الخســـيسة ، بعد ان تضغط قلبه قبضة باردة عند مضيفة الحاج شعبان اذ يسمع صوته وهو يفتى فى قضية يعرضها عليه رجال يؤمنون بنزاهته وحكمته ، الى حقل ام كمال ، ليشق طريقه وسط شجيرات القطن المخلوعة فى لحظات مكثفة تملؤه رعبا ، فيعود فى اتجاه القرية وهو يجرى ولا يتوقف حتى يلقى بلهاثه وارتجافه بين اخوانه الفلاحين المتجمعين على مصطبة واحد منهم حول الشاى والجوزة •

وهذا هو « المناخ النفسى » الذى اختاره كاتب القصة لتفجر « الاعتراف » •••

لماذا ؟

لماذا اعترف عواد « وانفاس الجوزة تدور » ؟

•

ان عز الدين نجيب ينهى قصته بان يجعل « احد » الرجال يطفىء بالماء ما تبقى من جمرات ، ثم ينهض الجميع بوجوه صارمة فى موكب صامت يقصد مضيفة الحاج شعبان ليقتحموها •••• الم يكن من الطبيعى ان تكون هذه الجلسة هى ذروة حالة الضمير التى تعتصر حقيقة بطل القصة ، فيكون عواد نفسه هو الذى يطفىء الجمرات فى غضب مارد ، قبل ان يذهب فيعترف امام الوجه الطيب نفسه ، وجه الجارة التى اعتبرته دائما « اخا » لوحيدها ؟

اليس هذا الوجه هو « الضمير » ذاته ؟

ثم : لماذا « الســـقوط » عنوانا لقصة انسان وجد الراحة والخلاص في الاعتراف ؟



هزيمة أبو زيد

بقلم : حسن محسب



- من مواليد ٥ مارس ١٩٣٨ .
- خريج معهد السيناريو دفعة ١٩٦٤ .
- نشر فى « الأدب » ، « الشهر » ، «الشعب» ، «المساء» ، «الجمهورية» ، « القصة » ، « الرسالة » ، « الثقافة » .
- اذيعت بعض قصصه من البرنامج العام لاذاعة القاهرة .
- صدرت له « لحظة حب » مجموعة قصص عام ١٩٥٨ . وصدرت له ايضا « الكوخ » عن الدار المصرية للتاليف .
- تصدر له قريبا عن الدار القومية « التفتيش » مجموعة قصصية ، قصة « أبو زيد الهلالى » عن الدار المصرية .
- عرضت مسرحيته « الفجر » على مسرح فرقة المنصورة .
- عمل محررا ادبيا بجريدة «المساء» «والجمهورية » فى الفترة من ١٩٦٠ - ١٩٦٤ .
- يعمل حاليا محررا ادبيا بمجلة « الاذاعة والتليفزيون » . ويقوم بكتابة بعض البرامج الثقافية للتليفزيون العربى .
- متزوج وله ولدان .

ضربة فأس .. وينتهى كل شىء .. لكن ابو زيد يرتعد .. والسبع المنقوش على ذراعه الأيمن يرتعش .. ونشع العرق يبلل شاربه .. وغراب ينعق .. ويلتقط دودة ثم يلفظها ويرفرف بجناحه .. وظله فى مياه المسقى .. يبدو كئيبا .

أبو زيد ينظر الى فأسه ، والسبع يرتعش على ذراعه .. وعيناه تبحثان عن حدود أرض التفتيش ولا تلتقى الا بأشجار الجزورينا الصامتة تحت لهيب الشمس ..

وقبل أن تعود نظراته الى فأسه .. صدمتها « كارتة » الناظر عائدة من بيوت الادارة الى الدوار ..

وفجأة يهدأ السبع على ذراعه .. ويكف عن الارتعاش .. فهو لن يرى الناظر الا غدا ..

واستطاع أن يقف أخيرا على قدميه .. وانحنى يلتقط فأسه .. فطقطقت عظام ظهره وانحبست آهة حزينة فى حلقه الجاف .

سار أبو زيد على جسر المسقى وفأسه معلقة فى ذراعيه المعقودتين خلف ظهره .. وحاول أن يعرف لماذا حقا يمنعونه من جنى قطنه ..

لقد حاول كثيرا أن يعزى نفسه بانه ليس وحده فى المشكلة .. لكنه مع ذلك لم يستطع أن يريح نفسه من الهم ..

وأمس قالت له زوجته وهيبة .. اتبكى كالنساء يا « أبو زيد » ؟ .. وبكت طفلته .. ونهنهت ابنته

فمسح دموعه بظهر يده وقال : ما العبارة يا أولاد ؟ .. خربت الذمم .. والشيخ عبد الملك يدعو على منبر المسجد .. حفظ الله الأميرة..»

ووضعت زوجته وهيبة رغيفا وحفنة من المش كالبقعة على جزء من رغيف آخر .. وقالت :

ــ العقل والدين يا أبو زيد ..

وقالت ابنته زينب وهى تعبث فى ضفيرتها واحمرار يورم عينيها : ست سنين .. ست سنين .. ! ثم أخفت وجهها فى طرف ثوبها الدمور وأفرغت أنفها ومسحت دموعها لكنها جلست تشهق . وملأ أبو زيد فمه بلقمة من الرغيف وبلعها برشفة كبيرة من كوز الصفيح الذى ملأته وهيبة من البلاص .

قفزت ضفدعة بين قدمى « أبو زيد » .. وهو يصل الى نهاية المسقى .. وارتمى بجوار مدار الساقية .

وقال دياب : العبد فى التفكير .. والرب فى التدبير ..

ولم يجب أبو زيد .. ورأسه ثقيلة على فأسه ، وعيناه فى نظرة غبية تحدق فى فروع شجرة الجميز .

وضرب دياب الجاموسة والبقرة بالفرقلة ضربة خفيفة .. فارتفع أنين الساقية قليلا ..

وعاد دياب يقول : من افترى على الله ..

وتمنى أبو زيد لو ابتسم .. فقد ذكره دياب بالشيخ عبد الملك .. فوق منبر المسجد .. وهو يدعو .. حفظ الله الأميرة ..

أبو زيد يعلم أن الناس فى التفتيش يعرفون أن الشيخ عبد الملك يتغذى ويتعشى كل يوم فى مضيفة التفتيش ..

دع الملك للمالك .. وفرقعت الفرقلة على جلد الجاموسة .. ثم جلس دياب بجوار « أبو زيد » .. وخلع طاقيته الصوف ثم كبسها فوق رأسه ، وقال : ندر على .. والندر دين أوفى به .. يا « أبو زيد » لو الأرض أرضى لاترك القطن كله للناس ! ..

وبصق أبو زيد .. ومسح فمه بظهر يده .. فلمعت رأس السبع على ذراعه .

وسأله دياب : وزينب « يا أبو زيد » .. لن تتزوج يونس وست سنين عمر طويل ..

وهمس أبو زيد : ست سنين .. ويونس وزينب مخطوبين ..

ثم جلس القرفصاء..وأسند ذقنه فوق راحتيه وأخذ يحدق فى أرض القطن الواسعة . ولهثت أنفاسه وقال : فدادين كثيرة يا دياب .. زرعناها ونقينا اللطع والدودة من ورق القطن على نور الفوانيس والكلوبات .. وطاب المحصول .. ويضحك علينا الناظر ويمنعنا من جمع القطن .. وزينب ويونس مخطوبين من ست سنين ..

وخرجت آهة حزينة من حلقه .. ولكنها ذابت مع فرقعة الفرقلة ودياب يضرب الجاموسة..والساقية تدور ببطء شحيح .. !

ومرة أخرى .. نعق غراب فى طرف فرع .. والحر مازال يخنق الأنفاس .. ولا نسمة هواء تخفف من هموم « أبو زيد » .

ضربة فأس وينتهى كل شىء ..

وضربت زوجته وهيبة صدرها فى هلع : أجننت يا « أبو زيد » .. ترمى نفسك فى النار .. مايسرى على التفتيش يسرى علينا ..

وزينب تخفى وجهها فى ذيل جلبابها وتفرغ أنفها .. يونس لم يتردد عليهم منذ شهور .. وزملاؤه .. منهم من هاجر الى المدينة وعمل فى ورشة .. وعاد ليتزوج ..

ــ ضربة فأس تريح الناس .

ــ يا « بو زيد » أعقل ..

ــ قطننا يا وهيبة .

ــ التفتيش تسنده الحكومة يا « ابو زيد »..

ــ والعمل يا ناس .

ــ ما باليد حيله ..

ــ يأخذون المحصول كله .. والنهاية يركبنى الدين .. أهذا كلام يا ناس ؟ .

ــ الصبر يا « أبو زيد » ..

ــ ضربة فأس تريحنى أنا ..

وخرج أبو زيد يحمل فأسه.. مبكرا.. واقترب من أرض القطن .. ولكن أبو عطية الغفير منعه وهدده بالضرب والسجن فى الدوار مثل عويس بن الزناتى ..

وابتعد أبو زيد .. لكنه لم يستطع أن يبتعد كثيرا ، فجلس على جسر المسقى ..

مرت أمامه « كارتة الناظر .. والتقت عيناه بعينيه وارتعش السبع على ذراعه .. انه لم يكن يعرف أن الناظر سمين الى هذا الحد ..

ومرت « الكارتة » .. وابتعدت .. عدة مرات مرت أمامه .. وهو عاجز عن الحركة .. وحاول أن يقارن بين الناظر السمين وبين جاموسته الهزيلة التى باعها ليسدد ديون القطن فى الموسم الماضى .

وأخيرا عادت « الكارته » بعد أن أوصلت الناظر الى بيته فى ادارة التفتيش ..

ــ لا أمل يا « بو زيد » ..

قالها دياب ومضى يستحث الجاموسة والبقرة ويدور خلفهما على مدار الساقية .

وزينب سيتركها يونس ويهاجر .. وقد يعود ليتزوج من غيرها ..

ونعق الغراب ..

فى اليوم التالى عجز أبو زيد عن حمل فأسه .. ولم يستطع الخروج من داره .. فجلس القرفصاء وأسند ظهره الى البلاص ..

ودخل يونس .. فشهقت زينب وهرولت الى الزريبة الخالية من الماشية ، ورحبت أمها بيونس وناداه أبو زيد ليجلس بجواره .

وقال يونس انه سيسافر الى المدينة ..

ولم يجب أبو زيد ..

وقالت وهيبة :

ــ الغربة صعبة يايونس ..

وتنهد يونس وهرش رأسه ، وانشغل فى طاقيته . ثم قال :

ــ ست سنين و ...

وصمت محرجا .

وقال أبو زيد بعد وقت :

ــ لا عيش لنا هنا يا ولدى ..

ــ نرحل .. نهاجر ..

قالها يونس بحماس واندفاع .

ــ الى اين يا يونس ؟

ــ بلاد الله واسعة .

ــ مسعود وعبد الحفيظ هاجروا يا يونس .

ــ أعرف انهم عادوا أكثر فقرا وغلبا .

ــ أنت تعرف يا يونس .

ولفهم الصمت .. وطن الذباب .. وتلصصت زينب ورمت بنظرة وجلة من خلف باب الزريبة وهالها أن يونس قد هزل وضمر جسمه ..

قال لى دياب .. لو أنه ملك التفتيش لترك لنا القطن كله .

وابتسم يونس ، وراح يعبث فى أرض الفناء بطرف عصاه ..

وقالت وهيبة : حلم الجائع .. يا « أبو زيد » !

وقال يونس : كانت أمى تقول لو أنها ملكت أرض التفتيش لوزعتها على الناس بدون ثمن ! ..

وقال أبو زيد : الفقير منعنى من نزول أرض القطن ..

وقال يونس : سيحضرون الأنفار من الكفر والعزبة ويجنون القحن ..

وقالت وهيبة : وسيأخذونه الى المخازن ويبيعونه ..

وقال أبو زيد : وفى النهاية أصبح مدينا ..

وقال يونس : ولن أتزوج هذا العام أيضا ..

ونهض واقفا : قلت أسافر .. أهاجر ..

ورددت وهيبة : الغربة صعبة يا ولدى .

وبكت زينب خلف باب الزريبة .

وقال أبو زيد : لماذا لا نجمع القطن بأنفسنا ؟

وقال يونس : التفتيش لا يأمنك على حقه .

ــ وحقى أنا ؟ ..

قالها أبو زيد وأخفى وجهه المصوص فى راحته وهزه البكاء .

ــ اتبكى يا رجل ؟

قالتها وهيبة .. وراحت تنتحب فى أسى .

ــ الدور كلها فى ماتم .

قالها يونس وخرج .

ومن خلف جدار الزريبة ، حاولت زينب أن تلقى نظرة على يونس ، ولكنه كان قد غاب فى منحنى الزقاق .

فى المساء كان نصف المزارعين فى التفتيش سجناء فى الدوار .. وأكياس القطن تدخل الى المخازن

وقال القبانى وهو يزن كيسا :

ــ قنطار ونصف ..

وقال الناظر : قنطار واحد فقط .. افهم عملك وافتح عينيك .

ثم هز كرباجه .. مهددا .. فارتبك القبانى .

على المصطبة قال دياب : الصبر حلو يا يونس .

وقال يونس : سأهاجر من التفتيش .

وقال دياب : الغربة صعبة يا يونس . وزينب بنت حلال ..

ومر عليهما الشيخ عبد الملك واعظ التفتيش ، فهرول اليه يونس وقبل يديه وقال :

ــ كلم الناظر ..

ــ كلمه انت ..

ومضى الشيخ عبد الملك فى طريقه مرددا : حفظ الله الأميرة .. !
وعاد يونس يجلس على المصطبة .
وقال دياب : كان عمر بن الخطاب يمر على الرعية ..
وقال يونس : وكان أبو زيد يا دياب فارس زمانه ..
وقال دياب : والأميرة تأتى كل شهر وتركب الحصان الأشهب .
وقال يونس : وتنام مع الناظر .
وقال دياب : يقولون انها حلوه يا يونس .
ـ الم ترها يا دياب ؟
ـ أخاف أن أنظر اليها يا يونس ..
وأقبلت زوجه دياب وقالت والدموع تسيل على وجهها البارز العظام :
ـ أبى سجين فى الدوار يا دياب .
وقال دياب : ربنا موجود يا أم العيال .
وقال يونس : تحرك يا رجل .
وقال دياب : أرمى بروحى فى النار يا ناس .
وبكت أم العيال .. ودخلت الدار .
وصمت دياب . فقام يونس يتسكع فى التفتيش.
قالت زينب : متى نرحل يا أبى ؟
وقال أبو زيد : قبل طلوع الشمس يا زينب .
وانشغلت وهيبة وابنتها فى جمع حاجياتهم فى صرة وقفة ..
وانكمشت الابنة الصغيرة بجوار والدها .
وقال أبو زيد لنفسه : سيقول الناس انى جبان.
وتعلقت عيناه بفأسه فى ركن الدار ..
ضربة فأس وينتهى كل شىء ..
وبكت الطفلة
ـ اشرب يا ابى .
ورفع كوز الصفيح وسقاها فنامت وأصابعها تداعب وشم السبع . هرب الجبان .. سيقولها دياب واهتز السبع على ذراعه ..
وقالت زينب : ويونس يا أمى .
وقالت وهيبة : ربنا يعوض عليك يا زينب .
وصمتت زينب .. ثم خرجت .. ولم تنادها أمها ..
ورآها أبو زيد .. وعرف أنها ذاهبة الى يونس .. وخاف أن ينظر الى فأسه .
كان الندى يبلل أطراف الحلفاء والحشائش الأخرى على طول الترعة . ونسمات الفجر ترطب وجوه الرجلين والأم وابنتيها .. وهم يسيرون بحذاء الترعة فى صمت .

توقفوا عند شريط قطار الدلتا .. وأخذوا يحدقون فى القطار الذى ملأ دخانه وصفيره جو الصباح
من حولهم .. بسحابة اقلقتهم ..
وقال يونس : الاميرة جعلت القطار يمر على التفتيش ..
وقال أبو زيد : وهدمت المحطة لأنها فى أرضها .
وقالت وهيبة : هموا قبل حرارة الظهر .
وقال يونس : المشوار طويل .
وظل أبو زيد صامتا ، ويده قابضة على فأسه التى حملها على كتفه .
سالت حبات العرق على ساقى زينب فرفعت ذيل جلبابها قليلا فظهرت كرانيش سروالها الباهت.
وقالت أمها : يونس معنا يا بنت .
فأرخت زينب ذيل جلبابها وتنهدت .
ارتفعت الشمس .. وسخن تراب الطريق ..
فسارت الطفلة على حشائش جسر الترعة .. ثم بكت عندما دخلت قدمها شوكة .. فحملها يونس وسار بجوار زينب .
تأخرت وهيبة حتى لحق بها زوجها .
قالت : تكلم يا رجل .
فتنهد أبو زيد وقال : لا اله الا الله .
وقالت وهيبة : المكتوب على الجبين .
وقال يونس : سنتزوج يا زينب .
وقالت زينب : ونستريح يا يونس .
عند شجرة جميز ، جلسوا يمسحون العرق والتراب عن وجوههم . وأعدت زينب مع أمها طعاما للعشاء . ولم يأكل أبو زيد .. وقام ليقضى حاجته فى « جريف » شاطىء الترعة .. ثم عاد وجلس بعيدا عنهم .
وذهب اليه يونس ، وجلس بجواره ، وتحشب فقاحة رائحة البصل من فمه ، وقال أبو زيد :
ـ سنعمل فى تفتيش آخر .
وقال يونس : صاحبه رجل طيب .. فهو حاج لبيت الله .
وقال أبو زيد : سنأخذ أجرا يا يونس .
وقال يونس : يمكننا أن نحتفظ بجزء من الاجر.
وابتسم أبو زيد وقال : هل نستطيع ذلك ؟.
ثم ضرب يونس على كتفه وقال : لو حدث هذا فسنعود الى التفتيش ونشترى فدانا منه ونزرعه.
وضحك يونس .. وقال : ليس بعيدا على الله.
وشرد أبو زيد مع الحلم والأمل .. وراح يتحدث بلا كآبة : سنمسك يدنا فى المصاريف . ونجمع المال ونعود لنشترى فدانا فى التفتيش .. ونزرعه

.. وسأخرج لسانى للناظر .
وقال يونس : وللأميرة ..
وضحك أبو زيد حتى ملأت الدموع عينيه ..
وقال يونس : سنزرع الفدان قطنا ونحتفظ بثمنه .. ونشترى فدانا آخر !

وقال أبو زيد : سنربى عجلين وخروفين ... وتربى زينب بعض الكتاكيت والبط ثم نبيعهـا وتتزوج أنت وزينب بثمنها .

فصاح يونس : آ .. أنؤجل الزواج الى .. لا .. لا .. لا أستطيع أن أصبر ست سنين أخرى فقال أبوزيد: وهل سنملك فدانا بعد ست سنين؟! .

ولفهما صمت حزين .. وارتفع صرير بعض صراصير الليل .. عند شاطىء الترعة ..

وقال أبو زيد أخيرا : لو أن التفتيش أعطانى حقى ..
وقال يونس : لو أن أبى لم يمت .
وقال أبو زيد : ألا نستطيع شراء الفدان قبل ست سنين ؟
وقال يونس : الله أعلم !
وتساءل أبو زيد : هل صاحب التفتيش الجديد .. حج لبيت الله حقا ؟ ! ..
وقال يونس : سمعت هذا .
وقال أبو زيد : الشيخ عبد الملك يقف على منبر المسجد ويدعو بالستر والصحة للأميرة والناظر .
ولكن من يدرى ؟ ! ..
وتثاءب يونس . وقال : الصباح رباح ! ..

ونام الجميع .. ماعدا أبو زيد .. ظل ساهرا .. عند شاطىء الترعة .. فقد كان مشغولا بعملية حسابية أربكته . انه يبحث عن وسيلة لاختصار السنوات الست : يونس سيأخذ ريالا وزينب ريالا، وكذلك هو ووهيبة .. والطفلة .. ليتها تستطيع عمل شىء . ولن يصرفوا شيئا .. سيمسكون أيديهم تماما .. و .. وتوقف تفكيره فجأة .. وتساءل :

هل خلا قلب الناظر من الرحمة .. الأرض أرض الأميرة .. والأميرة لا تأتى الا مرة كل شهر والناظر .. يمنعنى من جمع القطن ويسجن الأنفار فى الدوار .. يقولون انه ينام مع الأميرة .. أعوذ بالله من الشيطان .. أنجاس .. وبصق أبو زيد .. آه .. لو كان صاحب التفتيش الجديد حاجا لبيت الله فعلا .. !

ومر قارب فى الترعة .. ورأى أبو زيد صاحبه يطرح شباكه فى الماء . ثم يجذبها .. وكانت خالية من السمك .. فأغمض عينيه .. وراح يحسب يوميتهم خلال ست سنين فى تفتيش الحاج لكنه أخطأ فى الحساب .. فهمس : كان أبى يحسب أجره لعشرة أعوام مقـدما فى تفتيش الأميرة دون أن يخطىء .

فى الصباح .. سار الركب .. بحذاء الترعة الممتدة الى ما هو أبعد من مدد الشوف ..

فى اليوم الرابع .. تورمت أقدام زينب والطفلة .. وقال يونس انه تعب .

وبكت الطفلة ثم طلبت ماء لتشرب ، فأخذتها أمها الى الترعة ، وراحت تسقيها براحتيها حتى هدأت .. وقال أبو زيد انه لا يستطيع السير بعد ذلك .

ومر بهم رجل عجوز يركب دراجة فسأله يونس عن تفتيش الحاج .
فقال الرجل ببلاهة : تفتيش الحاج ؟ ..
ثم عدل نظارته الصدئة على أنفه المجدوع ..
فقال يونس : الا تعرفه ؟ تفتيش الحاج .. ؟
فقال راكب الدراجة : ليس هنا حجاج ! ..
فصاح أبو زيد : الحاج الذى حج سبع مرات !
فضحك راكب الدراجة فى سخرية .. وقال :
ـ لقد ضللتم الطريق .
ثم تابع سيره بالدراجة ! ..
ضربت وهيبة صدرها .. وشقت ثوبها الأسود الباهت .. وبكت زينب .. وصرخت الطفلة ..
وهرول يونس وراء راكب الدراجة .. وهو يلح فى السؤال :
ـ ألا تعرف تفتيش الحاج ؟! ..
ولم يتوقف الرجل .. ظل يسير بدراجته وهو يقهقه ساخرا : ليس هنا حجاج يا غبى ..

وتوقف يونس .. وخنقه اللهـاث .. ونظر أبو زيد الى السبع المنقوش على ذراعه .. وبحث عن فأسه .. وعن زوجته وهيبة .. وابنتيه .. لكنه لم يكن قادرا على رؤية شىء .. وصاحت زينب تنادى يونس .. لكن صرختها انحبست فى حلقها .. ونادت يونس لكن صوتها كان حشرجة غير مفهومة .. فمدت ذراعيها تشير ليونس .. وارتمت الطفلة بينهما وهى تبكى .. وقال أبو زيد بصوت كله أنين :

ـ الفدان يا يونس .. الفدان .. سأخرج لسانى للناظر .. وللأميرة ..
وأخرج لسانه وبكى .. !





كتب مؤلف هذه القصة تعقيبا عليها خلاصته أن اهل قريتنا ، وكل قرية فى بلادنا ، قد عاشوا طويلا يسمعون حكايات أبى زيد الهلالى ، ودياب ، والزناتى خليفة ، ويونس وعزيزة وغيرهم من الشخصيات الأسطورية ، ويدقون ، صورهم على أذرعتهم وصدورهم ، ويعلقون لوحات تمثل معاركهم فى بيوتهم .. وأن هذه الظاهرة قد شغلته كثيرا حتى وجد نفسه يتساءل ، لو أن ابا زيد وزملاءه الفرسان بعثوا أحياء ، وجاءوا الى التفتيش وعملوا مزارعين فيه ، هل كانوا سينتصرون على أصحاب التفتيش وأعوانهم ، أم سيهزمون كما هزم الفلاحون كثيرا .

ويختم المؤلف تعقيبه بقوله :

« ومن هنا اكتشفت أن أبى وزملاءه الذين طحنهم التفتيش كانوا بلا شك ، فرسانا .. لأنهم استطاعوا أن يتحملوا كل ماحدث لهم فى أرض التفتيش .. وما اكثر ماحدث لهم ؟

ومن هنا أيضا .. أعتقد أن فلاحى بلدنا كلهم .. هم فرسان هذا الزمن .. وأن حكاياتهم فى الأسطورة الجديدة .. وأننا .. أبناء هذا الجيل .. والأجيال القادمة .. يجب أن نتغنى ببطولتهم .. فحكاية الفلاح فى بلدنا .. من الخصوبة والعظمة كحكايات الأساطير القديمة .. وربما فاقتها .. على الأقل لأنها واقع حدث .. واقع عاشه الملايين .. »

وهذا كلام جميل بلا شك ، بل لعله أن يكون أجمل من القصة ذاتها .. ولا عيب فيه سوى الخلط بين معانى البطولة والفروسية .. فاحتمال الظلم والصبر على العنت من الممكن أن يمتا للبطولة بصلة ، اما الفروسية فشىء آخر يقترن بالجرأة والسطوة والاقتحام ، وهى صفات لا أعتقد أننا نستطيع أن نسبغها على فلاحنا الطيب المسالم الصابر ..

بل لا شك أن افتقار الفلاح الى هذه الصفات كان من اهم العوامل التى جعلته يفتن بحكايات أبى زيد ودياب والزناتى اذ وجد فى فروسيتهم وسطوتهم وقدرتهم على الفتك والانتقام ما يعوضه عن عجزه وسلبيته ، ولو فى الحلم والخيال .

وقصة « هزيمة أبو زيد » نفسها دليل على صدق ما نذهب اليه ، فلا أثر للفروسية فيها ، وانما فيها ذلك الصبر الطويل والاستسلام للمصير ، وفيها الى جانب ذلك ثورة تملأ نفس ابى زيد ، وتكاد تدفعه الى اغتيال ناظر التفتيش الظالم ، ولكن الحلم يتغلب عليه والخوف يقهره ، فيؤثر الهجرة مع اسرته الى تفتيش آخر يملكه حاج طيب ، وقبل أن تنتهى القصة ندرك أن ذلك التفتيش لم يكن الا سرابا لا وجود له ، شأنه شأن نذر «دياب» بأن يترك القطن كله للناس لو كانت الأرض ملكا له ، وشأن ما كانت تقوله ام يونس من انها لو ملكت أرض التفتيش لوزعتها على الناس بدون ثمن .

والحق أننا لا نستطيع أن نطالب القاص بأن يسبغ على أبطاله الفلاحين مزيدا من الايجابية والبطولة ، نعلم جيدا أنها لم تكن من سماتهم فى يوم من الأيام ، حسبه أن جعلهم يثورون على الظلم تلك الثورة العاتية المكبوتة ، وحسبه أن خرج بهم من ديارهم هربا من بغى الأميرة وأعوانها ، ساعين نحو ظروف افضل للحياة ، فاذا لم تتحقق لهم تلك الظروف فلم يكن ذلك خطأ فيهم ، وانما الخطأ ، أو الأخطاء ، كانت فى الأوضاع الفاسدة الظالمة التى كانت سائدة وقتذاك ..

وقد وفق الكاتب الى حد بعيد فى تصوير البيئة والشخصيات الريفية ، وحشد كثيرا من التفصيلات الدالة التى تؤكد خبرته الواضحة بموضوعه ، وعرض قصته فى اسـلوب سردى مركز اشبه باسلوب السرد السينمائى فى سرعة نقلاته ، وحرصه على تصـوير الحركة والحوار أكثر من حرصه على التعمق فى نقل الانفعالات النفسية .. بل انه ليستخدم أسلوب اللقطات السينمائية فى مواضع كثيرة من القصة .. « ابو زيد يرتعد » هذه لقطة كاملة تقدم الشخصية ، تتلوها لقطات اخرى مكبرة تقدم تفصيلات منه .. « السبع المنقوش على ذراعه الأيمن يرتعش » ، « نشع العرق يبلل شاربه ، عيناه تبحثان عن حدود ارض التفتيش ولا تلتقى الا باشجار الجزوورينا الصامته تحت لهيب الشمس ... » وهكذا ..

ولا اعتقد أن القارىء يستطيع أن يهتدى وحده الى تلك الصلة الوثيقة ، التى اشار اليها المؤلف فى تعقيبه ، بين الفلاحين وبين فرسان الأساطير .. اذ لا يكفى أن يكون على ذراع أبى زيد وشم « سبع » وأن تكون أسماء الشخصيات هى نفسها أسماء ابطال الملاحم الشعبية ، ويقول يونس فى جملة عابرة :

« وكان أبو زيد يا دياب فارس زمانه .. »

لا يكفى ذلك لكى تنشأ علاقة بين القصة وبين أبطال الملاحم الشعبية ، فخلق مثل هذه العلاقة يتطلب دراسة واعية للملحمة الشعبية ، واختيار بعض مواقفها المشابهة لأحداث القصة أو المقابلة لها ، ونسج الخيال مع الواقع فى نسيج فنى دقيق محكم ينقل الينا ما أحسه الكاتب من علاقة وثيقة بين أبطال قصته وبين أبطال الملاحم الشعبية التى يحبونها .. وهو مالم يحاوله المؤلف ، ومن ثم عجز أن ينقل احساسه من مجال التفكير النظرى الى التطبيق الفنى فى القصة التى قرأناها .

ويبقى مع ذلك انه نبهنا بقصته وتعقيبه الى ان حياة الفلاح المصرى قبل الثورة مازالت موضوعا فنيا خصبا يصلح للعـلاج والاستيحاء .



أشهر رسائل الحب..

بقلم مجيد طوبيا

« سامية .. حبيبتى وخطيبتى ..

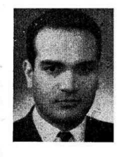
هذا هو يومى الأول هنا . وهذه هى أول رسالة أكتبها لك .

أنا عائد الآن من جولة عابرة بهذه المدينة . لابأس بها من مدينة . الجو هنا معقول .. محتمل . قد يكون ذلك لاننا ما زلنا في فصل الشتاء .

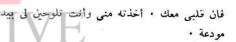
كم أنا مشتاق اليك .. والى لمسة من أصابعك .. تعيد لى حماستى وتدفقى . من كان يصدق أن طالبا مثلى ينال الليسانس بدرجة جيد جدا ؟ .. من يصدق هذا .. ؟ .. ولكنها لمسات يديك . نظرات عينيك .. بل .. وحتى وقع قدميك وأنت تهلين على . كل ذلك دفعني لالتهام دروس .. والآمال العذبة تتراقص أمامى .

لم أكن اتخيل أنه سيأتى يوم .. أتوجه فيه الى محطة سكة حديد القاهرة .. لاركب ذلك القطار الرهيب .. ولتأتي تلك اليد القاسية تدق الناقوس فيمرق القطار بى على شريطين كئيبين ينتهيان بى الى هنا .. حيث أكتب لك الآن .

رغم ذلك ـ رغم الالف ميل التي تفصلني عنك ـ



- من مواليد ٢٥ مارس ١٩٣٨ .
- تخرج في كلية المعلمين سنة ١٩٦٠ .
- نشر في « الرسالة » ، « المجلة » « المساء » .
- مدرس رياضة وطالب بمعهد السيناريو .
- فازت قصته « المكامير » بالجائز الأولى في مسابقة القصة السينمائية لمؤسسة السينما عام ١٩٦٤ ، كما فاز باحدى جوائز نادي القصة في نفس العام .
- اعزب .



فان قلبي معك . أخذته مني وأنت تلوحين لي بيدك مودعة .

غدا . سأتوجه لاستلام عملي .. وبهذا أدخل أول يوم في حياتي العملية .. لكم انتظرنا معا هذا اليوم .. كنا نرقبه ونستعجله .. وكانت المسافة بيني وبينه يوم تعرفت بك تزيد على العامين . والآن .. أصبحت هذه المسافة يوما واحدا .. وأصبح يومنا المنشود هو الغد .



صدقيني يا حبيبتي .. أنا مدين لك بهذا الغد »

***

« ... ... لا أرى مبررا لقلقك علي . حقا ان المدينة صغيرة جدا لو قيست بالقاهرة .. الا أنها نظيفة .

أما عن وقت الفراغ فاقضيه في قراءة المجلات . السكن أيضا ليس شيئا . أجمل الاوقات هي التي أمضيها مع صورتك أتأملها .. ولكنها عاجزة لا تستطيع أن تلغى المسافة بيني وبينك .. عاجزة عن أن تغنيني عنك .

هل تدرين ماذا أتمنى الآن .. ؟ .. ستبتسمين .. مؤكد ستبتسمين .. أتمنى أن أكون رائد فضاء .. وأصعد الى القمر .. قمري أنا .. أنت .. حبيبتي . حتى أمتع نفسي ببسمة صغيرة ترتسم على شفتيك .. بلمسة عابرة من يدي لشعرك الاسمر الناعم .. ارفع تلك الخصلة العابثة التي تأبى الا أن تقبل خدك الايسر .. متمنيا أن أكون مكانها .

لم أكن أدري أن أمر تعيين أرعن سيفصلني عنك .. ويلقى بي على بعد ست عشرة ساعة .. نائيا عنك .. ليجلسوني على مكتب حقير .. في العلاقات العامة . وماذا أعمل ؟ .. أتولى الرد على رسائل الهيئات والنوادي والمدارس . شغلة تافهة .. لا يؤديها متفوق .. ولا تعطى لانسان مثلي .

لذلك فاني قدمت طلبا لنقلي الى القاهرة ..

ملحوظة : أرسلت خطابا الى خالي بالقاهرة ليبذل مساعيه في سبيل نقلي » .

***

« ... ... ان لم أفتح قلبي لك .. فلمن اذن؟ البلدة أصغر وأضيق من أن تحتملني . الحر بدأ يغزو الجو . سمعت ان المناخ في الصيف لا يطاق . أعتقد أن وجهي بدأ يسمر .. أصبح قاتما . قارب

لونى أن يصير مثل لون الاهالى . الاهالى هنـــا لا يصلحون لشىء .. ســـمر .. والعجيب أنهم مغرمون بالملابس البيضاء .. الشىء يحب نقيضه رغم أنه يكشفه ويفضحه . حتى أسنانهم ناصـعة البياض .

شوقى لك يزداد . ســأحاول أن أحضر الى القاهرة .

ملحوظة : الادارة أمرت بنقلى الى عمل آخر .. ولكنه هنا وليس فى القاهرة . أرسلت خطابا ثانيا الى خالى ليزيد من مساعيه واتصالاته . انتظرينى قريبا . سأحضر لك . ساحصل على الاجازة بأية وسيلة ... »

***

« ... ... ما أمتعه من أسبوع . أجمل اسبوع قضيته فى حياتى . ملامحك .. أدق ملامحك .. نسخت هنا فى عقلى .. حفرت فى روحى .

أننى أعجب كيف تطلبين منى أن أحضرك الى هنا . وهنا العذاب . وهنا لن تجدين من تصادقينه حتى كلامهم سريع .. سريع جدا .. يأكلون نصفه الأخير .. أسرع من أن تفهميه . لا يعرفون كلمات المجاملة . ولم أندهش عندما رأيت احدى السائحات تتفرس فى وجه أحدهم .. ثم تخرج آلة تصـوير وتسجل صورته .

يا عزيزتى .

حبى لك يمنعنى من أن أحضرك هنا .

عدت لاجد الوظيفة الجديدة فى انتظـارى . هل تعرفين ما هى .. ؟ « مرافق » . اسمها هكذا ! .. عندما تأتى أية رحلة لمشاهدة سير العمل هنا .. فاننى أرافقهم لاشرح لهم ما يرونه . تصورى ذلك؟ يا لضياع الجهد والوقت .. ! . ترجمان .. ! نعم خطيبك يعمل ترجمانا بدرجة « جيد جدا » .. !

أصحبهم وأقول لهم .. هذه هى ماكينة التخريم هذه كراكة .. وتلك رافعة .. أما ذاك فهو القلابة وهذا الذى أدهشكم أسماه العمال « الجبار » .

وان كانوا من الاجانب .. فنفس الكلام ولكنه يكون بالانجليزية .. حجمه مثل حجم الهرم الاكبر ستة عشرة مرة .. الجرانيت يكون تسعين فى المائة من مواده .

والذى أقوله اليوم .. أعيده غدا .. وأكرره بعد غد .. وكل يوم .. لدرجة أننى وجدتنى أقول قبل أن أنام .. أما عن التربينات فهنا مكانها ؟!

فكرت فى احضار شارة نحاسية ألفهـــا حول ساعدى كأى ترجمان .

ملحوظة : أرجو أن تتصـــلى بخالى وتذكريه بوعده لى .

ملحوظة أخرى : أرجو أن تسألى الطبيب ان كان مستعدا لاعطائى أجازة مرضية أخرى كالسابقة .. »

***

« ... ... اكتشفت وجود حمام سباحة هنا . أداوم على الذهاب هناك كل يوم .. رغم أننى لاأجيد السباحة .. (أسبح دائما فى الجزء غير العميق من الحمام .. وبجوار الحافة .. فاطمئنى) .

أول أمس .. رأيت حادثة عجيبة . بينما كنت فى جولة مع بعض الزائرين .. اذا بأحد العمـــال ـ اسمه « سيد » ـ يقع على الارض مغشيا عليه .. سارعت بحمله الى ركن هادىء بمساعدة بعض العمال فى انتظار قدوم رجال الاسعاف .. ثم حاولت بذل جهدى لافاقته .. وقد سرنى فعلا أنى نجحت فى ذلك .. ثم جلست بجواره .. وتأملت وجهه .. وكانت أول مرة أتفرس فيها فى وجه واحد من الاهالى هنا .. تأملته جليا .. وأحسست باحساس غريب .. كانت ملامحه تذكرنى بملامح انسان أعرفه جيدا انسان رأيته من قبل . له ملامح دقيقة جميلة ..

كانما مثال عظيم دقق فى نحتها .. آه .. تذكرت كانت ملامح « سيد » تشبه ملامح الفراعنة الى حد كبير . نعم نعم .. خوفو مثلا .. أو رمسيس .. بل هو عملاق مثل رمسيس .

ابتسم لى شاكرا .. ونظر الى فى عرفان بالجميل عيناه نفاذتان .. ولكن فيهما طيبة صادقة . قلت له ضاحكا مهونا .. قم ياخوفو .. انت الآن بخير .. ضـــحك .. وضـــحك رفاقه .. وتركتهم وهم يضاحكونه مكررين جملتى : قم ياخوفو أنت الآن بخير .

كانت دهشتى كبيرة فى اليوم التالى — أمس — عندما رأيته واقفا فى مكانه .. يؤدى عمله كالمعتاد .. هلل مرحبا بى عندما لمحنى .. وأنهـــال على شاكرا .. فقلت له مداعبــا .. لماذا لم تســترح يا خوفو .. ؟ ضحك .. وأغرق زملاؤه فى الضحك .. وقال أحدهم : لقد أسميناه « سيد خوفو » .

وظهر اليوم — قبل هذه اللحظة بساعتين — مررت على موقعه .. كان يتناول غداءه .. وأقسم أن آكل معه العيش او الملح .. وتذوقت طعم الخبز .. خبزهم .. ليس كخبزنا فى القاهرة .. ما الذه .. كأنما خبز بالسكر . وتحدثنا كثيرا أثناء تناول الشاى .. واكتشفت شيئا مذهلا .. ان لغتهم من السهل على الانسان أن يفهمها .. هى سريعة بعض الشىء .. يخيل للسامع أنهم يأكلون نصفها .. ولكنه اذا حاول أن يفهمها فسيجدها سهلة .

حدثتهم عن القاهرة وصخبها وملاهيها .. وهم مبهورون . وحدثونى عن آمالهم وأحلامهم .. فهزونى من الاعماق . آمال صغيرة .. أحلام بســيطة .. ولكنها صادقة . سيد — سيد خوخو — يحلم بمنزل صغير يتزوج فيه .. ويعيش . كان وجهه رائعا وهو يحدثنى ببساطة عن البنت التى تنتظره فى قريته .. والتى يضاعف من جهده من أجلها . عندما بدأ يصفها لى .. سرحت عيناه الى مدى البصر .. حبيبته هناك .. فى نفس الاتجـــاه .. كانت قريته هى قبلته .. وهو يصفها لى باصفى الكلمات .. شعرها أسمر طويل .. فارعة القوام .. بغمازتين .. أهم ما يعجبه فيها طيبتها .. يجد عندها كل الحنان الذى يحتاج اليه .. (أنظرى فى المرآة وستجدين أن هذه هى صفاتك) .

ضحكت وقلت له .. كأنك تصف خطيبتى .. اننى ان حاولت أن أصفها فلن أجد أبسط وأحلى مما قلت .

غير أن الذى لن أنساه هو وجهه . ما أروعه وهو يصف حبيبته .. ما أبدع انفعالاته .. ما أعذب رنين صوته .

حقا يا حبيبتى .. ما أعظم ذلك الذى نسـميه حبا .

ملحوظة : تصورى هذا .. اسم فتاته سلمى .. واسم حبيبتى أنا سامية .. يبدآن بحرف السين .. ويشتركان فى حرفى الميم والياء ... »

***

« ... معك حق فى تسمية خطابى السابق بخطاب سيد خوفو .. لقد صار سيد صديقى . أصبحت سهراتى المفضلة معه .. ومع أصحابه .. (الجو هنا يشجع على السهر) . وسمرهم من نوع جديد .. يتحدثون دائما عن الولد .. الولد كبر الولد حقن اليوم لتقويتـــه .. الولد شب وغاظ الامريكان .. توربينات الولد أصبحت جاهزة .. الولد سيروى المزيد من الارض .. الولد .. الولد ..

فاذا سألت عمن يكون هذا الولد .. أجابوك فى دهشة .. الولد الذى غلب النيل .. وجعله يحيد عن مساره .

تصورى .. ! .. العملاق الضخم الشاهق .. ولدهم .. ؟!

وأحيانا ينطلق أحدهم بالغناء .. هكذا .. دون

دعوة من أحد ·· فقط يشعر بالرغبة فى ذلك فيفعل وفى الحال يصمتون ·· ويعتدلون فى جلساتهم ·· وتتبدل ملامحهم فتلين ·· وتصفو عيـــونهم فتحلم ـ من يدرى ·· ؟ ـ ربما بالزوجة ·· بالحبيبة ·· بالامل ·· بالارض ·· بمهد الطفولة ، لاينظرون لمطربهم ·· يخيل اليك أنهم لا يستمعون اليه ·· منهم من يجلس ساندا ذقنه على ركبته ·· ومنهم من يغمض عينيه ·· وبعضهم يهيم بنظره الى أقصى مدى ·· وزميلهم يغنى (بلا موسيقى طبعا) ·· بصوت مشروخ ·· فيه رنة حزن ·· لا أدرى لماذا ؟! فيه بحة شاكية ·· !

ويوم انطلق سيد مغنيا ·· كانت كلماته تشكو البعد ·· وتدعو للقاء الحبيب ·· (أنا أيضا أفعل ذلك ·· ولكن بطريقتى الخاصة ·· بالورقة والقلم ·· وبالخطابات التى أرســـلها اليك ·· ولو كنت أعرف الغناء لغنيت لك مثلهم) ·

الاعجب من ذلك كله أننى عندما سألت سيد عمن حفظ عنه كلمات هذه الاغنية ·· ؟! رد فى تواضع لم يخف بسمته الساحرة ·· بأن ·· « الكلام الذى فى قلبه ·· يصفه على لسانه ·· بعد أن يلبســه اللحن الذى لم يعلمه له أحد » ·

أغانيهم تشجينى ، وتعتصر قلبى تلك النغمــة المشروخة فى أصواتهم · لدرجة أننى لم أعد أطيق سماع أغانى الراديو ·· فقد أصبحت أفتقد فيهـــا الصدق ·

ها أنذا عدت ثانية للحديث عن سيد · وهذه المرة ليس عنه فقط ·· بل عنه وعن أصحابه أيضا!

ولكن يا عزيزتى ··

ما بيدى حيلة · الناس هنا مدهشون ·· يهزمون الانسان بكرمهم ·· ويأسروه باقبالهم عليه ·

الغريب أنهم مصرون على تسميتى : نبيل المرافق ·· ويبدو أن هذه عادة عندهم · سبق أن أعجبتهم طريقة عمل أحد الاجهزة فأطلقوا عليه : « الجبار » ·· وأصبح هذا اسمه لدرجة أننى نسيت اسمه الحقيقى ·· ولدرجة أن الخبراء الروس أنفسهم اعترفوا بالجبار اسما لهذا الجهاز ·

حدث فى بدء عملى أن سألتنى سائحة عن احدى الآلات وهل هى آلة أجنبية ·· يومها أجبتها بنعم لو سئلت اليوم هذا السؤال لاختلفت اجابتى :

على أنهم قد يكون بامكانهم تغيير كل شىء ـ حتى مجرى النهر ـ الا أن أمرا هاما لم يتغير فى ·· هو حبى لك ·· بل أصبح أقوى وأعمق ·

سيد يرسل لك تحياته · أقسمت له أن أبلغك سلامه ·· وقد أعجب جدا بصورتك عندما رآها معى قلت له أن الاصل أجمل ··· »

« ··· ··· حلم جميل هذا الذى سأقصه عليك فى هذا الخطاب ··

حلمت أمس بك ·· وبى ·· وبانسان ثالث ·· ولدنا ·· كان لطيفا جذابا ·· وقد أســميناه : سيد ·







تعقيب على قصة أشهر رسائل الحب

بقلم : الدكتورة سهير القلماوى

القصة فى شكل رسائل والشكل قديم كثيرا ما استعمل فى هذا النوع من القصص التى يراد بها الضغط على التفاعلات النفسية اى التى لا تصور حركة بقدر ما تصور تنقلات رقيقة خفية لاتحتاج الى تعليل ولا تتحمل اى تحليل . تنساب فى عفوية بخصوصية يبررها شكل الخطابات الخاصة . فالانسان فى رسائله يترك نفسه على سجيتها . ومن ناحية اخرى فشكل الرسائل يعطى جوا من التقارب والألفة فالخطاب موجه لواحد وهذا الواحد صديق قريب الى القلب يمكن ان نكشف فيه عن أخفى خبايا النفس دون حرج بل يمكن أن يكون هذا الكشف غير منطقى ولا مسلسل الفكرة لأن الصديق خليق ان يغفر اى نقص من هذه الناحية ثم لانه يعرفنا يمكن أن يملأ الفجوات وهكذا يحس القارىء انه هو هذا الصديق .

وهذه القصة تفيد من الشكل كل الفائدة المرجوة فهى رسائل من فتى الى فتاة وهما فى مرحلة حرجة من الحياة مرحلة بداية الحياة العملية لشاب يعيش أيامه الرومانسية الوردية . أحب البطل سامية فهو يصف هذا الحب فى كلمات قصار مغرقة فى الرومانسية يصف حتى وقع اقدامها واثرها المنعش فى نفسه مما دفعه الى ان يتفوق فى الدرس ولم يكن من المتفوقين .

وفى اسوان حيث عين يجد العمل الذى لا يتناسب مع مؤهلاته والجو الخالى من كل شاعرية والقوم الذين يبدأ بقوله عنهم انه لا يفهم لغتهم السريعة المقطوعة الآخر . ويكاد الروتين والرتابة فى العمل يقضيان عليه ولا يفلح وجود حمام سباحة فى تبديد الملل . وطريف ان حمام السباحة وهو نوع من الجو الرومانسى لا يفلح فى اقلمة هذا الشاب على جو العمل الجاف الرتيب الذى جاء ليعيش بالقرب منه فى وظيفة يمكن أن تكون هامشية ويمكن ان تكون فى الصميم وظيفة « مرافق » .

ولكن حادث وقوع العامل « سيد » مغشيا عليه يكون بمثابة ناقوس يفتح عينه وقلبه على البيئة الصلدة . فى وجه سيد المغشى عليه يرى الملامح الفرعونية الاصيلة الصامدة فيسميه (ويناديه الناس من بعد) سيد خوفو . ومساعدته لسيد فى اغماءته هى الخيط الذى يشده الى مجتمع سيد وقليلا قليلا يحس هذا الجمال الجديد جمال العمل الجبار الذى يقوم به انسان جبار . فهذا سيد مثله يحلم بالحياة الهنيئة بالزواج بسلمى (وبسرعة يرى الشاب الشبه حتى فى حروف « سلمى » وسامية) فيذكر ذلك فى خطابه لحبيبته سامية . وكلاهما هو وسيد يطلعان الى حيث الحبيبة فى اتجاه واحد . المستقبل واحد والماضى واحد والحاضر قليلا قليلا يصبح واحدا فهو يغشى مجالس الاسوانيين ويحبهم ويطرب لغنائهم الفطرى الجميل ويغنى سيد حبه وكأنما يتغنى حب سامية . وتنتهى الرسائل بان يقص الشاب على فتاته حلم المستقبل وقد دخله سيد وبالعرض يحلم بها وبحياته الزوجية وبابن لطيف جذاب اسمياه « سيد » .

ومن هذه الاشارة البارعة اللطيفة يفهم القارىء فى ختام هذه الرسائل من خطيب الى خطيبته ان الاندماج التام قد تم بين الشاب وبيئته الجديدة وبان الالتحام بين الرومانسية والواقع الجبار قد تلاحمت حلقاته .

وطريف ان نلاحظ اسلوب المؤلف فى رسم هذا التحول المتطور فى نفسية البطل ففى خطابه الاول يصمم على أن يستعين بخاله ليعيده الى القاهرة التى اقتطع منها وقليلا قليلا يخف تذكر الخطيبة بموضوع مسمى هذا الخال واخيرا لا يذكره أبدا . لقد استقر فى اسوان . وكذلك حلم الامة كلها خرج من القاهرة مشروعا جبارا لخير الجميع واستقر فى اسوان ولابد من التحام تام بين الخيال الراسم المتطلع للمستقبل وبين التحقيق الجبار الذى بدا بدوره هو ايضا يحلم بالمستقبل الارحب والاوسع .

ويستعمل المؤلف اكثر من رمز لهذا التطور والتحول فى موضوعات الحديث مع خطيبته كما يستعمل لفتات طيبة تعطى الرسائل لمحة أو نكهة واقعين فسامية لابد ضاقت بالحديث عن سيد . فهو يذكر لها ذلك فى رسائله وكانما جاءه الرد وفيه هذا . ولما كنا لا نقرا الا رسائله هو فهو يشعرنا بشىء مما ياتى فى الردود التى لا نعرفها .

وحب الشاب البطل لسامية لا يتغير . ان التعلق بالمثل ، بالوطن ، بالحب ، كل هذا لا يتغير بالعمل الجبار الذى رسم للانقاذ مادى . فالانقاذ المادى يعمق الحب والتعلق بالمثل ومن هنا كان تاكيد البطل فى كل حين من ان حبه أقوى واعمق وان انشغاله بالسد وبسيد وبالبيئة الجديدة انما هو وسيلة الى تعميق الحياة وخصوبة الحب .

والمؤلف لا يذكر اسم اسوان ولا السد وانما هو « الولد بالنسبة للاهالى هكذا يسمونه . وانه كالولد فى هذه الرسائل ثمرة الحب والتطلع الى المستقبل سواء بسواء . أن الآلات اجنبية ولكنه بعد ان اندمج فى القوم واحس فعلا بالسد يرى انه لو سالته سائحة مرة أخرى هل هذه الآلات اجنبية لقال لا . ان الاهالى سموا آله الجبار واضطر الروس الى ان يســموها الجبار وباسمها المصرى . وكل هذه اشارات من المؤلف الى طغيان العمل والعرق والصمود المصرى على كل شىء وصبغه حتى الآلات يلونه ووهويته . ان السد عمل مصرى صميم .

والقصة بعد سهلة الاسلوب طبيعية التطور لا تلمح فى بنائها قفزات ولا فجوات وانما التصاعد نحو القمة هين وطبيعى . وكل جزء له وضعه فى القصة فلا تكاد تجد حادثا او ملاحظة يمكن ان نعدها نافلة او متزيدا بها ، حتى تسميه البطل بنبيل المرافق نسبة الى عمله الذى يرمز بانه على الهامش ولكنه لابد ان يدخل فى الصميم اذا اراد أن يتقن عمله . ثم العلاقة بسيد وان بدات فى افتعال تتطلبه القصة القصيرة احيانا فانها تنمو بعد ذلك طبيعية . وقبل ان يحلم بابن لهما يسميه سيدا نراه يرسل اليها سلام سيد . ويبلغها انجاب سيد بصورتها وهكذا دخل سيد بينهما وهكذا كان طبيعيا ان يتوج هذا الاندماج بابن فى المنام يسمى سيدا .

وطريقة المؤلف الاستاذ مجيد طوبيا تتشابه . ففى قصـــة قراتها له اعجبتنى هى ايضا بعنوان « فوستك يصل الى القمر » نشرت بمجلة المجلة فى عدد مايو (١٠١) سنة ١٩٦٥ نجد نفس الالتقاء الرومانسى مع العلم الحديث او الواقع الجديد . فاللورى الذى يقوده البطل مكتوب عليه « فوستوك يصل الى القمر » فى الخلف ولكن على احد الجانبين مكتوب « ياخفى الالطاف نجنا مما نخاف » والقصة كلها حول شيطان الفوضاء الذى يركب الى جانب السائق . ويحلم السائق بسكون على ظهر القمر . ولما تقع الحادثة وينقل الى المستشفى يسال فى سكون المستشفى هل وصلنا الى القمر . فرغم اختلاف الموضوع فى ظاهرة نجد الجوهر واحدا والمعالجة الهادئة فى سيرها واحدة . هنا فى قصتنا رسائل خاصة من طرف البطل وفى القصة الاخرى حلم او تهويمات لسائق تحت نوع من الخدر . كل من البطلين يحلم بسعادة ما . هذا الحب الرومانسى وذاك الهدوء والسكون او بالراحة فوق القمر. وطريقة التعبير واحدة هى الى راكب اركبه الى جواره والثمن دخان او مخدر فى الدخان . والسائق يقرا ويتطلع الى الوصول الى القمر من قراءاته والراكب ينصت فقط لايكاد يعلق ، كما اننا لانجد سامية ترد الا من خلال كلمات تشير الى ذلك فى خطابات البطل اليها .

ولقد قرات لمجيد طوبيا غير هاتين القصتين وكل ما ارجو له أن يستمر على الدرب بمزيد من الجهد وان يكرس جهده لكتابة القصة فهو ذو استعداد فطرى واضح ودربه لا بأس بها ومجالات المزيد من التفوق لا تستعصى عليه . لابد ان يصل الى القمر على فوستوك او لابد ان يلتحم مع بناة السد وابناء الشعب الصافية نفوسهم الصامدة قلوبهم القوية سواعدهم ليعبر عن احلامهم وطهرهم ويفجر لنا طاقات ايحاءاتهم بكل معانى الحياة : تلك المعانى الواقعية لا فى رتابتها وبلادتها كما يفعل بعض كتاب الغرب ولكن فى عمقها وجلالها وروحانيتها كما لابد ان يكون ادبنا اذا اردنا الصدق والواقعية الحقة .

مخلوقات براد الشاي المغلي

بقلم : محمّد حافظ رجب

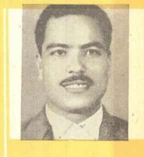
أنا رجل تكتنفنى الغربة فى كل الأركان ·· توقفت عن المسير مؤقتا ·· أجلس الآن داخل علبة سجائر فوق رف ·· أعرض فوقها الحظ معلقا فوق حبل : أوراق يانصيب ·

– اقتحم غربتى رجل سمين : كرة لحم فى مؤخرة رأسه الصلعاء ·· اسمه فانجلى ·· يونانى أخنف·· نقطة لحم تقف فى مجرى أنفه تعرقل دخول أنفاسه فى نظام ·

·· عندما أراه يحتوينى السؤال الفزع : كم من الأعوام سأظل ألقاه ويلقانى دون أن أغرس أسنانى فى كرة اللحم بمؤخرة رأسه الصلعاء ·· أقضمها أبصق ذراتها فوق أرض المقهى وأفر ·· لكن الى أين ؟

··· فى السادسة تتدحرج كرة اللحم ·· تفتح غطاء

- نشرت قصصه فى مجلة «الآداب» ، « الحرية » البيروتيتين ، «والرائد العربى » الكويتية ، ومجلة « المجلة » ، « والقصة » و « المساء » ·



- أذيعت بعض قصصه فى البرنامج الثانى القاهرة ·
- يعمل حاليا بمحافظة الاسكندرية ، ويستعد مع بعض زملائه لانشاء جريدة تكون صوتا لجمعية الأدباء بالاسكندرية ·

لبراد .. تختفي فيه .. ويملأ البخار سماء المقهى.
بعده بساعة أحضر وأنا قزم ! أفتح باب علبة سجائر .. وأزيح ستائر نوافذها .. أتفقد مأواى.. وأخرج .. أتجول بين العلب الأخرى .. أغير الهواء الراكد .. وأستعيد شكل العلامات : جولد فلاك .. وينجز .. ما تنيه .. بحارى .. وأتعلق فى لحية فى لحية البحار الكثيفة .. كي لا أتردد ويبتلعنى الصمم عند ما يأتى زبون ويمد يده بالثمن : « اعطنى لحية البحار من فضلك » فأحملق فى عينيه ولا أرد : لا أعرفها .. لا يمكننى خطف اللحية فى لحظة لاناولها له ... فى الظهيرة ينصرف أحمد : جرسون كرة اللحم .

يضع الصينية فى الفراغ .. يركلها بقدمه وينصرف .

... تبقى كرة اللحم وحدها ...

... ويبقى الذى تكتنفه الغربة من كل جانب.. يحرس الفترينة ... يغفو السمين ولا يغفو هو.. ويتسلل الى مكان ذاكرته .. يصعد اليها حاملا فرشاة وأزميلا يحفر به أسماء علب السجائر وعلاماتها ويلون لحية البحارى وعينيه بلون البحر الذى أمامه .. وقتها تلبى يداه نداء السيد الواقف أمامه على الفور : « هات لى من فضلك قبعة البحارى وغليونه » ويغادر ذاكرته حاملا الفرشاة والأزميل وجردل الألوان والبقع الصارخة .. ويهبط الى عالم الفترينة يبحث عن زبائن .

... منذ يومين وأنا فى علبة ماتنيه .. أجلس فيها لأتعلم كيف أبيع اللفافات قبل أن تشتعل .

... فى الساعة التاسعة والأربعين .. مللت العلبة : أريد أن أغيرها .. أفر .. أبحث عن علبة أخرى ..

... منذ ستة وثلاثين ساعة كنت بلا علبة .. فى السابعة والثلاثين ملأت كراهيتى علبة الماتنيه والفترينة والرف ...

... فى الثامنة والثلاثين انتشر دخان مقتى للمكان .. ومع ذلك لم يمل (فانجلى) اغفاءة الظهيرة .. منذ أربعين سنة : يفتح البراد فى السادسة .. ويغادره فى العاشرة فى عب الليل.. ترقبت من داخل علبتى حضور الزبائن لأسألهم عن سبب كراهيتى للمقهى .

حضر رجل ..

.. مر داخل فانجلى بشاربه الأبيض .. وجلس فوق ترحيبه به ... وتطلع الى حذاء بال يجلس تحت مائدة قريبة ، فابتسم القزم عويس له : أطل من صندوق مسح الأحذية وابتسم .. وخرج .. قبل يده ورجع .. فارتعش الشارب الوقور .. واختفى داخل صفحات جريدته ...

سألت سجين العلبة : من هو ؟ سائق أكثر احتراما من سيده ؟ أجابنى : سأراقبه لأعرف من هو .. كوب قهوته .. تتصاعد منه رشفات السن المتقدم .. يقضم من جريدته سطرا بين كل رشفة ليس الآن وقت الحصول على معلومات أكثر عنه . تركته ..

.. وظل السؤال المحير كما كان : لم تتمدد فى داخلى مساحة الرغبة فى الفرار من هذا المكان ؟

... حضرت دمية يونانية عجوز .. طرقت باب القهوة المفتوح على مصراعيه للضيوف : هل تسمحون لى بالدخول ؟

صاح فانجلى وحده باليونانية مرحبا : أورستا.. أورستا ... انتحت ركنا .

هى ملكى الآن .. لكن هل تصلح للسؤال الملح دمية مشوهة الى حد الذهول ؟

.. تركتها وعدت الى مأواى : علبة الماتنيه .. تحسست جلدها .. طيبة .. ناعمة .. هى مأواى حتى أعثر على غيرها .

الساعة التاسعة والثلاثون .. احتضر الضجيج ثم مات .. رفعت رأسى من تحت غطاء العلبة .. فعثرت على فانجلى - يعد كوب شاى لصبى الحلاق الاصم .

.. اقتربت منه : اخبرنى من فضلك .. من مر داخل أذنك وسرق منك الترقب .

أشار الى فانجلى .. وصاح : هو !

.. صاح فانجلى فى أذنه : هات كوبك ..

.. مد صبى الحلاق أذنه .. فسكب فانجلى كوب الشاى فيها .. وانصرف .

... الرغبة تستبد بى لأتبعه وأثقب أذنى وأصير أصم مثله ... لكن لا .. استدرت الى البحر .. وخلعت ملابسى .. وألقيتها على شاطىء (الشاطبى)

أمس ٠٠ وجلست مع صديقي (س) على الرمال٠٠ لحظتها كان فانجلي يتلقى احســان المتسولين ٠٠٠ ونزلت الى الماء ٠٠ أعمى بلا مجدافين ٠٠ رغم أني كنت ابنا لهذا البحر ٠٠ قلت لصديقي (س) وأنا أعرى ظهري : أنظر٠٠بصمات البحر فوق ظهري٠٠ ومع ذلك لا أجيد السباحة ؟

ضحك وقفز الى الماء ببراعة ٠٠ ثم خرج وقادني الى كابينة بعض الأصدقاء ٠

وجدناهم يعدون مائدة : سلمون وزيتون وبيرة ٠

٠٠ تناولنا قطع السلمون وتجرعنـــا البيرة بعد مزجهـا بالشاي ! فصـارت بلالون محدد ومذاقهـا يثير الحيرة :

٠٠ ضحكنا ونحن نبلع نوى الزيتون ٠٠ لـكن بعضنا قرضه بأسنـانه ٠٠ فصحنـا : مدهش ٠٠ كل شئ فى العالم مدهش ٠

قال (س) : تعال أعلمك السباحة ٠

٠٠٠ أزحت التردد جانبا ٠٠ ونزلت الى الماء٠٠ ولما خرجت اتجهت الى الكابينة دون أن يرانى أحد وهنـــاك وجدت أحدهم قد ابدل سروالى الجـديد بسرواله الممزق ٠٠ فبكيت ٠٠ وسرت على طـول الشاطىء أبحث عن سروالى ٠٠ فلم أعثر عليه ٠

٠٠ الآن وجدته داخل الفترينة ٠٠ فاسترحت ٠

٠٠٠ لكن الساعة الأربعين تقهرب فى ضجيج ٠٠ تهز الهدوء ٠٠ تبعثر رمال الشـاطىء ٠٠ يجب أن أخرج رأسي وأواجهها ٠٠٠ تلفت حولى ٠٠٠ نسيت كراهيتي للمقهى مؤقتـــا ٠٠ درت أبحث فيـه عن مخلوق حى لأحادثه ٠٠ لكنى لم أجد ٠٠ وعثرت فى طريقى على جثة تتكىء فوق مقعد ٠٠ فكرت أن أوقظها ٠٠ وأناولها سيجارة بلا ثمن ٠٠ تدخنهـا وتنتعش ٠٠ وتفكر أن تحادثنى ٠٠ وقبل أن أفعل هدرت الدمية اليونانية العجوز وألقت بكوبها فوق وجه الكآبة ٠ فتناثرت شظاياه وصار علينا أن نجمع بقاياه ٠٠ هممت بالخـروج ٠٠ أبدأ بالمبـــادرة ٠٠ فانجلي كان أسبق منى ٠٠ غادر البراد وسـخطه يتقدم خطواته وجمع بقايا الدمامة والزجاج المكسور وعاد الى مثواه هادرا ٠٠ راقبت الغضب مليا داخل الدمية اليونانية٠٠من حركة بداخلها ؟ : عويس ٠٠ مرتكب الجريمة الغامضة ٠٠ أشعل النار فى طرف لسانهـــا فصرخت باليونانيـــة : سرق نقـــودى يا أوياش ٠٠ !

٠٠ جريت اليها : من السارق يا دميمة ؟

قالت : فردة الحذاء عويس ٠٠

٠٠٠ كم سرق منك يا شحاذة ٠٠ ؟

ــ ورقة خضراء ٠٠

٠٠ ورقة سقطت من حقيبتهـــا تحت المائدة : سرها أن تتحرر من كبتها ٠ وولت هاربة الى جيب القزم عويس ماسح الأحذية تحتمى به ٠٠ فانتشلها عويس من الخوف ٠٠ ووضعها فى علبـة الورنيش ٠٠ تذوب فى داخلـه ٠٠ وتجعـــل وجوه الأحذيه لامعة ٠

٠٠ تركتها ٠٠ وخطواتي ترتد الى الخلـــف : تراجع ٠٠ ثم تراجع ٠٠ القهر يستبد ٠٠ عودة الى علبتى ٠٠ بكم تقدر الاوراق المختفية فى تابوت اليونانية العجوز : غدا عندما تحملهـــا العربة الى مدافن الشاطبى سأقتحم أنا وعويس المقبرة ونهشم الصندوق ونحمل أوراق العملة الخضراء ونعود الى المقهى ٠٠ فنطرد البراد والرأس الصلعاء ونبعثر علب اللفائف البـــاردة وندوس كل أحذية الرجال التى تدوسنـــا ٠٠ ونندفع الى رمال البحـــر ٠٠ ونتمرغ فوقها حتى غروب آخر يوم من عشر سنوات قادمة ٠

٠٠٠ همس شـــخص ما فى أذنى : انتبـه الى بضاعتك ٠٠ الصغار العابرون ٠٠ يسرقون الحلوى اندفعت خلف اللصـــوص الصغار أطاردهم ٠٠ ولما عدت لاهثا ٠٠ وجدت فانجلي يهز الجثــة النائمة لتغادر المقهى ٠٠ فيموت النحس ويظل الانتعـاش باقيا بالمقهى ٠٠٠عاودت التفكير فى أمر طـارىء من الأمور لم أتبين حدوده ولا معالمه بعد ٠٠ من داخل الأمر الطارىء أزعجنى تصفيق رجل دخل الى المقهى فى غيبتى ٠٠ التفت اليه : أعور يحمل فوق ذراعيه أرطالا من الملابس المستعملة ٠٠ يصفق للسقف ٠ ليفتح له طاقة يتساقط منها رجال عراة يكســـوهم بما يحمله ٠

أنا الآخر فى حاجة الى بعض ممـــا يحملـه ٠٠ سأهبط اليه من مثواى ٠٠ وقبل أن أفعـــل جفل كوم العظام الذى تحمله اليونانية من وقع ضربات الكف التى حررها الاعور من خمــــل الملابس ٠٠ وسقط أنفها الرفيع فى كوب الشاى ٠

ياه !! الأعور ٠٠ وكوب الشاى المكسور ٠٠ وكوم الملابس المستعملة ٠٠ وعويس القـزم سارق الورقة

المالية الباهتة من اليونانية العجوز وفانجلى : كرة اللحم فى مؤخرة الرأس الصلعاء ٠٠ هؤلاء مخلوقات لحظتى ٠٠ فى امكانهم أن يستبدوا بى كما يشاءون والساعة الواحدة والأربعون تقترب ٠٠ تدب فوق أزضى ٠٠ وعظامى ٠٠ وعظام الفترينة وفوق أعصاب علب سجائرى مأواى الباهت ٠

٠٠ مع ذلك ٠٠ لم أفر بعد ٠

٠٠٠ فى أقصى متاهات نظراتى الغارقة فى البحث عن وسيلة للفرار ٠٠ لمحت رجلا مقطوع الساق يتلصص على حيرتى ولما هممت بالامساك به ٠٠ اختفى داخل ورقة يانصيب ٠٠ ومع ذلك أمسكت به ٠٠ قال : احذر أن تلمس ساقى المقطوعة ٠٠ أتريد أن تعرفنى ؟

أجبته : انى أحاول ٠

قال : أنظر ٠٠

ومديدة وفتح ستارة ٠٠ رأيته سائرا خلفها فى زمن مضى يحمل لفافه وساقه فوق كتفه والحيرة فوق الوجه ٠٠وهو يحاول عبور قضبان البلد ٠٠ والترام فى الطريق اليه ٠٠٠ وخواجه ـ معلمه ـ يصيح من داخل مقهاه ٠٠ ليسرع بالطعام الى المدام ٠٠٠

صحت من داخل علبة سجائرى : اسرع واعبر قضبان البلد غاظنى تلكؤه ٠٠ واغتاظ السائق معى ٠٠ ومر من فوقه وتناول ساقه من فوق كتفه وزمر الكومسارى مهللا ٠

أغمضت عينى من قسوة المشهد ٠٠ ولما فتحتهما ابتسم الاعرج وقال : هكذا ضاعت ٠٠ وأنا الآن أبحث عن ثمنها بين هذه الأوراق ـ وأشار الى أوراق اليانصيب ـ هيا بنا نعود الى المقهى ٠٠ لأنقدك ثمن ورقتين ٠

٠٠٠ عندما يختفى عن المقهى ٠ يمد ساقه الباقية مع يديه ٠٠ فى الظل ٠٠ وظهره فى جدار المدرسة الانجليزية ٠٠ يواجه السائرين ببشاعة ساقه ٠٠ ليدفعوا ثمن عدم مواجهتها قروشا يشترى بها كفنها أوراق يانصيب ممزق فى داخلها الحظ ٠٠

٠٠ قال يخرجنى من داخل تجاويف ساقه : هلا اخترت لى بيدك ورقة لاتصدم أملى ٠

٠٠ لا ٠٠ يجب أن أفر منه ٠٠ فدقائق الثانية والأربعين تقترب متوجهة ٠٠ كفن الساق أوراق اليانصيب ٠٠ أنا لم أكفن بعد ٠٠ الفرار طريق الخروج من تعاريج ساقه ٠٠ قلت له : انتظرنى دقائق ٠٠ ريثما أفحص مخلوقا آخر ٠٠ أشاح بوجهه غاضبا : تتركنى من أجل آخر ٠٠ كبريائى فى وزن فترينتك قلت له : لا تغضب الفترينة ٠٠ فارغة ٠

٠٠ وعدت الى علبتى يائسا ٠٠ فى أثناء صعودى اليها ٠٠ لمحته داخلا : الملل ٠٠ يغطى وجهه بنظارة داكنة ٠٠ يبحث عن شخص بعينه ٠

٠٠ ابتسمت له ٠٠ تجاهلنى ٠٠ أمسكت بيده : أتريدنى ٠٠ خذنى معك أود أن أنصرف ٠

٠٠ لم ينظر لى ٠٠ وظل يتجاهلنى ٠٠ هل أعض يده لأثير اهتمامه ٠٠ أو أتسلل الى جيبه ٠٠يحملنى معه دون أن يرانى ؟

٠٠ وبدا عليه فجأة أنه أحس بما أفكر فيه ٠٠

فالتفت الى : صبى أنا فى نظراته ٠

أشار الى فانجلى : لم أحضر من أجلك أنت ٠٠ حضرت من أجله هو ٠٠ أربعون سنة وأنا أحاول أن أتناوله بين أصابعى فيستعصى على الامساك به ٠٠ انه لا يأبه بى ٠٠ أنت أسهل منه بكثير ٠٠ فى يومين ٠٠ استوليت عليك ٠٠ دون أن تشعر ٠٠ وكتبت اسمك فى دفترى ٠٠ انظر ٠٠ ورأيت اسمى فى كشف يحمله ٠

٠٠ أنت لا تهمنى الآن ٠٠ وبصق على الأرض وانصرف ٠

٠٠ ترك فانجلى لى ٠٠ لأشرح جلده ٠٠ وأبحث عن مصدر رضاه طوال هذا العمر ٠٠ ورفعت المشرط لأمزق لحمه فاستوقفنى :

ـ ماذا يعذبك ؟

ـ اغفاءة الظهيرة ٠٠ وخوار الثور فى أنفك ٠٠ وكرة اللحم فى رأسك ٠

ـ لا تأبه بى ٠٠ ولا تحزن ٠

واتجه الى حبل الحظ المشنوق على واجهة المقهى والتقط كل أوراق اليانصيب ٠٠ فعلها ليطرد تعاستى ٠

٠٠ وتركنى وعاد الى البراد ٠

٠٠ الأصلع يغرينى بالبقاء ٠٠ بتحمل الانتظار ٠ لكن الثالثة والاربعين تخترق سور احتمالى ٠٠ ورنين الاجراس فى داخلها يمزق قدرتى على البقاء لذلك فررت الى الجالسين أبحث بينهم عمن رأى عقارب الساعة وهى ترقص حولنا ٠

لكنهم غارقون فى التطلع الى أحجار الدومينو يستخرجون منها صورا جديدة للصبر تعينهم على افناء الوقت ٠

٠٠٠ خلفى ذو العين الواحدة ٠٠ يجلس فوق تل ملابسه القديمة ٠٠ عيناه فى ظهرى ٠٠ أرى فيهما طريقا موحشا مهجورا يجلس فى نهايته مع رجل مريض : دبش ٠٠ دو ٠٠ جهار ٠

تركتهما : عائد أنا الى المقهى ٠٠ فى طريقى عثرت على شارب الرجل الوقور مازال مغروسا فى الجريدة ٠

الى مأواى ٠٠ الى الفترينة ٠٠ أصعد درجاتها ٠٠ الى علبتى ٠٠ أستند على وسادة الراحة وأساعد الترقب على البقاء ٠٠ القزم عويس قادم ٠٠ يتعثر فوق درجات السلم ٠٠ جاء يرقص ٠٠ يحمل رغيفا وجبنا : عشاء الثور فانجلى ٠

بعد العشاء يحمل عويس زجاجة فارغة يملأها نبيذا من السوق ٠٠ ويتجرعها فانجلى سرا فى البراد ٠٠ ويتورد وجهه ويحتمل لدغ البعوض ٠٠ ما دام يدفع له ثمن (شقة) فى العطارين وتربية البنتين والولد ٠

٠ الولد هنا ٠٠ أمامه جريدة (الفوس) يقرأها ٠٠ فانجلى قبل اغفاءة الظهيرة يفحص عناوينها ٠٠ ثم يبصق ٠٠ ويغفو ٠

قال فانجلى باليونانية شيئا لابنه ٠

فنهض ابنه وحمل الصينية الى شقة الترزية فوق سوق المسلة ٠٠٠ ولما عاد الابن ٠٠ كان فانجلى قد انتهى من مضغ الرغيف والجبن ٠٠ فمد له كفا مفتوحا ٠٠ يريد الثمن ٠

ثمن التعطل ٠٠ والمرض الملازم لصدر الصبى ٠ رواد المقهى يغطون فى النوم وجريدة الفوس ملقاة بلا عناية ٠

راقبت المنظر : الرشوة فى عينى الأب والابن ٠٠ أنا فوقهما أطير لأراقب الأمر كيف يتم ٠٠ فانجلى يخرج نقوده من جيب داخل لحمه ٠٠ ثم يتلفت حوله ويتناولها بسرعة ويدفنها فى أرض الكف المفتوحة ٠

الآن ينصرف (استليو) الى نادى سبورتنج ليقابل أصدقاءه الخيول والجوكيه ٠٠ ليدعوهم الى الجلوس فى مقهى أبيه ٠٠ ليخبره باسم الحصان الذى سيفوز ٠٠ وينصرف الجوكيه بخيولهم ضاحكين وتضيع نقود فانجلى فى أرض السباق ٠

•• أحسست بالرثاء للرجل •• فغادرت الفترينة وسرت متواريا بجوار حائط حتى وصلت الى البراد فطرقت نافذته •• فرفع فانجلي رأسه :

ـ أصعد الى أريد أن أحدثك ••

ـ ماذا تريد ؟

ـ أزعجني ابني •• وكذلك أنت •

•• اغتصب ابتسامة : قل لي ؟ هل تتبادل أنت وأبي مكانكما ؟ وأصير أنا كرة اللحم في رأسك الصلعاء •• ويصير ابنك •• أنا •• ويصير أبي صينية القهوة •• وتصير أنت أبي •• وأصير أنا •• أبي •• وتصير أنت •

صرخ : كفى •• كفى •• أنت تهرف •• دعني أغذي البراد حتى لا يتبخر ماؤه •

انصرفت •

•• رفض الأصلع عرضي •

•• ومع ذلك فخطوات الساعة الرابعة والأربعين تقترب •• لا تسمعها غير أذني •• الحل في مجاهل الغموض •• لم يعثر على مكاني بعد •• يجب أن أبقى •• هذا هو أمري الى نفسي •• حتى لا أنشطر الى شطرين •

•• مر داخل الفترينة رجل : بطنه المستديرة تسبقه •• اجتازها وهو يقهقه ••وخلع بيريه كان •فوق رأسه وجفف به العرق •• ثم شد ذراعه فأوقف سيل الضحكات •

•• اقتربت منه •• واستأذنته في أن أعرى جلبابه لأرى بطنه •• عثرت عليها عارية منتفخة الى حد الذهول •

سألته : كيف جئت بها ؟

ـ أستعمل مهارتي في الوقت المناسب •• هل تريد واحدة مثلها ؟••

افعل مثلي •

•• كيف أفعل مثله •

•• سعل رجل •• ثم اثنان •• ثم سعل كل الرجال في المقهى •• ونهض مقطوع الساق •• ومد يده باستياء وشد سنجة الترام الذي سار فوق ساقه فتوقفت العجلات •• وعبر الطريق أمامنا حتى وصل الى فترينتي •• ناولني قرشا : باكو بسكوت افطاره •• وعاد الى مقعده •• وصار يخلع ملابسه حتى أصبح عاريا •• وبدت ساقه المقطوعة بشعة ـ أغمض الرجال عيونهم لما رأوها لكنه لم يأبه بهم ـ وتناول أوراق (اللستة) وغطا بها لحمه واختفى بداخلها •

الساق المقطوعة •• طردت كل الرجال •

أنصت في البداية بنصف سمعي لأحاديثهم •• والنصف الآخر ترقبت به وقع خطوات الساعة فوق أعصابي لكي أقرر مصير علبة الماتنيه •• الرابعة والأربعون تقترب •• نهض مشلول يوناني من فوق مقعده •• ركب عصاه •• جاء بها طائرا •• واشترى ٣ معدن •• في الطريق عشر على أنصت الى دقات الساعة المختفية •• فالتقط (اللسته) بلا سبب ودخل في « شق » في المائدة •• اختفى فيه •

•• بجزء واحد من مليون جزء متفرقة من الانتباه راقبته •• وتبعته •• ثم أغلقت باب الشق عليه•• كنت هادئا حتى اللحظة التي مرت ليكن اللحظة جاءت فوقها ، ضغطت فوق أنبوبة الانفجار فصرخت : أوراق الحظ المقتول •• كفن الرجال •• أنا لا أريد أن أكون بائع السكفن وحامل القتيل •• لليوناني المكسور •• والمتسول المقهور •• ولعويس فردة الحذاء •• وللسيد : جذع النخلة المقطوع بلا سعف ولا ثمار •• ضلوعي صارت خشبا •• سمروه في الفترينة •• يحتلني يونانيان •• فانجلي صاحب أرض البراد••وفاسيلي صاحب أرض علبة سجائري سأحرق جذع النخلة المقطوع •• وأمزق فردة الحذاء البالي •• وأهشم العكاز •• وأضع رماد الحريق وهشيم الخشب في لفافة أدخنها عن آخرها لأتحرر من ضغط السرقة اليونانية •

جذع النخلة المقطوع •• يدخل••من كتفه يتدلى صندوق مسح الأحذية :

ـ صباح الخير يا قمر ••

•• قمر في الظهيرة ؟! ••يقولها لأنه يظن أني أحمل في جرابي أشكالا جديدة من الحظ •• يود لو يعثر على أحدها ••

•• ماذا سيفعلون بي ان لم يجدوا في الجراب سوى الوهم والملل والتذمر من الانتظار الطويل ؟ سيصعدون الى فترينتي •• ويخرجونني من العلبة ويمزقون جلدي •• يصنعون منه رقائقا بشكل أوراق اليانصيب لكنها أكثر منها تفاؤلا •• !

٠٠ الساعة السادسة والأربعون ٠٠ تهب رائحتها من بعيد ٠٠ فأصغى الى هدير فورانها ٠٠ لكن التعاسة المتفوقة تمد يدها من داخل العلبة تبحث عن الرجل المختبىء بين علب السجاير ٠٠ تهزه لينهض ويناول زبونا سيجارتين وينجز ٠٠ فتتبعثر يده ٠٠ تتوه فى متاهات الاستسلام ٠٠ تصبح عمياء داخل الركود المعتم ٠٠ فينحنى للزبون : دلنى من فضلك على مكان سجائرك ٠٠ ماشكلها ؟

٠٠ ويبتسم الزبون ساخرا : هاهى سجائرى يا أبله ٠٠ لم اذن تقف وتبيع الاحتراق ٠٠ مادمت لا تعرف علاماته ؟

٠٠ فى لحظة خاطفة برق الألم فى جسد (أحمد) مساعد فانجلى ٠٠ وسقط يتلوى ٠٠٠

قال الرجال لما رأوه : زاره الأعور ٠٠ نفث لهيبه فى المصران ٠٠ اخلعوا له الفوطة ٠٠ وليمت فانجلى الكافر مسلوقا فى البراد ٠٠

٠٠ انصرف أحمد بعد قليل ٠٠ وظل فانجلى فى البراد وحده ٠٠ مثلى ٠٠ لو صرخ الآن من وحدته ٠٠ أفر أنا ٠٠ يؤكد لى بصرخته عدم فائدة الاستمرار تحت ثقل كل هذا العناء ٠٠ لكن ابنه فى الطريق ٠٠ جاء راكبا فرسه ٠٠ سمع طنين الغضب فى رأس أبيه وهو فى نادى سبورتنج فجاء مسرعا ٠٠ وربط لجام الحصان فى باب الفترينة ٠٠ ودخل مهرولا ومد يده الى بطن البراد وانتشل جثة فانجلى الحمراء ٠٠ ونزع منها جلدها ونشره على الحبل ٠٠ من أجل غرابة الحدث قهقه كل المتسولين ومقطوعى السيقان وصفق الأعور منتشيا ٠

٠٠ ظهيرة الساعة الخمسين ٠٠ تنفث لهيبا ٠٠ والبراد فى درجة الغليان ٠٠ وسجين العلبة معلق فى السقف ٠٠ يذكر علامات السجائر لئلا يهرب زبائن قبل أن يعثر على علبهم .. ومتسول يونانى يحتسى الشاى وابن فانجلى يدور بالصينية على زبائن أبيه وهو فوق الحصان ... غادرت علبتى .. نزلت من فوق الرف .. حتى مكان صوت ناداني : انثى !! معذرة ياسيدتى ٠٠ يبدو لى أنى رأيتك فى زمن مضى ... قالت : وأنا كذلك ..

.. جريت الى الأمس .. عثرت عليها فيه .. خارجة من البحر .. تقتحم (محطة الرمل) .. طلبت منى (الال) ٠٠ ناولتها المجلة فمنحتنى بقشيشا .. ابتسمت لها وللماضي .. وللبحر ...

... فى طريق العودة الى الرف .. دخل شبح أسود .. امرأة قادمة من كهف : أحجبة السحرة حول الرأس .. أصابعها تشير لأجساد مصلوبة لتقوم وتمزق حبال الصلب وتنوح .. أشارت نحوى .. ورسمت فوق جبهتى صليبا .. فتبعثرت علب سجائرى .. هممت أن أغضب .. فالسحر لا ينفع معى .. فانقذ فانجلى الموقف .. دعاها للجلوس ..

.. ما كادت تفعل حتى تساقط شعرها .. فأسرع رجال المقهى يجمعونه ..

.. حاولت أن أراها .. لكنها تخفى وجهها فى العتمة وراء نظارة يغطيها السواد امرأة الأمس ٠٠ رحبت بالمرأة القادمة من الكهف .. قالت لها : أم فتحية .. أشتاق لسحرك

.. تمتمت أم فتحية .. تمتمات غامضة ..

.. فانجلى هرول الى .. وقال : أم فتحيه تدحرج أمامها غموض كل الأسرار .. وتزيح من طريق الناس الظلمة الثقيلة ..

.. قلت له : ليتها تعرف سر غموضى ٠٠ وتحمل أثقال ظلمتى ٠٠

ولما هممت أن أدعوها الى سقطت فى غيبوبة عابرة ٠٠ لما غادرتها وجدت المقهى بها بقايا رجال :
الأعور : اسماعيل .. فوق كوم ملابسه المستعملة
.. عويس : فردة الحذاء .. داخل صندوق مسح الاحذية ..

.. كونترول سينما ستراند يجلس فوق قمة تفاخره بحلته الحمراء الزاهيه ... اصطدمت نظراتى بنظرات عويس .. فنهض من داخل الصهد حافيا :ـ راق له شكل الانتظار فى عينى ـ وخطف ورقة يانيصيب من فوق الحبل واتجه الى البراد : فانجلى ٠٠ ياكلب ٠٠ اما ان تقتسم معى هذه الورقة أو آكل اذنك ...

٠٠ وعاد الى مقعده منتصرا بعد أن اغتصب تعريفه منه ٠٠

.. لم أحتمل ماحدث .. فصرخت : ماذا لو تكررت هزيمة عويس ؟ . رد ابراهيم : مقطوع الساق : اخبرنا أين رقم العمر الذى تنتظره يا أخ !

.. أعلم أنه لو عثر على الرقم التائه .. يشترى ساقا جديدة من لحم حقيقي ٠٠ ويبتاع حياته

المسروقة من سوق الكانتو .. لكن أين الرقم الأعمى ياحظ ؟ ــ أين عيناك ؟

.. وددت فجأة لو تخلو المقهى من الأموات .. وينصرف العكاز والساق المقطوعة فى رفقة صندوق مسح الاحذية .. مع فردة الحذاء البالى .. وساق النخلة المقطوعة ..

.. صحت فى أحمد مســاعد فانجلى : انهض .. واكنس كل هؤلاء ...

.. نهض أحمد متثاقلا ــ وكنس روائح المتسولين .. وبقايا عظام الموتى وتطاير حولنا الغبار فى لون أصفر كالموت ..

... بقيت وحدى فى الدائرة الخشبية ...

.. بقيت كرة اللحم وحدها فى الرأس الصلعاء .

.. سجين القاعدة الخشبية .. يتعلق من عنقه فى حبل .. وكفنه أوراق الحظ المدحور ..

.. أوراق اليانصيب كفن مقطوعى السيقان .. كفن عيونهم .. ليل الساعة الخمسين قادم .. يلهث وهو فى الطريق .. مغمض العينين .. يريد عبور البوابة دون أن يلتفت الى أحد .. لكنى واقف فوق قاعدة فترينتى لأستوقفه .. وأدعوه الى كوب شاى وأسأله عن وجهته .. وأطلب منه أن يحملنى فوق عقربيه ويمضى بى الى مكان لايحمل عكازا ولا تلمع فيه عين محشوة ببقايا الملابس .. فانجلى خرج من براده ــ وأنا فوق عتبة الانتظار ــ يرش أرض الموتى بالماء البارد .. يرطب لهم الجو ..يخمد رائحة العفن الكريهة المتصــاعدة من استمرار الأربعين ســنة .. وجثة اللحم دائمة الحركة : تغلى ماء البراد .. تصب ماء القهوة .. تربت بيدها فوق الأمزجة .. والكلمات تخرج من الأنفمتحشرجة .. قطعة اللحم الزائدة .. تسد مجرى الأنف .. والثور بداخله يخور .. لا يدرى ماهو لون العالم خــارج البراد .. من المقهى الى (العطارين) .. يموت العالم .. ثم يبعث .. يموت الانسان ثم يخاق .. والصــينية فى مكانها فوق المائدة .. تغفو ثم تصحو .. والكرة خلف رأسه والجثة فوق (الناصــية) الانفاس تتصــاعد .. تتدحرج خلف بعضها والأصابع فوق بقايا العفن تنتزعه من فوق الموائد .

.. ياعلبة الماتنيه أجرى اليك لاهثا وأنفاسى لهيب .. وتشتعل سيجارة ثم سيجارة حتى تصير علبتى رمادا .. وأتلفت حولى وأموت ..

.. فجأة وجدت رجلا مهيبا يدخل المقهى .. وقامته تطول .. وتطول حتى صار فى طول كل الرجال ...

عرفت من هو : الحزن .. أقبل الآن بشاربه الوقور يُحكم بيننا .. هنا أحسست بدافع يجعلنى أصعد الى سقف الفترينه ..

.. وقفت أرتجف لحظة .. ثم بدأ صوتى يخرج بلا ارتجافة :

ــ يا أصــحاب السيقان المقطوعة .. يامتســولى الشوارع الخلفية يا أصحاب صناديق مسح وجوه الاحذية .. جئت اليــكم من بعيد لأمزق حبال الغموض الذى يقيدنى .. لــكنى وجــدتكم تبكون جثة ميت معلقة فوق حبل غسيل .. جئت أبحث عنكم .. فصرت جلاد انتظاركم ..

.. الآن لا يمكننى الانتظار .. فضجيج الواحـدة والخمسين مقبل .. لذلك سأضطر لمغادرتكم .. أبحث عن علبة أخرى .. وأتوارى داخـل نســيج زمن آخر ..

.. هاهى العجلة دائرة أمامى .. سأتعلق بها .. الفترينة والعلب لــكم .. اللفافات لكم .. اشعلوها كلها .. فانجلى فى براده .. ابنه فوق حصانه .. احتوينى يا دقات الســاعة .. انتهى الامر .. لقد احتــوتنى .. وداعا يا رأس الــكرة الصلعاء وداعا أيها الانتظار العقيم .



تعقيب على قصة مخلوقات براد الشاى المغلى

بقلم : يحيى حقى

من يعرف القصص التى اتيح للأستاذ محمد حافظ رجب نشرها (واحدة منها فى عدد سابق من المجلة) لن تفاجئه هذه القصة • انه يتميز باسلوب يدل عليه ويكاد هو ينفرد به ، واعنى بالأسلوب : المضمون والشكل واللغة • اسلوب يعد فى نظرى من نسل المذهب السريالى الذى ظهر فى أوربا حين ساد شعور بالحيرة والتمزق والضياع بعد الحرب العالمية الأولى • ثار على الرومانسية والواقعية معا وغطس لأذنيه فى عالم الأحلام واللاوعى والتلقائية ، يزعم انه يرفض احناء الراس للنفاق والخداع الأجتماعى ،له احتقار للمعنى المفهوم لصالح غموض كاشف لعوالم أخرى ، الوضوح فطرى ساذج والمنطق وهم متعارف عليه، كلاهما يهوى محطما الى الارض لحظة سفوره ، ان كان لهما قدرة على التوصيل فقدرتهما على التغلغل مهددة بالتبدد السريع او على الأقل غير مضمونة الأثر ، انه فى النهاية ينتزع الناس من نفوسهم لكى تبرز لهم دمامة الواقع المألوف وزيفه ، جزاؤه الأكبر هو نشوة الحرية وتملك القدرة والحركة •

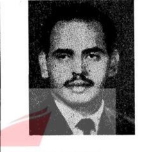
وكما كان العهد بالمذهب السريالى فان اسلوب محمد حافظ رجب لابد له أن يفرض الفرقة فى الآراء ، بل لعل هذا هو مطلبه اللذيذ ، سيشجب أناس هذا اللون من الأسلوب ولا يرون فيه الا هذيانا متصلا لا طائل وراءه ، ويطالبون بسد المسالك امامه خشية ضرره اذا تفشى وسيرتاح له اناس آخرون ويرونه معبرا أصدق تعبير عن مشاعرهم ، وله عندهم فوق ذلك طرافة الجديد الذى ينقذهم من رتابة القديم الذى كاد أن يبلى هو وعصره ، وسيقرأه أناس غيرهم باستخفاف ولا سخط ، من باب التسلية ، ثم يسلكونه بين بقية التقاليع ، كالتجريد واللامعقول•

ولكن مهما يكن الراى فيه فمن الخير ان نفسح له صدرنا ، فلو نبذناه فى محجر صحى فمات لتعالت صرخاته بأنه قضى شهيدا ، ناقص عمر ، ينبغى ان نرخى له الحبل لنرى ويرى هو معنا الى ان يسير فى الأرض او فى العمر ، ويكون الفيصل بيننا وبينه فى يده ، ولا ظلم ، يقبل معنا قدره اذا تعثر ونفق ، ونقبل معه قدره اذا انطلق وعاش ، وربما يكون الأصدق فى الحكم عليه هو جيل لم يبزغ بعد •

قرات هذه القصة فتراءت فى ذهنى لوحة من تصوير دالى ، فنحن فى عالم مفتت مشوه ، اهله قزم ، واصم ، واعور ، ومقطوع الساق واصلع وامراة استحالت الى دمية ، ومن عنوان القصة وحده نفهم اننا مقبلون على عالم متداخل ، تختلط عناصره فى عجينة واحدة وتتبادل وظائفها • تداخل وتبادل ليس بين الاحياء فحسب بل بين الاحياء والجماد • انسان يسكن علبة سجائر ، وانسان يدخل براد شاى او ساقا خشبية ، وانسان ينفذ من اذن انسان الى داخله ، حتى البيرة مختلطة بالشاى • والأشخاص مذكورون فى احوال قليلة بالاسم ، وفى احوال كثيرة بالوصف ، ومرة بحرف واحد هو (س) رامزا الى ان كل الشخصيات مبهمة مجهولة •• هذا التبادل والتداخل والتجهيل هو عودة لهذا الغموض الهذيانى الذى نبع منه العمل ولكن بصورة أحد ، أنظر قوله : هل تتبادل انت وأبى مكاننا ، واخيرا انا كرة اللحم فى رأسك الصلعاء ، ويصير ابنك انا ويصير أبى صينية القهوة وتصير انت أبى واصير انا ابى وتصير انت •• نفس مهددة بالفصام والتشتت لعجزها عن التماسك والتوحد •



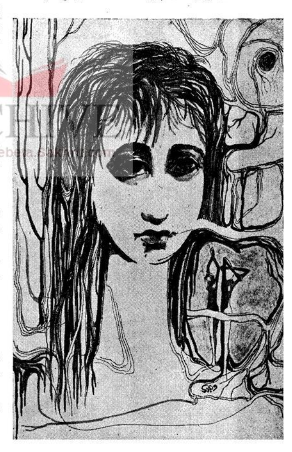
بقلم : كمال ممدوح حمدى



رفيقان لم تجمع بينهما الفة أو محبة ، ومع ذلك فكلاهما يتشبه بالآخر ، تمثال وانسان جامدان غارقان فى الصمت الا من نبضات خافتة تتعثر فى قلب احدهما ، الأول واقف ساكن ، يقدم احدى رجليه كأنه واقف وهو يسير ، أو كأنه سائر تجمدت فيه الحياة قبل أن ينقل قدمه أمام الآخرى، نظراته حادة ولكنها متصلبة شاخصة ، لا يلاقى آخرها قوس الأفق فى منتهاه ولا يسقط الى الأرض ، كأنه فى انتظار قادم سيأتى من بعيد ، من حيث لاحيث أو من وراء الوراء (كما قال بذلك أستاذ فنان) . والآخر جالس على حافة القاعدة الحجرية، وقد أودع رأسه لراحتيه يخشى أن تعصاه وقد ضاقت بالحركة فتركها ليدية توجهانها ، ونظراته قلقة سريعة الحركة ، لا تثبتان على اتجاه واحد ، تنظران الى كل شيء ولا تريان شيئا ، فاذا ما توقفت عيناه لحظة عن الحركة خيل اليك أن العالم كله قد انحصر فى نقطة صغيرة تحتويها نظرته ، أو كأنك به يتأهب لمفاجأة ستبفته ، سيرى العالم كله ينهض فجأة من حيث استقر بصره . ومن خلف هذين الرفيقين المنتظرين ـ وقد طال بهما الانتظار ـ أشجار عارية خلع عنها الشتاء دثارها وترك الأغصان حيرى مبعثرة فى كل اتجاه ، كأنها شعاب فكر ضلت عن قصدها ، وسماء رمادية تسربلت بوشاح من ضباب متزاحم ، وشمس تصحو ثم تغفو كلما مرت بها اسراب الضباب ، والى اليمين مارد طويل يلوح بذراعيه ليعد دقائق الزمن ويضرب أجراسا رهيبة كلما مر ربع ساعة ، والى الأمام مبنى عتيق طالما هرع اليه عاطف ـ هذا القابع عند حافة القاعدة ـ طلبا لكتاب أو رغبة فى لقاء ـ عندما كان طالبا بكلية الآداب .

وتدق ساعة الجامعة معلنة أن ربع ساعة آخر قد مضى ، فينتفض أحمد وينظر الى ساعته ، وتخرج أنفاسه كلها دفعة واحدة ثم تلوح منه نظرة على المكتبة أمامه فتعود قطرات الذكريات الى مواصلة الهطول ..

كنا نطلب كتابا واحدا لنقرأ فيه معا ، ويتمازج العقل والعاطفة فنقرأ أحيانا في صمت ، ونتجاذب الحديث في خفر أحيانا أخرى دون أن نرفع أبصارنا عن صفحات الكتاب حتى لا يفتضح أمرنا والمكتبة تغص بالنزلاء .. وكانت أحاديثها عذبة كقطرات الندى تتساقط على صفحة الروح فتجدد فينا الحياة ، غير أن المشكلة أزلية عجزت دونها كل العقول ، قائمة لم تزل كالجبل تتحدى جبروت الانسان ، الحقيقة تائهة هائمة ، وقدرة الانسان وذكاؤه قد اعاناه على اختراق العالم ومعارفه قد غطت الأرض وطافت بأرجاء السماء ولكن سهامه سقطت وتحطمت أمام غشاء رقيق يكاد لا يكون ، يفصل بين ظاهر الانسان وبين باطنه ، بين اقواله وأفعاله وبين سرائره وأفكاره ، وظل السر مستغلقا عليه داخل هذا الغشاء الرقيق ، والستر مابين الصدق والكذب قد سقط وتميعت بينهما كل الحدود والفروق حتى ليكاد المرأ يعتقد أنهما قد اتفقا وتآمرا على الانسان ، والكذب البارع اميل الى التصديق من صدق ساذج ، وأنا لست ميالا بطبعي الى الشك والظنون ، ولكن ينبغي على الانسان أن يكون حريصا ، وسوء الظن عصمة ، لنا العذر ، كيف نستطيع أن نميز بين انسان طيب ساذج وبين خبيث بارع وقد خلق الله الانسان دون طابع يدمغه كالذهب ، يفرق بين الغث والثمين ، أنا لا أشك في أنها كانت صادقة كل الصدق ، أو من يدرى .. ربما كانت بارعة .. وكثيرا ما امعنت النظر في عينيها فاسدلت ستائرها ولم تقو على مواصلة المهزلة ، لماذا لم يوهب الانسان قدرة على فهم سرائر النفوس مثلما يفهم احاديث اللسان وعند ذاك تختفي كل الشرور .. ولماذا تتأخر الحقيقة فلا تأتي الا بعد أن ينال الباطل مرامه .



في السنة الأولى كانت تسألني في سذاجة :

ــ بلدكم اسمها ايه ؟

وقلت لنفس ساعتها :

ــ (لو أني أعرف اسم البلدة التي نزحت منها اسرتها الى القاهرة لقلت انى منها على الفور ، أو اعرف من اين جاءت أمها أو وفد ابوها)

الزنكلون شرقية .

ورددت اسم البلدة مرتين ، لعله قد آذى سمعها :

ــ (اعوذ بالله .. هل هذا اسم بلد ..) ياله من اسم موسيقى جميل .

ــ (ربما .. من يدرى) اشكرك

ــ هل لك اخوة ؟ .

ــ (انها تحاول أن تعرف كل شيء عني ، هي تهتم بي ولا شك ، هي تحبني ..) هم كثيرون .. ولي أخوات كثيرات أيضا .

وحدجتني بنظرة طويلة ، ثم فارقتني عيناها وغابتا قليلا :

ــ (الأخوات كثيرا مايكن سببا في المشاكل ، انهن حموات من نوع أسوأ) الأخوات عطوفات بطبعهن وفي رأيي أن اليتيم هو من لم تولد له أخت ، انني أتمنى ان أرى أخواتك وأشعر اني احبهن قبل أن اراهن .



كانت تجاملنى كثيرا ، او لعلها كانت صادقة .. كثيرا ما تختلط الأشياء على الانسان فلا يتبين حقيقتها . قلت لها :

ـ اسمح لك بأن تحبى اخواتى ماشئت أما أخوتى فلا .

ـ اطمئن فأنا لا أفكر فى هذه الأمور ، كما انى لا اعجب بغرور شباب اليوم .

ـ ولا حتى ...

ـ عاطف ، الأفضل أن نقرأ ..

وتصحو الشمس فتطل بأشعتها من بين اسراب الضباب .

ويطبق عاطف جفنه اتقاء لمباغتة الضوء ، ثم تعود بعد لحظة فتغفو .

ونواصل القراءة .. لكننا لا نقرأ .. واعيد عليها السؤال من جديد بطريقة أخرى :

ـ ألا تعترفين بوجود الحب ؟

ـ كلا

ـ أما أنا فأحب .. أحب واحدة فقط ..

ويطول صمتها ..

ـ (أنا طبعا .. أو من يدرى ربما كانت فى حياته فتاة أخرى .. قالت لى أمى ذات يوم : الرجال كلهم ذئاب مخادعون .. وقالت لى كل الرفيقات أنهن تلقين هذه النصيحة عن امهاتهن ، والحقيقة أن الذئاب هى المرادف الوحيد الذى تستعمله الأمهات فى تعريفها الرجال أمام بناتهن .. لعل كل امرأة قبل أن تصبح أما كان فى حياتها قصة نسجتها يد الخديعة ..) عظيم .. ويالها من فتاة مسعدة .

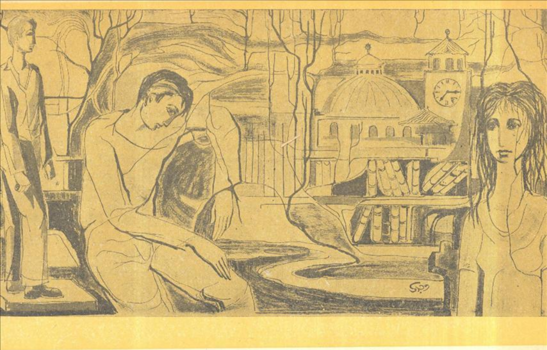
اعطيتها الفرصة لتعبر عن نفسها .. ولكنها قالت كلمة ثم لاذت بالصمت ، واللائمة على الأم التى تحرص دائما ان يكون درسها الأول لابنتها عن الذئاب ، والفتاة لا تذكر هذا الدرس الا بعد ان تتعثر فى شباك الحب .

ـ ... ، وانت تعرفينها اكثر منى .. ، هى اقرب لك منى اليك الآن على الرغم من انه لا تفصل بيننا اية مساحة ..

وتحمر وجنتها بلون الشفق ، وتتلعثم حركاتها ، وترتبك أنفاسها ، وتشيح بوجهها فتكشف عن جيد أبيض كالثلج ، ثم تدفن نظراتها الحائرة فى الكتاب وتواريها خطوطا غير واثقة تضعها عفوا تحت بعض السطور .

كانت اسئلتها ساذجة أحيانا ، وكانت تجاملنى كثيرا . أشعر الآن فى قرارة نفسى أن أحاديثها لم تكن صادقة كلها كل الصدق ، ومع ذلك أحبها وقد كنت أصدق أكاذيبها .

وتدق ساعة الجامعة لتعلن أن ربع ساعة آخر



قد انقضى وتنبعث من قلب عاطف زفرة طويلة تصهر هواء الشتاء المتجمد ، ثم ينظر الى ساعته وقد ران اليأس فى نفسه : فات الميعاد ولم تأت بعد ولكنها ستأتى حتما .

وفى سنة ثانية حاولت فى أول لقاء لنا عقب عودتنا من الاجازة الصيفية أن استدرجها الى أحد المدرجات الصغيرة بالقسم لنلوذ بالهدوء بعيدا عن اعين الزملاء ، لم تكن الدراسة قد بدأت بعد والفرصة مواتية لحديث صريح ينفض عن نفسى أعباء شوق بنوء بها قلبى . كنت اتصور أنها ستلاقنى بالاحضان ، ولكنها كانت تبدأ دائما من الصفر كأنها فى الاجازة قد اشعلت النار فى حصاد العام المنصرم ، وتتسرب بعض الشكوك الى نفسى ، غير انى سرعان ما كنت انتقل بها الى نهاية الشوط الذى قطعناه فى العام الماضى ..

وتنقطع اسراب الضباب فتصحو الشمس وتنقطع قطرات الذكريات ثم تعود الشمس بعد لحظة فتغفو .

وفى نهاية سنة ثانية استطعت أن اقنعها بعد لأى وتردد بالخروج معا الى حديقة الكلية ، نفس هذا المكان ، لم يتغير فيه شىء ، ولكنه كان قبل اكثر جمالا وسحرا ، وكانت الأشجار والأزهار تتزين لنا بأبهى حللها وتتعطر بعبيق ساحر مصفى ، والنسيم اهدى نشوته . كان الصمت يطبق علينا احيانا فيكاد يحطم نفسينا ، وتحار بينا النظرات فلا نجد ما نقول ولا نعرف ما نريد والقلوب تتنازعها السعادة وقد اختلطت بالحزن على فراق لم يقع بعد، والأمل يشوبه الخوف من مستقبل لا نعرفه . كانت عيناها عوالم شاسعة تحار فيها النظرات ثم تتكسر فتكشف عن دمعة حائرة تكسو عينيها لمعانا شديدا فتنطق بغير حديث .. هل كان كل هذا مزيفا ! كيف يمكن أن يمثل انسان دورا ما فيأتى ابرع من الحياة نفسها ! لابد أنها كانت صادقة كل الصدق. تراها اذن قد نسيت حبها !. محال كيف أصدق أن الحب يهوى الى غاية ضعفة بعد ما يبلغ ذروة تأججه لقد بدأت افقد ثقتى بكل شىء واختلطت عندى كل المقاييس ، ويقولون انى . شكاك .. حقيقة أن الغموض كان يغلف نبرات صوتها أحيانا وكثيرا ما لمحت دبيب الملال يتسرب الى نفسها عندما اطيل الحديث عن نفسى بعض الشىء ، لم أكن أقصد بالطبع أن ازهو بنجاحى وتفوقى ، ولم ارمى الى ايلامها لأنها أقل منى وانما صورت مزاعم، أنها ستشاركنى سعادتى ، والعتب على العشم ، ولست مخطئا فى ذلك ، المحب لابد أن يسعد لحبيبه أكثر مما يسعد لنفسه هذه احدى مبادىء الحب . ربما كانت ترانى عقبة أمامها تعوق تقدمها

الى أول الصـف ، ولكن أين التضحية من أجل المحبوب ، وهل كان يتحتم على أن اضحى أنا أيضا فأفسح لها الطريق ؟ لم أكن استطيع ، ثم ان الكفاح حق مشروع للجميع ، ولم احرمهـا منه ٠ ولكن بالرغم من كل هذا احبنى قلبها ٠٠ كانت تحبنى حبا جما ، ان احساسى وفراستى لا تخوناني أبدا كما أننى لست من ذلك النوع الذى يقع فى الشباك عندما يراها أو تجذبه النار فيحترق بها ، علمتنى الأيام أن أكون حذرا دقيقا ، وكانت تلوذ بالصمت دائما لأنها تخجل من التعبير عن نفسـها ، لا شيء غير هذا السبب وهذا أفضـل عندى من بعض أحاديثها لأن التمثال عندما كان يتكلم كان يقول لى فى قسوة : أنت انسان يعذبك الشك ، كم كانت قاسـية ، وكم ضاقت بى ٠ كان ينبغى ألا اعرى نفس أمامها فأكشف لها عن مشاكلى وكثرة الاخوة والأخوات حتى ترجح كفتى أمـام من تقذف بهم الأطماع معى فى منافسـة رخيصـة ، لا بأس ، ان مستقبلى وحده كفيل بأن يقدمنى على كل منافس وهل هنـاك من يعلو قدره على قدرى ، وعيـون الفتيات كلها تتطلع الى ، وتستجدى نظرة الرضى وأنا لا أهتم بهذه الأمور ، ولقد احبتنى بالفعل ٠٠ ولماذا لم تأت اذن ! الأمر يدعو للشـك ومع ذلك فلأنتظر قليلا ٠٠ محال أن تتأخر اكثر من هذا ٠

وبعد حديث طويل عن الحب وعن مستقبلى عندما اصبح استاذا بالكلية انفجرت فجأة :

ـ ملهاش نهاية الحكاية دى ؟

ـ (نهاية هذا الحب طبعا ٠٠ تراها كأى فتـاة لا تحب الا لكى تتزوج ، أو لتضمن أكبر عدد من المرشحين لكرسى العرش ؟ !) نهاية ايه ؟

ـ (يحاول أن يتغابى) لا شيء !

وتغيب ببصرها الى عالم آخر

ـ عندما انجح فى العام القادم ٠٠٠

ـ انه لا يجيد الا الحديث عن نجاحه وان هذا النجاح ليثيرنى فلولاه لكنت الأولى ولكنه انتزع منى هذه المرتبة ، وفى القسم مكان شـاغر منذ سـنين لوظيفة معيد ، كم كانت نفسى تتـوق الى هـذه الوظيفة ولكنه سيكون سببا فى حرمانى ولا شك ٠٠ حقيقة ان نجاحه ليثيرنى ٠٠)

ـ ٠٠ ، سأتقدم لخطبتك ، ٠٠٠

ـ (٠٠ ، ولكن لا بأس ، الانسان اذا أحب فلابد أن يسـعد من أجل من يحب ولو كان سيبنى تلك السعادة على أشلاء نفسه ، ٠٠)

ـ ٠٠ ، ولنتفق على أحدى دور السـينما نذهب اليها يـوم الجمعة من أول كل شـهر كى أراك وتريننى ، ٠٠٠

ـ (٠٠٠ ،ولم لايسعد نفسه هو ببعض التضحية ٠٠ لماذا لا يترك لى هذه الفرصـة فهو رجل وقد يجد عملا فيما بعد ، ٠٠ لا ، هذه فكرة خيالية بعيدة ، وقد تتغير الأحوال فى السنوات القادمة ، ٠٠٠)

ـ ٠٠ ، وفى العام المقبل سأبحث عن حجرة فى حارتكم حتى اراك اكثر الوقت ، ٠٠

ـ (٠٠ ، مسكينة هى الفتاة ٠٠ عليها أن تنزوى فى عقر دارها وتنتظر فرصـة العمـر ، وان هى ضيعتها فقد لا تعود اليها أبدا ،أما الرجل فالفرصة فى يده دائما متى شاء وجدها ٠٠ أليسـت المرأة معذورة لو تزوجت أسفل الناس أجمعين ، أو اذا تزوجت من لاتحب خوفا من ضياع فرصتها ، أواذا أحبت كل الرجال أو ظاهرتهم لتضمن أكثر الفرص؟. ويصمون المرأة فى النهاية بالخيانة والغدر ان واتتها الفرصة مع غير حبيبها ٠٠)

ـ ٠٠ ، ولقد اصبحت لا أطيق فراقك ، ٠٠

وتدق ساعة الجامعة معلنه مرور ربع ساعة آخر ٠٠ فات الميعاد ولم تأت بعد ، ولكنها ستأتى حتما ٠ وفى سنة رابعة كانت أكثر غموضا عن ذى قبل ، وكانت تفشل احيانا فى اخفاء بعض اسرار نفسها،



وكثيرا ما انزلق لسانها بفلتات كانت تبذل قصارى جهدها لاصلاحها ..

ــ هل انت سعيدة ؟

ــ فى منتهى السعادة ، سأرحل عن هذه الكلية ، وستنتهى الدراسة المملة .

ــ لم يبق غير أيام قلائل وتنتهى الدراسة ، وسأعمل معيدا بالكلية وسنحقق معا كل الآمال .

ــ (كان المقرر أن يكون هذا المكان لى) لولاك ، (لكنت الآن أسعد حظا ..ولكننى سأخرج من سجن الكلية الرحب الى سجن المنزل الضيق ..وسأنتظر طويلا ليأتى دورى فى العمل ، والأنتظار مر ، لا بأس ، كله يهون فى سبيل الحب ، وهو يحبنى لا شك عندى فى هذا ، ولم لا .. يقولون انى جميلة ، وآلاف الرجال تخطب ودى ، والخطاب كثيرون على الباب ، الف من يشميل على كتافه ، ومع ذلك لاأضمن أحدهم ، ...)

ــ لولاى لحدث ماذا ؟ !

ــ (ماذا قلت .. لعنة لهذا اللسان) لولاك ، أقلت لولاك ؟ اعنى لولاك لكانت الكلية فى أزمة الآن .

ــ (ربما !) لن ارحل الى البلدة فى أجازة هذا العام .

ــ (.. ، وعندما أحس الخطاب أننى أوشكت على الفراغ مندراستى راحوايحومون حولى ،ولكننى سأنتظر لن اتزوج قبل أن أجد عملا ، الحياة تتطلب مزيدا من الكفاح ، وقد يكون انتظار العمل سببا فى ضياع فرصة العمر ، ..)

ــ .. ، لن أطيق البعد عنك ، ..

ــ (... ، والانتظار مر وممل ، والخطاب متلهفون دائما لايفكرون فى الخطبة الا ساعةيشرعون فى الزواج، لن ينتظروا ، وكلهم أحسن من بعض ، والخارج مفقود ، ...)

ــ وأول شىء سأفعله بعد ظهور النتيجة هو أنى سأطالب أباك بتحقيق وعده لى ، وسنبنى عشنا السعيد ، ...

ــ (... ، وهذا الغارق فى أحلامه الوردية سيبنى عشنا السعيد بمبلغ خمسة عشر جنيها .. لعله لا يدرك انى لن أعمل قبل أن تمر بضع سنين ، والحب وحده لا يكفى لثلاث وجبات ، كان ابى محقا عندما سأله : وهل لك دخل أو عقار ؟ .)

ــ .. ، لقد بدأت أضيق كلما رأيت شابا تقدم لخطبتك أو رأيت قريبا أو صديقا لكم يدخل منزلكم .. لقد اشقيت نفسى بنفسى عندما انتقلت الى حارتكم ..

ــ (واشقيتنى أيضا ، لن انسى انك كنت يوما سببا فى ضياع أعذب أمانى ، فان تزوجتك أشقيت نفسى بذلك ، سأتعذب كلما خرجت لتذهب الى حيث كان مقررا أن أذهب أنا ، وربما كان بمقدورى أن التمس سلوتى فى احساسى بنوع من التضحية لولا أن الفقر والجنيهات الخمسة عشر والأخوات الحموات والاخوة الكثيرين المحتاجين كل هذا سينتزعنى من غمرة السعادة ليقذف بى الى أغوار البؤس وسيذكرنى بأنى ادفع غاليا ثمنا لبضاعة بخسة ، ..)

ــ لماذا لا تتكلمين .. ؟

ــ (.. ، وهو لايجيد الحديث الا عن نفسه ، شديد الاعتزاز بها ، بل هو متكبر متعال وغدا سيرانى صغيرة ، سيتحدث الى من علياء احساسه بالأستاذية ،سيرانى طالبة صغيرة ويحادثنى حديث رجل الى امرأة ، قادر على كل شىء وعاجزة دون اى شىء بينما أنا اكثر منه ذكاء وفطنة ، وكل ما يتميز به وليد ظروفه كرجل مطلق اليدين ، وان كان حظه قد اعانه مرة فانتصر على فلن اترك له الفرصة مرة أخرى ليمارس كبرياءه معى ، ..)

ــ اقلت لك شيئا اغضبك ؟

ــ (... ، والحب يأتى بعد الزواج مثلما يأتى قبله لا توصد دونه أبواب ، ...)

ــ غادة !

ــ (.. ، ومستقبل الضباط مضمون ، لو كنت أعرف أن أحدا كخالد سيتقدم لى لما تركت للحب فرصة يعبث بفؤادى ، ولقد كان حبه عبئا يرزح قلبى تحت انوائه ، وينوء بأرزائه ، فرضة على فرضا واستسلمت له أولا ثم استحال على أن اتراجع ، ومع ذلك لم أظلمه وهو لا ينكر أنى أدخلت السعادة على قلبه طوال أيام الدراسة وكفاه هذا ثمنا لبضاعة رخيصة ، ...)

ــ غادة ! الا تعرفين غير الصمت ؟

ــ (.. ، قالت لى بعض الصديقات المجربات ان الفتاة تحب أول شاب يصادفها لتعوض نوعا من الحرمان ، ولكن الحب ما بينهما لا يكون صادقا .. .. ، لو أنى تفرغت لدروسى لكان خيرا لى ، ..)

ــ غادة لم لا تتكلمين .. هل اغضبتك فى شىء ؟

ــ كلا .. كلا (بل أغضبتنى فى كل شىء وحطمت نفسى) الأمر كله أنى لا أحتمل كل ما أشعر به من سعادة فلطالما انتظرت هذا اليوم .)

وتصحوا الشمس فجأة فتطل بأشعتها من بين أسراب الضباب المتلاحقة ، وتدق الساعة لم تأت

بعد ، ينبغي أن ارحل أو فلأنتظر ربع ساعة آخر ، فات الكثير فلأنتظر قليلا ربما جاءت ٠

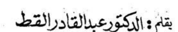
وعندما قابلت أباها أحسست أنه يضيق بي ، كان بنفسه أمر يحاول أن يخفيه ، عندما سألني أن انتظر الى أن تجد ابنته عملا كان يحاول أن يبدو حريصا على مستقبلنا معا ، ولكن طريقته في الافصاح عن هذا الحرص كانت تفضح حقيقة أخرى ، وعندما سألني ألا اتردد على منزلهم برر لي ذلك بأنه حريص على سمعة ابنته ولابد أن أكون اشد منه حرصا أنا أيضا على من ستكون زوجة لي ، فتركت لهم الحارة كلها وانتظرت أن تجد ابنته عملا ٠
وتصحو الشمس ثم تغفو ٠

ما قيمة الانسان ؟! أنه ناطق ؟ ٠ وما جدوى الكلام اذا كنا لا نستطيع أن نصل الى الحقيقة ؟ ان الكلام كثيرا ما يكون مطية للباطل ووسيلة للتضليل وخير للانسان في هذه الحالة أن يكون أبكم لا ينطق ٠٠ التمثال أفضل منه في هذه الحالة ٠

وبالأمس عندما قابلتها في الأتوبيس برفقة أخيها والضابط الشاب أحسست كأن صاعقة قد شجت رأسي وتجاهلني أخوها وتلعثمت حركاتها ، وهي تقدمني للرفيق الضابط ، عاطف زميل الدراسة ، وقدمته لي : خالد صديق أسامة ، ولم أع ما تقول كل الوعي وتمنيت لو لم يضيع على أخوها وصديقه هذه الفرصة لأعرف منها لماذا لم تسع الى لقائي طوال هذه المدة ولكن لابأس لنلتق غدا ولتتزرع بحجة من أي نوع لتبرر ذهابها الى الكلية ، وكثيرا ما جاءت بحجة ارجاع بعض الكتب الى المكتبة وعندما تأتي لن اغتفر لها كل هذا الغياب ، سألومها لوما مبرحا ، ثم اداعبها بحديث اطراء ناعم ٠ وعندما همست في اذنها بموعدنا اليوم تظاهرت بأنها لا تسمع وابتعدت عني وحاولت أن تفتعل الحديث مع أخيها ، لن اغتفر لها كل هذا ، وعندما غادرت السيارة كان لا يزال ثمة خيط يربطني بها ويشدني اليها كلما ابتعدت بها السيارة ، فكأني مشدود الى السيارة تجرني على وجهي ، لم أشأ مغادرة السيارة ولكني لم احتمل ، ولطالما انتظرت أن يمضي الأمس ، ولشدما كان الأمس بطيئا ثقيلا ، ولكم كنت متلهفا على الحضور هنا قبل الموعد بساعات غير قلائل ٠

وتنحدر الشمس نحو المغيب ، وتتلبد السماء بالغيوم ، وتروح الشمس في غفوة فلا تفيق ، ولكن التمثال لا يزال قائما والساعة تدق ولا تتوقف وهي لم تأت بعد ٠





هذه القصة قصة ممتازة من الناحية الفنية فقد وفق الكاتب فيها توفيقا كبيرا من حيث بنائها وسردها واطارها الفني العام ٠ وفق في هذه المزاوجة البارعة بين التمثال وشخصية الراوي وفي وصفه لمظاهر الطبيعة والحياة من حولهما بطريقة تعمق احساس القارئ بمأساة تلك الشخصية ٠ ونجح في كثير من التعبيرات والصور الأصيلة كما نجح في هذه المزاوجة البارعة بين الحقائق النفسية الداخلية لشخصيتي القصة وبين الأقوال الزائفة التي كان يجري بها لسان كل منهما ٠

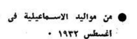
على أنه مما يؤخذ على القصة أنها تعالج موضوعا مطروقا يتمثل في سيطرة النزعات المادية وضرورات الحياة على المعاني الانسانية النبيلة ٠ ولكن مما يحمد للكاتب انه اضاف شيئا جديدا الى ذلك الموضوع حين اقام في نفس الفتاة صراعا داخليا بينها وبين صديقها فاحست بانه منافس لها في العمل الذي كانت تتطلع اليه ٠ وقد أضفى ذلك العنصر قدرا غير قليل من الجدة على الموضوع المألوف ٠ ومما يؤخذ عليها كذلك أن هذا النضج الذي يتمثل في سرد الراوي لذكرياته وتعليقه على طبيعة النفس الانسانية واحوال المجتمع يتعارض مع ما يبدو من سذاجته التي لم تستطع أن تكشف زيف هذه العلاقة خلال سنوات أربع ٠ وان كان الكاتب قد حاول ببراعة أن يزيل هذا التناقض بحديثه اللبق — على لسان الراوي — عن اختلاط الزيف والحقيقة وعجبه من هذا الاختلاط ٠

والقصة رغم كل ذلك تنبيء عن موهبة قصصية أصيلة لا ينقصها الا التمرس بتجارب من صميم الحياة والمجتمع ٠



بناقص واحد!

بقلم : محمود دياب



- من مواليد الاسماعيلية فى ١٠ اغسطس ١٩٣٢ .
- تخرج فى حقوق القاهرة عام ١٩٥٥ .
- صدرت له : « خطاب من قبلى » مجموعة قصص ، « الظلال فى الجانب الآخر » رواية ، « البيت القديم » مسرحية ، « الزوبعة » مسرحية .
- فاز باحدى جوائز نادى القصة عام ١٩٦٢ ، وجائزة مؤسسة المسرح فى نفس العام عن مسرحية ذات فصل واحد . كما فاز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى لعام ١٩٦٣ .
- ترجمت له بعض القصص القصيرة الى اللغة الفرنسية ، كما ترجمت له قصة قصيرة ضمن مختارات جامعة اكسفورد من القصص المصرية عام ١٩٦٣ .
- عرضت مسرحيته « البيت القديم » على المسرح الحديث ، وتعرض مسرحيته « الزوبعة » فى الموسم القادم على المسرح القومى .
- نائب بادارة قضايا الحكومة .
- ارمل .



الحلة رمادية ، ورباط العنق أحمر ، منقط بالاسود . أما الحذاء فأسود جديد ، لم يلبسه غير مرتين من قبل . وياقة القميص منشأة . قبل أن يغادر البيت ، كان قد وضع بجيب سترته منديلا ظهرت أطرافه فى شكل اهرامات ثلاثة ،غير انه قبل ان يصل محطة الاتوبيس انتزعه واخفاه .

قليلا ما يهتم بهندامه ، ولكنه اهتم بهندامه هذا اليوم بصفة خاصة ..... « فللضرورة احكام ».

منذ اللحظة التى بدأ فيها استعداده للخروج ، وهو يردد هذه العبارة . قالها وهو يحلق ذقنه ، اذ لاحظ شعرة بيضاء متدلية فوق أذنه اليمنى ، فانتزعها ، وتحسس جانبى رأسه حيث تكاثرت الشعرات البيضاء ، وحدث نفسه ، بأنه اذا كان لا يملك ما يفعله ازاءها كلها ، فهو على الأقل لا يسمح لواحدة منها ان تتدلى على اذنه فى وضع خاص .

وقالها وهو يطوق رقبته بياقة قميصه المتخشبة، ثم وهو يهتم باختيار رباط العنق الذى يتناسب مع الحلة ومع الجورب الجديد ذى اللون الاحمر القاتم .

وهو وان لم يفكر من قبل فى أى الألوان أحب اليه من غيرها ، الا أنه لا بد من أن يفكر اليوم فى تناسب الالوان . فلقد آن للالوان أن تتناسب على جسده .

بعد أن استعد تمام الاستعداد لمغـادرة البيت وقف ينظر الى صورته فى المرآة ، ويعيد النظر المرة تلو المرة الى ثيابه ، وعقدة رباط عنقه ،ويفكر انه كان لابد من وجود ـ شخص آخر يحكم على مظهره ، وخاصة فيما يتعلق بالالوان ، قبل ان يبدأ رحلته ، لكن هذا الشخص لا وجود له ، ولو كانت أمه موجودة لقالت كلمتها ، صحيح ان درايتها فى هذه المسائل لا يعتد بها ، الا أن رأيها هو رأى امرأة على أى حال ، وهو يهمه فى هذه اللحظة ان يسمع رأى امرأة ٠

« انك فى طريقك الى اختبار شاق يافكرى ٠٠٠ ترى من ستكون صاحبة الكلمة ٠

« من اللجنة المختبرة ٠٠٠ ؟ البنت أو أمها ٠٠؟ لعل لها أختا او ابنة خالة او مجموعة من القريبات والصديقات يدلين برأيهن فيك ٠ عليك ان تحسب حسابا لكل هؤلاء ، وعليك ايضـــا ان تضغط اعصابك ، وان تكون مرحا ، خفيف الظل ، وان تعد شيئا ظريفا تقوله كلما خيم الصمت ، لتعيد الحياة الى الصالون ٠٠ من المحتمل الا يكـــون لابيها او لاشقائها رأى فى شكله وهندامه ٠فالمعقول ان مهمتهم انتهت بانتهائهم من البحث والتحرى عن اصله وفصله ووظيفته ، ومرتبه ، فالشكل والهندام من اختصاص السيدات على ما يظن ٠

تردد لحظة عند باب شـــقته ، ولم يفتحه ، وتحسس صدره بغير مبرر ، واجـــرى يده على شعره ، ثم اشعل سيجارة ، ثم ارتد فراح يدور فى شقته على مهل ، دورة أخيرة ٠٠٠٠ كـــأنما ليودعها ٠

انه يعلم ان الزواج لا يتم بسرعة البرق ، وان علاقته بشقته لن تنقطع بين يوم وليلة،بل ستستمر شهورا أخرى ، تفرضها متطلبات مجموعة كبيرة من القواعـــد والاصـــول ، وهو بطبيعـة الحال لن يشذ عن هذه القواعد والاصول ٠ ولكنه اشرف على بداية النهاية ، ولن يعود الى شقته الا وقـــد صار شخصا آخر ، فلتكن دورة وداع ، لا للشقة، وانما لمرحلة كاملة من حياته ، ملؤها تفكير ودخان٠

فى تلك الشرفة الصغيرة ، امضى ليالى طويلة يدخن ، كان يحرق سيجارة كل عشرين دقيقة ٠ ينتزعها من العلبة ويشعلها فى حركة آلية ،فيذهب فى تأمل الدخان ٠٠ وهو يتجمع ويتمطى ،ويتفرق، ويتبدد ٠ كانت هوايته الوحيدة مراقبة الدخان ٠

على اليمين حجرة ضيقة ، (٣ × ٣) ، بهـــا مكتب ومقعد خيرزان ، وفوتيل مبقور البطن ،ورف كتب ٠ أما على اليسار ، فحجرة واسعة ، (٤ × ٣)، بها سرير ودولاب ومنضدة ٠ على المنضدة طقطوقة سجاير ، وراديو لا ينطق الا اذا ضرب جـــانبه ضربتين او ثلاث ٠ واحيانا تكون ضربة واحدة كافية لينطق ٠ نادرا ما يفتح الراديو ، وقد تمضى ايام دون ان يمد يده اليه ٠

واما الصالة ، فهى عارية من الاثاث ، الا من صورة ملونة معلقة على الجدار ٠ اسمها « نهـــاية سردينبال » ٠ ملك من الشرق ، ونساء عاريات ، وعبيد ، وجياد ٠ ان ملكا حاقت به الهزيمة ، فامر بان يقتل كـــل ما يعتز به من جـــوار وجياد ، واضطجع على سريره فى هدوء مهيب ينتظر عـــدوه المنتصر ٠

لقد انتزع هذه الصورة من مجلة فرنسية كان قد اشتراها من سور الازبكية بقرشين ، وقد كانت هى الشىء الوحيد الذى شده الى المجلة ٠

كان يقول لنفسه دائما ، انه يدفع اربعة جنيهات من الستة ايجارا للصالة والشرفة ، اما البـــاقى فللحجرتين ٠ وهذا هو ما قاله لامه مرة عنـــدما سألته عن حياته ٠ ففى هذه الصالة كثيرا ما يدور ويدور ، ويداه معقودتان وراء ظهره ، وبين الحين والحين يتوقف امام صورة سردينبال يتأملهـا فى شرود ، ثم لا يلبث أن يتابع الدوران ٠

سينتهى من كل هذا ٠٠٠ سيكون له شقة كبيرة، مليئة باثاث براق يعوقه عن الدوران والتفكير ٠ ولكنه لن يكون بحاجة الى التفكير ، فستكون هناك اشياء عديدة تتولى عنه التفكير ، راديو جديد ينطق بمجرد لمسة يد ، وتليفزيون يجلس امامه بالساعات وصحف ومجلات ترد الى البيت بانتظام ، وبجواره امرأة صغيرة تشاركه الاستماع والقراءة والتحديق٠

والشىء الذى يشغله الآن انه لا يجيد الكلام ، وقد تمضى ايام دون ان يجد ما يقوله للســـيدة الصغيرة ٠ ولكنه يطمئن نفسه الى انه سيجد حتما ما يقوله ٠ سيكون هناك الكلام عن الأولاد ، من جاء منهم ومن لم يكن قد جاء بعد ، والاسئلة عن ألوان الطعام ٠٠ التى يحبها والتى لا يحبها ، فسيتعود ان يحب اشياء ولا يحب اشياء ٠ وستكون هناك مسائل الصحة ٠٠٠ صحة زوجته اولا ، فكأى رجل مهذب سيهتم بصحة زوجته ٠ اما صحته هو فقـــد تتولى هى الاهتمام بها ، كدليل على الحب ٠ والامر المؤكد ان مسألة التدخين ستكون نقطة البدء لهذا الاهتمام ٠

لن يكون هناك عنكبوت فى الزوايا ، ولا غبار على

الموبيليا ... ولا قصاصات ورق واعقاب سجاير على الارض . فسيكون كل شيء نظيفا منظما ، وسيعلم نفسه ان يتقبل هذا ببساطة وان يعتاده .

سيجعل له هواية اخرى ، غير مراقبة الدخان.. كأن يقتني قطة يعتني بها ، ويعودها النظام واحسن الخصال بالنسبة للقطط ، ويوجه اهتمامه اليها.. عندما لا يجد ما يقوله لزوجته ، ويعجز عن متابعة التليفزيون .

لقد آن لحياته ان يدخل عليها النظام ... والاولاد ... والقطط والزهور وكل الاشياء الطيبة ، وقبل كل شيء سيعلم نفسه ان كل هذه الاشياء طيبة .

حرك رقبته يمينا ويسارا ، ومطها ، كان الجو حارا ، والياقة تضغط رقبته ، والعرق يسيل باردا على وجهه وقفاه ... والمنديل لا ينى يرتفع وينخفض فى يده . ومن حوله عدد من الناس ينتظرون مثله . ولقد طال انتظاره . غير ان ذلك ليس بالشيء الغريب عليه ، فهناك ساعة من كل يوم لانتظار الاتوبيس ، عند ذهابه الى المصلحة والعودة منها . _ فالذى يضايقه _ هو ان عقارب الساعة تجرى _ فى هذا العصر _ بسرعة كبيرة ، والمسافة طويلة بين مصر الجديدة والجيزة ، ولم يعد بينه وبين موعده غير ساعة ، وهو لا يعرف كم من الوقت يستغرق الطريق بين مصر الجديدة والجيزة على وجه التحقيق .

لقد قاله له زميله ، انها ساعة بالثلاث خمسات ليست أكثر من ساعة ..

ولكن فكرى يعتقد ان زميله يبالغ بعض الشيء ليهون عليه الطريق .

منذ حمل زميله مهمة زواجه على عاتقه وهو يبالغ ليهون عليه كل شيء . واكبر الظن انه يبالغ ايضا فى اوصاف المرشحة للزواج منه . ولو لم يكن يعرف زميله حق المعرفة ، لتساءل عن مدى استفادته من سعيه الملحف لاتمام هذا الزواج .

لقد آن الاوان لان يشغل رأسه بالطيب من الافكار ، ولا يسيء الظن بالناس .. فسحقا لافكاره القديمة .

لقد عاشت أمه حياة طيبة ، لانها لم تكن تشغل رأسها الا بالافكار الطيبة . وكان أبوه يخونها ، او هذا ما كان يقوله لها الناس ، ولكنها لم تكن تصدق الناس ، وظلت سعيدة حتى مات أبوه ، فبكته بكاء مرا . وانه ليتساءل الآن ، مالفرق بين ان يكون ابوه خانها حقيقة او انه لم يخنها ، مادامت لم تصدق وعاشت حياتها سعيدة .

ان رؤوسنا هى مصانع سعادتنا .. وقد آن لفكرى ان يصلح من رأسه . فلو افترض ان زميله سيجنى ثمرة من وراء مسعاه ، فما اهمية ذلك اذا كان سيحقق له هو غرضه فى الزواج وقبل هذا كله ، مالذى يدعوه لان يفكر فى زميله على هذا النحو .

« أن الدنيا بخير » .. هذا هو ما تردده أمه ... ولا بد أن يؤمن هو نفسه به حتى يعيش سعيدا . ثم ما الذى يمنعه من أن يؤمن بما تؤمن به امه ..؟!

انها افكاره القديمة ... وسحقا لافكاره القديمة ألف مرة .

منذ شهر ارسلت اليه أمه خطابا تقول فيه ، انها فى حال خطرة ، وتدعوه للذهاب اليها حتى تراه للمرة الاخيرة ، فسافر اليها على الفور . انه يحب امه ... ما فى ذلك شك ، ولعلها المرأة الوحيدة التى احبها فى حياته . وهى الى جانب ذلك الشخص الوحيد الذى يثق فيه . كان ذلك فيما مضى ، اما اليوم ، فهو يثق فى زميله ايضا ، وغدا سيتزايد عدد من يثق فيهم ، وستكون زوجته من بينهم بطبيعة الحال .

قالت له امه ، فى لحظة حنان ظلت تمهد لها النهار كله .

_ لقد كبرت يا فكرى .... انظر الى شعر رأسك .

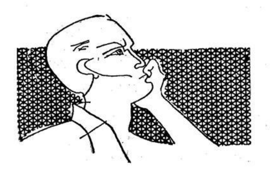
وتحسس فكرى رأسه ، بينما استطردت امه .

_ ما الذى تنتظره .

_ من .. ؟ انا ... ؟ ... انا لا انتظر شيئا .

وتريثت الام حتى استجمعت قواها ، ثم قالت .

_ لم لا تتزوج ... ؟ ... ما الذى تنتظره .



حاول ان يضحك ، فكانت ضحكة صغيرة غامضة .. وقال :

– ولماذا اتزوج .

بهتت الام ، وحدقت فى وجهه طويلا قبل ان تقول ، « ان الناس لا يسألون ، لماذا يتزوج ... ولكنهم يسألون ، لم لا يتزوج . » .

ثم راحت تعدد له الاسباب التى يتزوج الناس من اجلها ... البيت ، الاولاد ، اللقمة الحلوة... الخ .. الخ .. نفس الامور التى كان يراهاتستهلك حياتها ، كما تستهلك حياة ابيه .

ولكن المسألة لم تكن مسألة وجهات نظر تطرح للدفاع عنها وضدها.لم تكن مسألة اقناع واقتناع. كانت امه تطلب منه ان يتزوج لتفرح به ، وتطمئن عليه قبل ان تموت . وقد بكت وهى تطلب منه ذلك ، ودموع امه لا تنساب الا لسبب قوى . كانت حريصة على أن يتحقق مطلبها ، بصرف النظر عن كل ما يدور برأسه من افكار . فانقلب السؤال فى رأسه ، « ولم لا أتزوج .. »

ان السؤالين متعادلان ... لو شاء هو ان يكونا كذلك . وهو على اى حال ليس بحاجة الى اجابة تستند الى منطق عن السؤال بوضعه الجديد . يكفى ان يقرر ان يتزوج .. فيتزوج ... هكذا يتزوج الناس . ومهما يكن ، فان التجربة جديدة ومشوقة من بعض النواحى .

* * *

لاح الايتوبيس على بعد ، فخيل لعينيه اللتين تسلل اليهما العرق ان الخمسات الثلاث تتراقص ، وتتداخل . وكان قد بدأ يحس بالتعب ، لطول الانتظار ، والقلق ، وحرمانه من نوم فترة ما بعد الظهر . غير ان ظهور الايتوبيس دفع الى نفسه انتعاشة مفاجئة فالقى نظرة على ساعته ، ثم نظرة على رباط عنقه وحلته ، فحذائه . وراقه أن يرى الألوان منسجمة على جسده ... وان أحس بان النقاط السوداء دخيلة على رباط عنقه .

* * *

لم يجد مقعدا خاليا ، الا ان الايتوبيس ، على الرغم من ذلك ، لم يكن مزدحما ، فقنع بمكان يقف فيه ، متربصا بالجالسين حتى ينهض أحدهم فيحتل مكانه .

وقف معتمدا بظهره الى حاجز مقصورة السائق ، ونشر بصره فوق رءوس الجالسين . كانت الوجوه متراصة أمامه جامدة غامضة ، لم يتعلق بصره بوجه منها بالذات ، وانما عبرها جميعا ليستقر فى سقف السيارة ، عند مصباح أزرق مهشم .

كان قد عزم على ألا يشغل نفسه بالتفكير خلال الطريق ، حتى يظل منتعش الرأس ، مهيأ للاختبار ، فتشاغل بتأمل المصباح المهشم ، فالوجوه .. جذب اهتمامه بادىء الأمر صوت قريب منه ، لم يتبين ما اذا كان صوت رجل أو امرأة الا عندما التفت نحو مصدره . كانت صاحبته امرأة سمينة تجاوزت الستين ، تجلس محشورة عن يمينه بين ظهرى مقعدين تتحدث الى جارة لها ، ولا تفتأ تنظر اليه بنصف وجهها . كانت تروى بصوتها الخشن حكاية رجل من أقاربها عضه كلبه ، فهى لاتترك كبيرة أو صغيرة تعلقت بالكلب الا ذكرتها .

على يساره رجل أصلع ، غليظ الرقبة ، يجلس فى استرخاء ، ضاربا ركبته فى ظهر المقعد المواجه له ، وقد القى برأسه الى جدار السيارة فبدا وكأنه فى غفوة . ثلاثة أزرار من قميصه مفتوحة ، وشعر صدره بين أبيض واسود .

ارتد ذهن فكرى الى صورة سردينبال . فكر انه لابد من أن يتخلص من هذه الصورة ، فهى لا تصلح لبيته الجديد . فمن ناحية ، قد لا تروق الاجساد العارية المجروحة زوجته . وهو ، من ناحية أخرى ، يرى من الأفضل أن يشغل البرواز بصورة زيتية ، تضم منظرا طبيعيا بسيطا ... كترعة ، وثلاث نخلات ، فى ساعة الشروق .

ان فى بيت أسرته منظرا كهذا ، ولكنه يختلف عنه بعض الاختلاف ، ففيها الى جانب النخلات الثلاث عدة أوزات تركت الترعة لتوها . فلابد أن يكون كل شىء جديدا ، وبسيطا ... كاستبداله بهواية التدخين تربية القطط .

* * *

توقفت السيارة ، وصعد اليها عدد جديد من الركاب ، رجال ونساء ، من بينهم امرأة ذات جسم ممتلىء ، يفوح منها عطر نفاذ ، وقفت المرأة بجانبه ساكنة أول الأمر ، ثم لم تلبث أن دفعته بجسدها لتحتل بظهرها حاجز مقصورة السائق ، ثم اعتذرت له بابتسامة كشفت عن أسنان مفرطحة .

وجد نفسه مضطرا لان يتزحزح خطوة حتى لا يصطدم بصدرها كلما اهتزت السيارة ، فانحشر بينه وبينها شاب قصير أسمر ، شمرت أكمامه عن ذراعين منتفختين .

كان العرق يتصبب على وجه فكرى وتحت قميصه . والسائق يبرطم لسبب ما ، والكمسارى يصرخ بجوار أذنه ، وصوت المرأة السمينة يأتيه من الخلف :

– اما سهام ابنة أختى ، فعندها كلب لولو .. اشترته وحجمه لا يزيد عن ...

وتوقفت السيارة فى حركة مفاجئة ، فاهتز كل من فيهـا ، وارتطم البعض بالبعض ، كما دهس الشاب الأسمر حذاء فكرى ، وترك به أثرا لم يزل بمسحه فى رجل البنطلون • ولم يعتذر الشاب •

وازدحم الايتوبيس تماما ، حتى لم يعد به مكان لقـدم • وتعالت الصيحات على السلمين ، وفى الهواء • وتتابعت صرخات الكمسارى ، وتحولت برطمة السائق الى شتائم • وتزايد العرق على وجه فـكرى وجسده ، ثقيلا لزجا • والتصق قميصـه بظهره ، فتمنى لو استطاع أن يمد يده تحت سترته ••• ولـكنه كان مضغوطا بأربعـة ظهور صـماء ، واحدى ذراعيه معلقة فوق رأسه والاخرى لا يدرى أين يضعها ، ولا كيف يحركها • وألحت عليه الرغبة فى التدخين •

لا شك ان زميله كان يغالى ••• فلقد مضى نصف ساعة ولم يتخط الايتوبيس حدود مصر الجـديدة بعد • كان عليه ألا يأخذ بنصيحته وأن يسـتعمل رأسه ، لا رأس زميله ، فلا يسلك الا الطريق الذى يعرفه ، المترو فالترولى •• وهو طريق ، وان كان أطول ، الا انه أرحم • والأهم من هذا كله • انه الطريق الذى يعرفه •

انطلق الايتوبيس فى طريق لا بيوت فيها وكان فكرى قد فك الزرار الأعلى لقميصه ، ووسـع من عقدة رباط عنقه ، وشرع يرسم فى ذهنه لما سيحدث بعد قليل • النجفة الضخمة المعلقة فى السقف ، والعيـون المحيطة به تتفرس فى وجهه ، وتدرس حركاته ، وتمعن النظر فى ثيـابه وحذائه • قد لا تلحظ الاثر الذى تركته قدم هذا الشاب الأسمر فى الفردة اليمين •• ولكنها ستلحظ حتما قميصه المبلل بالعرق • سيعلمون انه جاء محشـورا فى ايتوبيس ••• وسيتساءلون ، لم لم يأت فى سيارة أجرة على الأقل • ولعل زميله غالى فى عرض محاسنه عليهم فأفتاهم بان لديه سـيارة خاصـة ••• فستنكشف أكاذيبه ، له ولهم ••• أحسن ••• فمن الخير أن تنكشف الأكاذيب •

الطـريق مليئة بالمطبـات • والايتوبيس يتنطط فتضطرب الأجسام ، وتزداد تلاحما • واصطدم مرفق مجهول بوجه فكرى ، فأصاب حاجبه الأيسر • كما دهس الشاب الأسمر حذاءه مرة أخرى وانما بقسوة ••• ولم يعتذر ••

كان الكمسارى يحاول أن يمر بجسده من خلال الأجسام ، فكان يلقى بنفسه عليهـا ، ويستعمل أصابعه القوية ليباعد بين الأكتاف ، ويصيح • صرخ فيه رجل أن يتمهل ، وصاح فيه آخر بأن يأتى من الأبواب ، بينما انطلق صوت من بين الزحام بنكتة سخيفة •

ومر الكمسارى ، بعد أن غير من نظام الوقوف ، فوجد فكرى وجهه تجاه ذراع معلق ، وقد اندست أنفه فى الابط المنفرج ، فأحس بالغثيان • لم يعد يرى الشاب الاسمر ، كما لم يعد يسمع صوت المرأة السمينة ، وتضاعفت رغبته فى أن يدخن •

كان العرق قد تجمع فى حدقتيه ، وسـال على جانبى أنفه ، واسـتقرت قطرات منه بين شـفتيه ثقيلة مملحة ، واختلطت رائحة العرق الكريهة برائحة العطر ، فسدت خياشيمه •• وارتفع صوت المرأة السمينة دفعة واحدة :

ـ العصافير ••• ؟ وهل فى الدنيـا أجمل من تربية العصافير •

كان عليه أن ينام بعد ظهر اليوم ، فانها لمجازفة أن يخرج لموعد كهذا دون أن ينام ، ولو تمسك بالموعد الذى اقترحه لأتيح له النوم ، ولكنه انصاع لرأى زميله حتى فى تحديد موعد المقابلة •

« لـو ذهبت فى التاسـعة لما مكثت أكثر من ساعة ••• فليكن الموعد مبكرا •• حتى يكون أمامك فسحة من الوقت ••• أقسم أنك ستتمنى لو بقيت الليل كله ••• ستندم على ما مضي من عمرك ••• »

لقد كان زميله يغالى فى كل شىء ، ولاشك أن له مصلحة فى أن يتم هذا الزواج ، والا فما الداعى لكل هذه المغالاة ، لقد مضت الساعة ولم يصـل الايتوبيس بعد ، ولا يدرى هو أين وصل •••

حرك رأسه يمينا ويسارا فى عصبية ، وشد جسده الى أعلى أملا فى نسمة هواء ، ولكن رائحة العرق كانت تحاصره ، ففعل مافعله الكمسارى •• ألقى بنفسه على النـاس ، وفرق بأصـابعة بين الاكتاف ودفع رأسه خلالها تجاه النوافذ ، ولم يأبه بعبارات الاحتجاج لتى انصبت عليه ، وعندئذ وقع بصره على مقابر • مبان صفراء قاتمة متلاصقة فى غير انتظام ••• انه لايزال فى المقابر ••• ولا أمل له فى أن يصل فى الميعاد •

ان أمه تفكر فى الموت ، منذ أن مات أبوه وهى تفكر فى الموت ، وكأنها لم تكن تعرف هذه النهاية من قبل ••• وهى تريد أن تفرح به وتطمئن عليه قبل أن تموت ••• وفى هـذه المقابر أمهـات ، اطمأنت على أولادها قبل أن تموت ، والبعض منها لم يفرح ولم يطمئن ، ومع ذلك فالهدوء يخيم على القبور ، ويشملها جميعا •••

نخلات ثلاث ، ورءوس ، وظهور ••• ورائحة عرق كريهة تسد الخياشيم ••• وأحذية تدهس

أحذية ، وأجسام يعصر بعضها البعض ... ولم يعد يدرى كيف تبدو ملابسه على جسده ..

فى هذه الساعة ، كان يجلس فى شرفته ، يلفه نسيم كنسيم البحر ، يدخن ، ويتأمل الدخان . ينهض وقتما شاء ، ليدور فى الصالة المرة بعد المرة ، ويداه معقودتان وراء ظهره ... ويصنع لنفسه كنكة قهوة ... وعندما يعظم شعوره بالملل فانه يستبدل ثيابه .. يرتدى بنطلونا وقميصا ، ويهبط الى الطريق ... فاذا سيطرت عليه الرغبة فى الكلام ، فانه يتبادل حديثا قصيرا مع البواب ، ضوعه فى الغالب أم السيد الغسالة ، أو مالك العمارة ... والسكان ، وقد يتجه الى « شاكر » البقال ، فيشترى علبة سجاير ، ويبادله حديثا تنقصه المعرفة عن دورى كرة القدم ، ثم يتركه ويمضى . يسير على قدميه ساعة ، أو أكثر ، أو أقل ، يتأمل الوجوه ويتصفح واجهات المحال ، فى غير تدقيق ، ثم يعود ...

« سينتهى كل هذا يافكرى ... لن تتكلم لأن لديك الرغبة فى الكلام ، بل لأنه ليس من الذوق ، ولعله ليس من العدل ، أن تلزم الصمت ، وبجوارك امرأة لا تحتمل الصمت ... ستمتعض بحساب ، وستجد نفسك مضطرا لأن تصطنع السعادة ... ولأن تجعل أهمية لأشياء لا أهمية لها ... لون حذاء ... صدر فستان ... طعم حساء ، وسيفرض عليك أن تستقبل ناسا وتزور ناسا ارتبطت بهم رغم أنفك ، وان تتكلف الابتسام ... »

انه لمن أشق الأمور عليه أن يتكلف الابتسام ، وتربية القطط لن تهون مثل هذه الأمور ، بل لقد تزيدها تعقيدا ... حتى ولا تربية العصافير ...

ـ حاسب يا أخى ...

ـ ماذا ... ؟

ـ لقد دهست قدمى ...

ـ وانت دهست قدمى ألف مرة ... ولم أتكلم ..

ـ أف أعوذ بالله ...

ـ أعوذ بالله منك يا أخى ..

ـ وحدوه ... حلمكم ياجماعة ... ماذا جرى ..

ـ هذا البنى آدم ...

ـ حسن ألفاظك ...

ـ الجيزة ... الجيزة ..

ـ أعوذ بالله ... أف .. أعوذ بالله ..

ـ وسع الطريق .. فأنا نازل ..

ـ فلتتنزل يا أخى .. وهل أمسكت بك ..

ـ دعنى أمر ..

ـ فلتمر .. وهل منعتك ..

ـ أنت تقف .. حاسب يا أسطى .. وسعوا يا أسيادنا .. انتظر يا أسطى ..

ـ خلصنا ياسيدى ..

كان الرجل الأصلع ، ذو الرقبة الغليظة ، قد أفاق من غفوته ، وراح يحاول هو أيضا النزول ، فسد على فكرى الطريق ، بينما كان فكرى يلف جسده ويدور حول نفسه ليخترق الأجسام ، وكلما تقدم قدما احتجز ذيل سترته وراءه ، وارتطم بالرجل الأصلع مرتين ، فاعتذر له فى المرة الأولى ، ولم يعتذر فى الثانية . وسارت السيارة فعاد فكرى يصيح :

ـ انتظر يا أسطى ...

وصاح الرجل الأصلع :

ـ يا أخى انتظر ..

وتعالت أصوات احتجاج متفرقة ، تخللها صوت السائق ،

ـ انتظروا المحطة الأخيرة ..

فأطلق لرجل الأصلع سبابا عنيفا ، توقفت السيارة على أثره فى حنق ، فتضاربت الاجسام .. وقذف فكرى بنفسه الى الرصيف ...

* * *

وقف فكرى يشيع السيارة المائلة بأحد جانبيها وهو يلهث ... كان للعرق فى عينيه لذعة الصابون ، وفى فمه طعم الملح . وقد تشبع منديله بالماء واتسخ . أما الحذاء فقد ذكره بحذائه وهو تلميذ صغير ، حينما كان يجعل من حقيبة كتبه علامة لمرمى الكرة ، ومن طربوشه علامة أخرى . كثيرا ماكان يخطىء فيضرب الطوب وأحذية زملائه بدلا من الكرة ، وكانوا هم يخطئون فيضربون حذاءه . وكان أبوه يؤنبه ، ولكنه لم يكف عن لعب الكرة بسبب تأنيب أبيه له ، وانما لأنه لم يحسن اللعب أبدا.. أما ثيابه ، فقد شاع فيها الاضطراب ، فما من شىء بقى على حاله .

القميص مبتل له رائحة فضلات القطط ..ورباط العنق فقد رونقه واستواءه ، وكان يدا فركته عن عمد . ولم يفهم فكرى ، ما اذا كانت ألوان ثيابه قد تغيرت ، ففقدت انسجامها ، أو أن الاضواء الباهتة التى تحيط به تحول الألوان وتخدع البصر ..

أيا كان الأمر ، فانه فى حاجة الى أن يدخن سيجارة .. وان يتمشى قليلا حتى يجف عرقه ، وأن يفكر فى هدوء ...

أشعل سيجارة ، وخلع رباط عنقه فطواه ودسه فى جيبه ، ثم عقد يديه وراء ظهره ... وسار على مهل ... يحاول أن يفكر فى هدوء ...



بقلم : الدكتور عز الدين اسماعيل

حين يتأمل الانسان فكرة هذه القصة يجد نفسه منذ البداية مضطرا لأن يتذكر كيف اصبح موضوع « الاوتوبيس » وزحام الناس به موضوعا متواترا لدى القصاصين منذ ابراهيم عبد القادر المازنى حتى أبو المعاطى أبو النجا فى مجموعته القصصية التى ظهرت اخيرا ، فالقسم الأكبر من قصتنا هذه يتعلق بالأوتوبيس وزحامه . ولكننا ما نكاد ننتهى من قراءة القصة حتى ندرك ان موضوع الأوتوبيس وما فيه من زحام معهود ليس هو الموضوع الأساسى ، وانه لم يكن سوى عنصر بنائى ضمن عناصر اخرى نسج منها الكاتب فكرته . والحق ان موضوع الأوتوبيس ، بكل ما يتعلق به من تاخر فى المواعيد وزحام ، ومشاجرات ، انما يتيح امكانيات قصصية كثيرة لابراز افكار وراء التاخر فى المواعيد والزحام والمشاجرات . وقد حاول قصاصنا ان يستغل هذا الموضوع هذا النوع من الاستغلال . فهل وفق فى هذا ؟ .

قبل الاجابة عن هذا السؤال ينبغى لنا ان نتمثل فكرة القصة كما يمكن ان نستشفها من مجموع المواقف والعناصر البنائية المختلفة التى امتزجت فى نسيج هذه القصة .

فبطل القصة ــ كما اعتدنا ان نقول ــ مقبل على زواج ، أو على مجرد خطبة . ومن الطبيعى ان تنعقد فى نفسه مقارنة بين حياته قبل الزواج وحياته المتوقعة بعده وفى هذه المقارنة تبرز الصور المتعارضة من هاتين الحياتين . فى حياته الخاصة يتضح الضياع والأفكار السوداء والدوران فى الفراغ ، فى اللاشىء . أما حياته المتوقعة فيسودها النظام والاستقرار والهدوء النفسى . انها حياة تقوم على الالتزام باشياء كثيرة ، ازاء نفسه وازاء الآخرين . لكن فكرة الزواج لم تكن الحل الذى اهتدى هو نفسه اليه ، وانما هو قد خضع فيها لتاثير صديق قريب من نفسه . ومع أن اهتمام هذا الصديق بمسالة زواجه قد اثار فى نفسه بعض الريبة ، لم يحمله ذلك على رفض الفكرة ، بل سرعان ما استبعد من راسه كل فكرة شريرة ، استسلاما منه لرغبة صادقة فى تغيير وجه حياته واعطائها معنى .

هناك اذن هذا الصديق الذى ينصح ، ويحبذ ، ويدفع ، ويحمس . وليكن بعد صديقا حقيقيا ، او مجرد صوت داخل يزعق فى نفس البطل ، ينشد السكينة والاستقرار .

وتساند هذا الصديق أو هذا الصوت شخصية اخرى تمثل مجموعة بعينها من القيم ، هى شخصية الأم . فالأم مثال للطيبة والاستكانة والاخلاص والرضا . وهى تريد ان ترى قبل موتها هذه المعانى قد شكلت اخيرا حياة ابنها . واذا كان بطلنا قد استجاب لفكرة صديقه لقد كان طبيعيا ان يستجيب لفكرة امه ، التى يعلن حبه الشديد لها .

هناك اذن اكثر من عامل يدفع بطلنا الى الزواج ، فهو نفسه قد ضاق بحياته ، وهناك امه تود ان تفرح به قبل ان تموت ، ثم هناك صديقه الذى يبذل جهده فى سبيل تحقيق تلك الزيجة . وهذه العوامل مجتمعة قد تعاونت على الدفع به الى التجربة الجديدة .

أكان بطلنا حقا قد تخلص من صورة حياته القديمة الى الأبد عندما دار آخر دورة فى مسكنه قبل ان ينزل الى الطريق متجها صوب بيت العروس ؟ أكانت هذه الصورة بكل ما فيها من فراغ وضياع ووحدة وعذاب قد انتزعت من نفسه حين خرج الى الطريق العام لخوض تجربته الجديدة ؟

كل الدلائل تشير الى انه كان قد اتخذ اهبته لمواجهة الموقف الجديد ، بل تؤكد اقباله عليه بروح متوثب . ويكفى ان نلاحظ انه فى هذه المناسبة قد تانق فى ملبسه لأول مرة . وهو بذلك يعلن عن خروجه من اطار حياته القديم وتقبله لمواضعات الاطار الجديدة الذى يسعى الى تحقيقه .

ثم تاتى مشكلة الأوتوبيس . الانتظار الطويل اولا حتى يجىء الأوتوبيس ، ثم الزحام الذى ياخذ فى التزايد شيئا فشيئا ، ثم احاديث الناس ، بخاصة السيدة المكتنزة اللحم ، التى تتحدث طوال الوقت عن موضوع الكلاب ، ثم الروائح والعرق والمشاحنات . ثم آخر الأمر بطء الأوتوبيس ووصوله الجيزة متاخرا وما يكاد فكرى يغادر الأوتوبيس حتى يدرك أنه فقد كل اناقة فى هندامه ، وانه فى حاجة الى التمشى قليلا واستنشاق بعض الهواء النقى ، والى تدخين سيجارة . وانه ليقضى نهائيا على مظهره المهندم حين يخلع رباط عنقه ويدسه فى جيبه وانه ليتحول عن وجهته حين يعقد يديه خلف ظهره ، ويتمشى وهو يفكر من جديد فى هدوء ، كما كان شانه دائما من قبل ، حين كان يقضى أوقاتا طويلة على هذا النحو داخل مسكنه ، يتمشى ويفكر ويدخن .

لقد عدل فكرى اذن عن التجربة ؛ فمن الواضح انه لن يذهب الى بيت العروس ، وانه آثر العدول او التريث على اقل تقدير . وبقدر ما كانت العوامل الدافعة له الى الاقدام على هذه التجربة واضحة لنا ، سواء كانت شخصية صرفا ام خارجية ، فان دافع العدول لم يكن واضحا ، او هو لم يكن مبررا تبريرا نفسيا مقنعا .

وهنا نعود الى سؤالنا عن مدى توفيق الكاتب فى استخدام موضوع الأوتوبيس بكل ملابساته المالوفة . فمن الواضح أن معاناه فكرى للفترة التى قضاها محشورا فى الأوتوبيس وما احدثته فى هندامه من اضطراب كانت السبب المباشر لعدوله . فما معنى هذا ؟ قد يعنى هذا أنه فى قرارة نفسه لم يكن متحمسا لتلك المغامرة ، فاتخذ لنفسه من اضطراب هندامه مبررا كافياً للعدول

عنها ، شأن الانسان حين يلتمس لنفسه أوهى الأسباب لكى يعدل عن مشروع او عمل لا يرتاح له • وقد يعنى ان رغبته فى ان « يشغل راسه بالطيب من الأفكار » ، وفى ان يحقق لنفسه الوجه البرىء من الحياة ، وفى ان يتخذ من حسن الظن مبدأ يتعامل على اساسه مع الناس ـ كل ذلك كان قد ذاب وتبخر حين طالت وقفته اولا فى انتظار الاوتوبيس ، ثم فى الأحاديث البلهاء التى استمع اليها بعد ان ركب ، ثم فى الزحام والروائح الكريهة ، ثم فى الاهانات التى لحقت بآدميته اولا ، والتى الحقها هو نفسه بالآخرين • لقد صعد الأوتوبيس وهو لا يريد ان يلتفت الى اى شىء او يستمع لأى شىء ، حتى لايصرفه هذا عن التفكير فى موضوعه الخاص ، ولكنه مالبث ان وجد نفسه يزاحم الآخرين بنفس طريقتهم ، ويلحق بالآخرين الاذى فيعتذر اول مرة ولكنه يعود فلا يعتذر ، شأن ذلك الشاب الآخر الاسمر الذى داس على حذائه اكثر من مرة دون ان يقدم اليه مرة واحدة كلمة اعتذار •

فاذا نحن اخذنا بالتفسير الاول كانت القصة تصويرا لصراع نفسى خاص بفكرى نفسه ، أعنى على المستوى الفردى • وعندئذ تكون ازمة فكرى هى ازمة الشاب الذى تتقدم به السن بعد ان يكون قد تكيف مع الحياة تكييفا خاصا ، وعندئذ يصعب عليه ، بل قد يطامن من كبرياء نفسه ، ان يبدأ تكيفا جديدا ، مهما كان ضيقه بشكل حياته القائمة •

واذا نحن اخذنا بالتفسير الثانى كانت القصة تصويرا للعوائق الخارجية التى تحول دون تحقيق الرغبات الخيرة ، فقد ارغمت تجربة الأوتوبيس بكل جوانبها بطلنا على ان يصرف النظر عن مشروع زواجه وان يتدبر امر نفسه مرة اخرى •

ولنا بعد ان ناخذ بهذا التفسير او بذاك ، او بهما معا ، فاننى لاحسب انهما يتكاملان ولايتعارضان • وعند هذا الحد يتحتم علينا ان ننظر فى النسيج الفنى للقصة ، حتى نباشر صنعة الكاتب وقدراته القصصية • وفى هذا المجال اكتفى بأن اسجل بعض الملاحظات •

أولا ، نلاحظ بطء الحركة فى معظم المواقف ، وهو بطء راجع الى حشو الموقف بتفصيلات لا تخدمه فى كثير من الأحيان • ويكفى ان نتذكر هنا مشهد الأوتوبيس ، الذى يستغرق اكثر من نصف القصة • فكثير من التفصيلات التى سردها الكاتب لما حدث داخل الأوتوبيس لم ينعكس بشكل مباشر او غير مباشر على افكار فكرى • اعنى اننا لم نر هذه التفصيلات بعين فكرى نفسه او من منظوره • وكان فى وسع الكاتب ان يقدم الينا هذه التفصيلات من خلال منشور عقل بطله فاذا هى تنعكس الينا بزاوية انكسار خاصة • اما ان نعاين ما يجرى فى الأوتوبيس مما نعرف فليس لهذه المعاينة ادنى قيمة فنية ، بخاصة ونحن نقرا قصة قصيرة •

وليس معنى هذا أننى أرفض التفصيلات فى القصة القصيرة ، وانما اعنى ان تكون اللقطات مختارة بعناية ومشبعة بالدلالة • لنتذكر مثلا فى هذه القصة ان فكرى حين نزل من مسكنه الى الطريق ووقع نظره على جيب سترته حيث يبرز المنديل الذى يصنع ثلاثة أهرام صغيرة اذا به ينتزعه • هذه اللفتة فى سياق السرد تحمل ـ على بساطتها ـ كثيرا من الدلالة والمغزى • ففكرى الذى لم يتأنق من قبل أحس بتفاهته وهو يبالغ فى تأنقه • ولعله احس بغربته عن نفسه حين القى وهو فى الطريق نظرة على هذا المنديل • ولعله خشى أن يصادف فى الطريق شخصا يعرفه فيعلق على هذا المنديل تعليقا لا يرضاه • لعله انتزع المنديل لسبب من هذه الأسباب ، أولها مجتمعة ، أو لغيرها ، فما تزال هذه الواقعة الجزئية البسيطة العابرة تشع مزيدا من الدلالات • وكلها دلالات ترتبط بفكرى نفسه وتستكشف من خلاله •

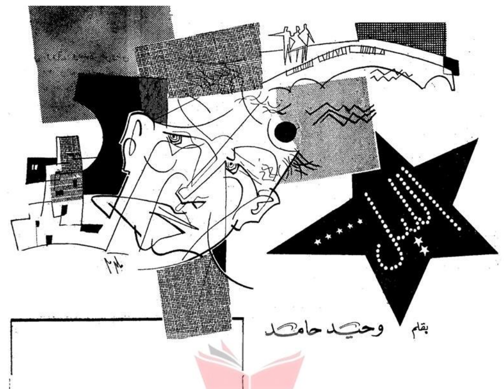
وعلى هذا فقد وفق الكاتب احيانا فى اختيار التفصيلة المشبعة بالدلالات خلال عملية السرد ، ولكنه فى أكثر الأحيان كان التوفيق بجانبه • وكان هذا سببا فى شعور القارىء ببطء السرد وتشتته •

ثانيا : نلاحظ فى طبيعة نسيج القصة ان الكاتب قد اجرى معظم السرد بضمير الغائب • وانه كان ينتقل فى بعض الأحيان الى ضمير المتكلم ، ولكنه فى هذه الاحيان كانت تنقصه الحذاقة فى اختيار مواطن الانتقال • فهذه الأداة الفنية ذات حدين ، اما ان تنجح فتكون عظيمة القيمة فى اعطاء أكثر من بعد للموقف الواحد عن طريق احداث نوع من الترابط الزمنى بين الماضى والحاضر ، واما أن تفشل فتحدث اضطرابا وتمزيقا فى نسيج القصة •

ولنراجع الآن على سبيل المثال ـ تلك القطعة الحوارية التى تمثل حديث فكرى مع امه ، فنحن نحس ازاء هذه الحوارية انها غير منسجمة مع منطق القصة ونهجها الفنى ، لا لأن الانتقال من السرد العادى الى تجسيم الموقف عن طريق الحوار غير ممكن ، ولكن لأن هذه القطعة الحوارية لم تكشف لنا عن الضرورة الفنية التى اوجبتها ، اعنى إنه كان فى وسع الكاتب ان يستمر فى سرده فيركز كل هذا الحوار فى جملة سردية واحدة • وقد صنع هذا هو نفسه بالنسبة لما كان بينه وبين صديقه • ولم يكن لما اجراه من حوار بين فكرى مغزى او تأثير يفوق ما كان من صديقه • هذا فضلا عن أن قطعة الحوار فى ذاتها لا تكشف عن قدرة فنية خاصة فى هذا الاسلوب الفنى ، فقد كان الحوار فيها اوليا وهزيلا •

ثالثا : لا بد من ملاحظة اللغة ، الأداة التعبيرية الجميلة التى تحمل عن الكاتب كل ما يريد ، فمن غير المعقول ان يكتب كاتب فنا ادبيا كالقصة القصيرة وهو بعد لم يتمكن من هذه الأداة تمكنا كافيا • وفى قصتنا هذه يتعامل الكاتب مع اللغة تعاملا غريبا • فهو يكتب فى كثير من الاحيان ما يتوهم انه يؤدى المعنى الذى فحسب ، بل عقليا ومنطقيا كذلك • ويكفى مثالا على هذا قول الكاتب : « ولكن المسالة لم تكن مسالة وجهات نظر تطرح للدفاع يريده ، فى حين ان العبارة لا يمكن ان تستقيم ، لا لغويا عنها وضدها » • فهذا كلام اقل ما يوصف به انه ركيك •

ولعلنا بعد قد ادركنا كيف ان الاطار الفنى الذى شاء الكاتب أن يصب فيه فكرته كان مهلهلا وهزيلا ، مما انعكس بدوره على الفكرة نفسها • ولعل هذه الملاحظات تدفع كاتبنا الى تجويد اداته الفنية حتى تكون مرآة شفافة لافكاره •



بقلم وحيد حامد

لكمة قوية .. بارعة .. ياساتر .. المجرم أمسك بقضيب من الحديد .. يهدد البطل ، يتقدم نحوه فى تحد دنىء .. ضرب .. يا سلام .. تفاداها البطل ، انهال عليه لكما .. البطلة الحسناء ترقب العراك من مقربة وصدرها يعلو ويهبط .. لكمة أخيرة .. سقط المجرم ، جاء رجال البوليس.. قبضوا عليه .. أقبلت البطلة الحسناء على البطل .. ضمها الى صدره .. قبلة طويلة .. النهاية .. فيلم ممتاز .. رائع .. وقمت واقفا ، غادرت السينما .. يا خبر .. ماذا حدث ؟؟ أين الناس .. الزحام .. المحلات أغلقت أبوابها . الانوار أطفئت .. السيارات الكثيرة .. تمر مسرعة .. هدوء .. كم الساعة يا أخ ؟؟ الثانية .. آه .. لكمة أعنف من لكمة البطل .. انتهت مواعيد الاتوبيسات .. فتشت جيوبى .. فى جيب البنطلون خمسة تعريفه ومشط كبريت .. فى جيب القميص خمسة سجاير فرط بدون علبة .. وعلى فكرة القميص لينوه مستورد من الخارج .. عليه القيمة .. ولكن ما رأيكم فى الفلس .. ؟؟ كل ما كان معى عشرة

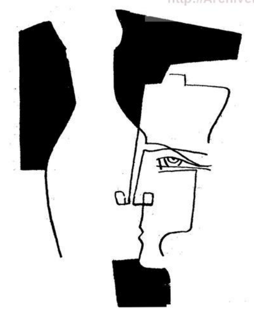
- من مواليد منيا القمح فى ١٩٤٥/٧/١
- طالب بكلية الآداب جامعة عين شمس .
- نشر فى « المحرر » ، « الجمهور الجديد » ، « الشبكة » ، «الحرية» اللبنانية .
- فاز باحدى جوائز نادى القصة عام ١٩٦٣ .
- ترجمت قصته « التمثال » الى اللغة التشيكية هذا العام .
- يقدم له المسرح الحديث فى موسمه القادم مسرحية « ذيك عجوز فى قفص » .
- يقوم باعداد السيناريو لبعض التمثيليات التليفزيونية .
- يعمل بلجنة المساعدات الأجنبية بوزارة الحربية .
- اعزب .

قروش ورق وعدة قروش فكه حوالى سبعة ثمانية ساغ ·· والساعة السابعة من مساء آخر ليلة في الشهر ·· حاجة تضايق ·· قلت اذهب الى السينما ·· أى سينما .. مجرد عملية تخلص من الوقت .. حتى يأتى الغد ·· أول الشهر يعمر الجيب بالمرتب كاملا ·· بدله كاملة ·· صيفى طبعا ·· تليفون لسناء ·· الميعاد فى كازينو النهر ··· الساعة السابعة نفس الوقت ·· ولكن بعد أربعة وعشرين ساعة ، وأمسكت بالجريدة ·· أين تسهر هذا المساء؟ أوبرج الاهرام يقدم الليلة الباليه الاسبانى ·· أعوذ بالله ، هو ده وقته ·· الراقصة الشرقية بدرية على مسرح ·· كفى ·· دعك من كل هذا ولا تنظر حتى الى أسماء دور السينما من الدرجة الأولى ·· الثانية ·· الثالثة ·· شيء معقول ·· أخذت أنتقى الأفلام ·· هذ شاهدته وهذا تافه ·· وعثرت على برنامج لا بأس به فى احدى دور السينما بالجيزة ·· الجيزة ·· وماهى مواعيد الاتوبيسات قد انتهت ويجب أن أعود الى السيدة زينب ··

كارثة ·· مصيبة ·· مر تاكسى ·· أهدأ السائق ·· القميص لينوه عليه القيمة ·· نظر الى ·· وجهى كوجه تمثال ·· أسرع السائق ·· لا شك انه يقول : « أفندية على الفاضى » ·· سيارات ملاكى تمر ·· الله ·· ألوانها زاهية ·· بها سيدات ·· رجل وسيدة ·· وأحيانا سيدة واحدة ورجلان ·· للعلم السيدة فى الوسط ·· وعربات نقل كبيرة ·· رمل ·· أجولة ·· صناديق ·· ازيزها يشبه نباح الكلاب ·· أو حشرجة حيوان يحتضر ·· وقفت نصف ساعة على محطة الاتوبيس ·· لا أمل مطلقا ·· انصرف الركاب ·· تشاركوا فى تاكسى بعد مفاوضات ومناقشات طويلة ·· ما العمل ·· لا شيء ؟؟ هواء الليل جميـــل ·· منعش ·· ما أجمل الهـدوء والسكينة ·· توكل على الله ·· أشعلت سيجارة ومشيت ··

على « كوبرى عباس » يسير بعض الأشخاص ·· عمال المحلات وأفندية مثلى أصابهم الفلس ·· صوت الخطوات يرن فى الصمت ·· النيل رائع ·· أعرف صديقا قذف بنفسه من فوق هـذا الجسر وحدثنى آخر ·· أسعد أوقاتى كانت فوق هـذا الجسر مع خطيبتى ·· وقفت ·· لا أعرف لمـاذا وقفت ؟؟ نظرت الى الماء ·· الى الظلام ·· انتبـاه ·· لم يعد الوقت مناسبا للتأمل ·· واحـدة من الجنس الناعم ·· على يمينها رجل ·· وعلى شمالها رجل ·· تضع على وجهها الأبيض ، وعلى شفتيهـا الاحمـر ·· تحركت ·· السـائرون على الجـانب الآخر ينظرون الى جانبنا امرأة فى آخر ساعة من ليلة آخر الشهر ·· أمر مضحك ·· ولكن ها هم يسيرون « كعابى » على الأقدام ·· لابد انها جائعة ·· ليلة كساد هذه ·· الصوت يرن فى السكون ·· ضحكة حريمى ناعمة ·· اثنان رجالى ·· أقبل أربعة شبان ·· أموت فى الهوى ·· والنبى طعم ·· وتوقف حارس اليمين ·· يا أفندية عيب ·· حـد كلمك ·· مش أصـــول ·· حيث كدة ·· وخلع أحدهم حزام البنطلون الجلدى ·· تأزم الأمر ·· تجمع الناس ·· توقفت سيارة مرسيدس بيضاء الجسر ·· ارتفعت الأصوات ·· صاح العسكرى وهو على طرف الجسر ·· ها ·· ها ·· تفرق الناس ·· وتحركت المرسيدس البيضاء ·· وتابعت سيرى ولكن على الجانب الآخر ·· هكذا نحن ··

لكمة قوية ·· كم قطعت من المسافة ؟ بضعة أمتار ·· والليل يزداد سكونا ووحشة ·· المهم ·· ما هو أقرب طريق الى السيدة زينب ·· الطـريق الذى يسير فيه الاتوبيس ممل وطويل ·· هـــذا الشارع الذى يشق حى المنيل يوصلك الى كوبرى القصر العينى ·· سيجارة جديدة ·· يدى فى جيبى ·· خطواتى القصيرة تمزق السكون ·· فى هذه العمارة حجرة فيها ضوء أحمر ·· أهو اعلان يا أولاد الكلب ·· على فكرة ما لزوم اللمبة الحمراء ·· لن



تدخل بيتى مطلقا .. عندما يكون لى بيت .. كلام فارغ .. ناس غاوية فضايح .. صوت .. جغرافيا .. تلميذ يستذكر دروسه .. أين هو ؟؟ النوافذ مغلقة .. ماعدا النافذة الحمراء .. انه هناك .. تحت عامود النور .. هتف عندما رآنى .. أو بالأصح عندما رأى السيجارة معلقة بين شفتى :

- تسمح .. تولعلى ..

سيجارة من علبة ممتلئة .. انه يشعل السيجارة وعينه على أعلى .. النافذة الحمراء .. همس لى :

- شايف ..

أشار لى نحو النافذة واستطرد :

- عروسة جديدة .. لكن بنت - مص شفتيه - وأكمل ، آخر حلاوة .. وجوزها راجل زى الحروف

قلت مازحا وأنا أنصرف :

- شد حيلك .. ذاكر .

ومشيت وأنا أسمع .. أول من اكتشف أمريكا هو كولومبس .. ضحكت .. دربكة عربة كارو .. صوّت « شخللة » أجراس الحصان .. ونظرت خلفى .. محملة بأجولة وزكائب .. فرجت .. سيجارة للعربجى وما أحمل من نقود .. وأجلس على جوال أو زكيبة أدخن بمزاج فرقع السوط فى الهواء .. أعوذ بالله عربجى يبدو عليه انه تخلص من آدميته .. لم أفتح فمى .. فقط خطواتى بدأت تتسع .. لم فى الشارع أحد .. صمت .. ضوء مصابيح .. ظل أشجار .. ماذا يحدث لو أطبق عليك أحدهم .. أحدهم .. من ؟؟ لص .. ها .. ماذا سيأخذ .. الخوف .. كل الخوف .. واحد عسكرى سيقول .. من أنت ؟ بطاقتك ؟ وأين هى .. لم تحملها قط .. انها هناك ملقاة فى كومة من الكتب القديمة وروايات الجيب القديمة .. قسم الشرطة .. ليلة مع النشالين والمتسولين والعاهرات حتى يأتى الصباح ويأتى معه من يقول .. أمر مؤسف .. انه فلان الموظف بوزارة كذا .. و .. و . أمر مخيف ولكن لا تخف .. ما رأيك فى صاحب النافذة الحمراء ؟؟ ماذا كان يفعل فى هذا الضوء .. ياسلام ..آه لو تقابلك امرأة .. امرأة فى هذا الوقت للايجار .. لك وللآخرين .. لمن يدفع .. وكم ستدفع .. خمسة تعريفة .. ضحكت على عبطتى .

آه .. صفعة .. الثانية .. الثالثة .. الرابعة .. على البيت يا أولاد الكلب .. العسكرى .. أعوذ بالله .. انهم أطفال نائمون فى دائرة من الحشيش الأخضر .. بصراحة .. دق قلبى .. خفت .. أسرعت فى سيرى وأنا أتوقع أن يصيح بصوته الخشن .. استنى عندك ياجدع انت .. وتقع الواقعة .. ولكن ربنا سلم .. وها هو شارع القصر العينى .. ضوء أحمر يطل من مؤخرة السيارات.. ملاكى .. أجرة .. لاشك أن حذائى ستحتاج الى نصف نعل .. فجأة .. وقفت بجوارى سيارة :

- مساء الخير ..

رجل أصفر .. حليق الشارب .. شكله يوحى بأشياء وأشياء .

- مساء النور ..

- اركب أوصلك ..

- أشكرك ..

وتابعت سيرى .. وسيارته تزحف بجوارى .. سأضربه .. ولكن هل هو سالب أم موجب . ولو. فى كلتا الحالتين يستحق الضرب .. قلت له :

- سأكسر ضلوعك ..

قال :

- أحب القوة .

اذن فهو سالب .. ورفعت يدى وهممت بلكمة .. لكمة قوية كلكمة البطل.. ولكنه مرق بالسيارة .. ابن الكلب له عـربه .. لعله قادم من بلاد الانجليز .. هيه دنيا ..

تاكسى .. تاكسى .. خمسة رجال وسادسهم سكران طينه أمام بار النجمة .. وقفت .. الرجل السادس فى حالة صعب .. يسب .. يلعن .. يغنى .. يصرخ .. سائقو العربات لا يقفون .. تعرض الخمسة لتاكسى وأوقفوه .

- وصل البيه الى البيت .

- آسف .. أنا ناقص بلاوى على آخر الليل .

- يا حمار انت عارف مين ده ..

- ان شاء الله ياكون وزير .. أهه حتة واحد سكران .

قال أحدهم مهددا .

- يعنى مش عاوز توصله ؟

ـ الأمر لله .. هتدفعوا كام ؟؟

ـ حسب العداد .

ـ عداد .. لا أنا أوصله كده مقاولة .. دا من زباين المقاولة .

ـ عاوز كام .

ـ العنوان .

ـ ٦ شارع عزيز .

ـ خمسين قرش .

ـ خـذ .

ها هم الكبار .. ربما رئيس قسم فى مؤسسة .. تابعت سيرى ولم أكن وحدى هذه المرة كان يسير بجوارى ماسح أحذية يحمل صندوقه الخشبى.

ميدان السيدة .. الامان .. الميدان لم يهدأ بعد .. هو فى طريق الهدوء .. محلات الفول والطعمية ينظفها العمال .. باعة الفاكهة نائمون على الأرصفة .. العسكرى يتحرك ببطء .. صوت يأتى من بعيد .. عند المسجد .. انت مجيرى يا نبى .. الله الله .. انت مغيثى يا نبى .. حى .. حى .. حول الضريح كانوا بكثرة .. رجال ونساء نائمون ..

شخير أنفاس تتصاعد .. وسبعة مستيقظون أربعة فى حلقة ذكر وثلاثة ينشدون .. المئذنة تشق السماء .. النجوم ساطعة .. والكون .. الله .. أسلاك الترام .. اعلان عن فيلم .. أعوذ بالله .. كانت لكمة بارعة .. أرضية الشـارع .. تابعت سيرى .. أنا عملاق .. عملاق ضخم .. أسـير وحدى وخطواتى ترن .. ترن .. أنا أسير .. فى فمى سيجارة ..

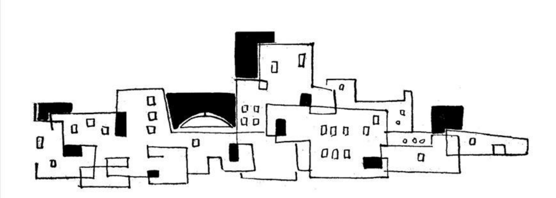
دلفت الى حارة السادات .. فى آخرها البيت العتيق .. وفى البيت العتيق حجرة واحدة وصالة .. وأثاث يخصنى .. سوف أنام .. ما هذا .. الحارة غارقة بماء المجارى .. ما العمل .. لا أجد .. خلعت الحذاء والجورب .. مشيت .. فى الليل من يرى .. ؟؟ خطواتى ترن على السلم .. سمعت :

ـ دى موش عيشة دا جحيم .

ـ انت حره .. اعملى اللى انت عاوزاه .

ـ طلقنى .

سعلت عمدا .. أنا آمرهم بأن يناموا .. فتحت شقتى الصغيرة .. رأيت مجموعة من الصراصير .. خلعت ثيابى .. أذن الفجر .. أذن الفجر .





بقلم : الدكتورة فاطمة موسى

مازال موضوع الموظف الصغير يشغل بال كتاب القصة عندنا منذ خرج الرعيل الأول منهم من كم معطف جوجول على حد تعبير استاذنا الدكتور حسين فوزى ، براتبه الذى يتبخر فى الأيام الأولى من الشهر ، وآماله العريضة التى لا تتناسب وامكانياته المحدودة ، وتأنقه بما لا يطابق واقعة الفقير نموذج صوره عديد من كتاب الرواية وخلده نجيب محفوظ فى ذلك الجمع من صغار الموظفين الذى تحفل به قصصه فى مرحلة المتوسطة ؛ حسين وحسنين فى بداية ونهاية ومحجوب عبد الدايم فى القاهرة الجديدة وغيرهم كثيرون • الا ان مثل هذا « البطل مازال قرة عين كتاب القصة القصيرة وخاصة من الشباب ـ وقد يتخذ احيانا سمة الطالب الغريب النازح من قرية يعيش فى جنيهات قليلة وسط مدينة غنية زاخرة بالمغريات ـ وقد تختلف نظرة الكاتب الى هذا البطل من تقمص صريح لشخصيته وتحمل لعبء متاعبه على تفاهتها ، الى رثاء له او سخرية طفيفة من ضيق افقه وانحياسه فى دائرة ذاته ـ (وهذا نادر ومرتبط غالبا بنضج الكاتب وقدرته على فرض مسافة كافية بينه وبين موضوع قصة) الا انهم جميعا يرونه جديرا بالاحتفال ، ويتوسمون فى شخصه وفى تجاربه ـ على فقرها ـ مادة غنية بالامكانيات الفنية •

وقد اختار كاتب القصة التى بين ايدينا « لقطة » بارعة فى حياة هذا الشاب الموظف مغامرة فى آخر ليلة فى الشهر وهى تمثل فى حياته قرار هوة الاحباط التى يتردى فيها بعد فوات الايام الاولى من الشهر ، بينما الغد المرتقب هو قمة آماله ، ومعقد احلامه « بذلة كاملة وتليفون لسناء وجلسة فى كازينو النهر » وهو حلم على تواضعه بعيد المنال قليل التحقيق ، فكما ان اول الشهر آت لا ريب فيه فآخره يتبع اوله بنفس الرتابة والنظام •

وتجربة البطل فى هذه الليلة تؤكد تلك الخصائص التى قدمنا ذكرها : وحدته وغربته والتناقض الصارخ بين مظهره المتانق وحقيقة امكانياته (قميص لينوه وارد من الخارج ، وجيب مفلس ليس به الا خمسة قروش تعريفة وخمس سجائر فرط) •

ورحلة فى آخر الليل ليست مجرد « مشوار » من الجيزة الى السيدة زينب مشيا على الأقدام لأنه لا يجد أتوبيسا ولا يملك اجرة تاكسى ، ولكنها رحلة من دنيا الأحلام التى يعيش فيها الملايين عالم السينما حيث كل شىء رائع باهر ، والبطل قوى ممتاز ، والبطلة رقيقة تنتظر نتيجة المعركة فى قلق (صدرها يعلو ويهبط)، والخير ينتصر ابدا والقصة تنتهى بقبلة طويلة رائعة الى حارة الساداث حيث ماء المجارى يغمر الأرض والبطل يضطر الى خلع حذائه وجوربه والخوض فى الماء حافيا ، وزوجان يتشاجران بعد منتصف الليل شجارا روتينيا وجموع الصراصير فى الشقة الصغيرة المتربة •

والرحلة بهذا المعنى نموذج مصغر لنمط حياة هذا الشاب فى تارجحها بين قطبى الحلم والواقع والظاهر والباطن

على ان مايعيب القصة خلوها من الحركة progression

بالرغم من براعة « اللقطة » فهى تنتهى من حيث بدات ، فلم يطرا على البطل تغير يذكر ، ولم يخرج من رحلته بجديد فى نفسه ، وقد يقع له نفس الحادث غدا او بعد عام ويسير فى نفس الطريق ويفكر فى نفس الأشياء ولا فرق بينه واليوم والغد •

وليس هذا عيبا فى حد ذاته لو ان الكاتب قد جعل بيننا وبين البطل من المسافة ، ما يسمح بان نراه فى ابعاده ، ونتامله ككل ، ونفهم من تجربته ما لا يفهم هو فيشرق ذهننا بمعنى للقصة يخرج بها عن مجرد حادث مزيف وقع لموظف مفلس فى آخر الشهر •



صاحب جلالة

بقلم :
محمد الخضري عبد الحميد

— مساء الخير يازوجتي العجوز الكسول .. !
— ما ... آه ! .. أنت ، أخيرا ! ..
— ماذا ؟! .. ولكنني قلت ، بكل تواضع ، :مساء الخير ! .. ردي التحية السامية أيتها العبوس ..!
— يسعد صباحك ، ان كنت تريد الرد الأصح، فالليل كله مضى ونحن الآن في غد ...!
— آه ، فقط ؟! .. فقط !.. هيه !.. لا بأس .. فانك بالطبع لا تعرفين .. ! .. لا بأس !
— لا عرف ماذا ؟!
— لا لا .. لا شيء !.. لا يستحق بوزك هذا الملتوي أن أقول في حضرته الكئيبة شيئا سارا ! ..
لا شيء ياحيزبوني العزيزة .. !
— قلت لك يارجل ألف مرة أن تكف عن هذا النهيق !..
ومع ذلك فالدنيا ليل .. وصاحبة البيت نائمة .. فاخفض من صوتك والا سمعتك .. وأنت أدرى بما سوف تفعله فيك لو أنها سمعت نعيبك..!
— آه .. ادرى طبعا ! .. سوف تشتمني ، وتعير بأنني « زبالة » ! .. وأنني « خيخة » ! .. وأنني « كهنة » ! .. وأنني كل مالا أدرى من اين تأتي به تلك الشيطانة الثرثارة من مقام هذه الاوصاف ! .. وستزعق في وجهي طالبة «الريال!» أجرة الشهر الماضي ، وسوف لا تتورع عن تنفيذ وعيدها المأثور اذا احتدم الجدل فتقذف بما لنا من « كراكيب ! » في عرض الزقاق ! .. أعرف كل هذا ، وأدريه ، يازوجتي البلهاء ، العبيطة ! .. ولكن .. ولكنه لا يهمني ! .. فاهمه ؟! .. سامعه ؟! .. لا يهمني شيء ! .. ولا أي شيء ! .. قومي وتقبلي من يدي بشائر الخيرات .. !!
— هات . ماذا ؟! .. أرغفة سخنة ؟! .. و .. ما هذا الآخر ؟! .. باذنجان مقلي ! .. سخن أيضا ! .. الله ! .. و .. أواه ! ..
وطعمية أيضا ! .. سخنة كذلك ! .. حلو ، حلو ! .. عشاء كله ساخن ، فاخر .. !
من أين كل هذا يارجلي المهدم الفلبان ؟!
— اخرسي !.. الفلبان هو أنت !.. هاها !.. نائمة على حصيرتك وملفوفة في « أطلال ! » لحافك والدنيا هناك يا .. ياغلبانة .. الدنيا باسمة مضيئة ، مشحونة بالحرارة والبريق والحياة !.. هاها ! .. غلبانه طبعا !..طبعا غلبانه!.. الله ؟؟
لاولية ارفعي قليلا شريط اللمبة !.. لنا ساعة نتكلم والجحر معتم كالقبر ! .. ارفعي الشريط ليغمرنا الضياء ، فاني مشتاق الى وجهك العكر !..
هاها !.. خذي أيضا !.. جئت معي كذلك بالشاي والسكر !.. الله ! .. الله !.. هكذا أحسن ! بديع !.. أنظري !.. نور باهر !.. أضواء ! .. أضواء ! .. أضواء !.. ما أجمل الاضواء !.. الآن أستطيع أن أستجلي طلعة محياك القمطرير !! .. قربي هذه « الطبلية » الآن وهيا : بسم الله ... !
— كل أنت أولا بالهنا والشفا ، واتركني أنا أعمل الشاي .. اليوم سأل عليك الاسطى عزوز ! .. هل معك عود كبريت ؟!
— خذي .. علبة كبريت بحالها ! .. سد بلادها !.. و .. ماذا كان يريد ؟! .. سي عزوز؟! ..ناوليني كوز الماء .. !
— خذ .. وجدلك شغلة جديدة ! .. مهنة مليحة !.. هنيئا .. !
— ووه !.. ما هذه العواطف ياعروسي الشنيعة ؟! .. اسمعي آخر كلام .. اذا شربت فلا تقولي لي : (هنيئا) ! .. فاذا قلتيها فلا تتوقعي ابدا أن أقول لك : (هناكم الله) !! .. ما علينا.. ثم ان الاسطى عزوز هذا نذير نحس ! .. «وش فقر » ! .. لن أشتغل أي شغلة يختارها لي ! .. سئمت أشغاله الحقيرة ! .. النمرود ! .. يريد فقط أن أستطيع سداد دينه المزمن ! .. الجنيه « الأزلي ! » الذي يدينني به ! .. عليه اللعنة !.. شهامة مأمونة ..!!
— عيب يارجل ! .. ماذا جرى لك الليلة ؟!.. لست على بعضك ..!
— بالضبط ! .. عليك نور ! .. لا لا ! .. النور على أنا ! .. أجل .. فانا مسرور ! .. نشوان !.. بالاختصار : منسجم ! آخر انسجام ! .. ارفعي المائدة !.. سفرة دايما .. !!
— يارجل كل ! . .ماذا ؟! .. رغيف واحد ؟!
— من السعادة ! .. فرحان ! .. نشوان قلت لك ! .. لا باكل كثيرا كل سعيد ! .. الله ! .. كلمة جميلة ! .. حكمة خالدة ! .. أشعر بانني قادر على أن أقول كلاما جميلا ! . سأكون شاعرا باذن واحد أحد !! .. ارفعي شريط اللمبة ! .. ارفعي ! .. نور ! .. أضواء .. !
— ما الحكاية الليلة ؟! .. نور ، أضواء ! .. ما هي الا لمبة غاز نمرة ٥ !! .. ماذا تظنها ؟! .. «نجفة» بالكهارب ؟
— الكهارب !! . ما أحلى أنوار الكهارب وما أروعها ! .. آ .. هل .. احم احم .. هل وقفت مرة — يازوجتي العمشاء ! — على خشبة مسرح ؟!
— يامصيبتي !.. ماذا جرى لمخك الليلة ؟! .. شربت شيئا ولابد .. !!

— بالتأكيد ! .. هاتى الشاى هاتى ! .. شربت الليلة مشروبا مسكرا لذيذا أسمه .. اسمه .

— « السبرتو ! » طبعا !! سمعت انه يبرجل العقول .. !!

— اخرسى ياحقيرة ! .. « السبيرتو » مشروب الصياع ! .. هذا اسمه ال .. آ .. الشهرة !.. النجاح .. !

— ياحلاوة! .. عملوا له « ماركة » جديدة !.. لكن « الصنف ! » هو بعينه !!

— قلت لك اخرسى ، ياجاهلة !! .. المجد والشهرة على خشبة المسرح ياغبية ! .. لقد .. لقد أصبحت ملكا !!

— قم نم ! ... نم الهى يهديك ..!!

— أنا أصبحت ملكا ياولية انت ! .. سامعة ؟! .. ملكا .. ولى : حاجب ، ووزراء أربعة ، وسياف !.. مصدقة ؟!

— سامعة جدا ! . مصدقة تماما ! . مبروك !.. قم نم حلفتك بالنبى !.. مصيبة ياربى ! .. مصيبة جامدة ... !!

— مصيبة على دماغك يا عجوز الشؤم ! .. أنا ملك ! .. اسمعينى ! .. ملك ! .. والله العظيم ملك ! .. صاحب جلالة !.. لى طيلسان من الجوخ ، ولى عمامة ضخمة مرصعة بالدر والياقوت، وكرسى للعرش مطرز بالحرير ومطعم بالعاج ومموه بالقصب المذهب ، وخلفى وصيفان يحملان مروحتين من ريش النعام .. وعلى باب قصرى حاجب يلبس الحرير .. وعن يمينى وشمالى وزرائى الاربعة ، على مقاعد وثيرة منخفضة ! .. وفى آخر القاعة سياف مهيب ينتظر منى اشارة واحدة بسيطة ليقطع رقبة من أشاء .. !

— يالهوتى !! .. ياداهيتى السودا !! .. بسم الله الرحمن الرحيم على !.. اسم النبى حارسنى!.. لطفك يارب ! .. ألطف ياكريم ! .. ارحمنا يا ... آخ ؟!! .. يادماغى ؟!! .. تضربنى يارجل يامجنون على دماغى ؟! .. تكسر نافوخى ؟!!

— واكسر ضلوعك !.. ولو « السياف ! » هنا كنت أمرته بقطع عنقك !! .. تظنيننى مجنونا ؟!. أنا مجنون ياوجه الغراب ؟ .. ما أنا الا انسان سعيد ! .. هذا كل ما فى الأمر ! .. خلاص ! .. ذهبت بلا رجعة أيام الزبالة ! .. لن أشتغل زبالا ؟ .. لن أكنس دكان الحاج عطيه الحلاق ؟ .. ولن أقف ثانية على موقف الاتوبيس أحمل أمتعة الركاب ! .. ولن أكتب كشوف الرواتب والزمامات فى مخبز المقدس ينى ! .. كلها أعمال حقيرة فى نظرى ! .. لم أكن أشعر بالرضا والحياة فى أى منه على وجه العموم ! .. شكرا لله ، فقد أصبحت أخيرا والحمد لله ..

— عارفة ، عارفة !! .. ولكن كل هذه الاعمال تركتها أنت وحدك ! .. لا أحد منهم أبدا ضايقك فى شىء ، أو أساء اليك بحرف !.. بالعكس .. كلهم — الله يسترهم — كانوا يعطفون عليك .. كانوا يعلمون أنك كهل طيب كطفل ، متعلم نوعا ! ومسكين ! .. ولكنك كالقط العجوز النافر !! .. ماذا ؟! .. الا تنوى أن تخلع هدومك وتنام ؟!.. اننا فى الفجر الآن !!

— تمام ! .. اننا فى الفجر الآن !.. فعلا فى الفجر ! .. أخيرا وبعد طول العذاب أشرق الفجر ! .. لا أريد أن أنام ! .. ظللت طول السكة أتلكأ ، وادندن ، هامسا لأمواج النهر ، مناجيا نجوم السماء .. لن أنام الان .. أمامى النهار بطوله ، فدعينى اذن أشرح لعقلك الضيق «الخردة» حقيقة الموضوع !! .. الموضوع أننى أصبحت ملكا ! .. هه .. أكمل ؟!.. عندك أى مانع ؟!

— أبدا يارجلى أبدا !!.. ملك ملك! .. أنا سامعة ! .. « واخده بالى » ! ..

قلت : ملك ! .. ملك طبعا ! .. سيد الملوك !.. كمل ، كمل ... !!

— آه ياناري !! .. ولكن نظرات عيونك هذه التى يلزمها حربة تندب فيها .. آخ ! .. لكن .. لكن ولا يهمنى ! .. هه ! .. ماذا كنت أقول ؟ .. آه ! .. أصبحت ملكا ! .. صاحب جلالة ! .. أدخل متبخترا مختالا كالطاووس المنفوخ ، فيصطف الجند، ويتخشب الحرس ، ويدوى النفير ، ويركع الحاجب، وينهض الوزراء !! .. تصورى .. أربعة وزراء يقفون خافضى العمائم ، ولا يمكن — تصورى معى ياولية ! — لا يمكن اطلاقا أن يجلسوا على مقاعدهم « الواطئة » ما لم أجلس أنا أولا على عرشى العالى ... !!

— هه هه .. استمر .. وبعدها ؟!

— ثم بعد ذلك يدخل الحاجب منحنيا يستأذننى فى السماح بدخول رسول « ولاية السمندل » .. فـ ... فأسمح ! .. وعندئذ يدخل على ذلك الرسول بورقة أنظر فيها بكبرياء واعتداد ، ثم أقول بأعلى صوتى : « اذهب ياهذا فقل للمليك اننا مصممون على القتال الى النهاية ، وأن شعبى المؤمن بحقه

يتحدى كل عدتكم الباطلة)!! ·· ثم أخرج ، وأسلم الورقة للوزراء ، وأتركهم خلفي يكملون دورهم ..!

ــ وبعد هذا ؟!

ــ بعد هذا يناولني صاحب الفرقة من وراء ما يسمونه (الكواليس) ٢٥ قرشـــا !!! .. ربع جنيه !.. ورقا أو فضة ! .. رضا .. !!

ــ ومبسوط أنت على هذا .. !!

ــ جدا طبعا !! .. اللهم دمها نعمة ، واحفظها من الزوال .. !!

ــ لــكن أنا عندى خبر يفرحك أكثر من هذه المساخر ! .. الاسطى عزوز ..

ــ اخص ··· !!!

ــ اسمعني للآخر ! .. جاءك مرتين .. وأكد على مرات ، وبشــدة ، أن أبشرك بأنه حجز لك شغلة « كاتب أنفار » فى عمارات الحاج ابو الفتوح مقاول المباني ··

ــ يستحيل ·· !

ــ انتظر للنهاية ، وشـــغل مخك ! .. أجرة الشغلة (٣٥ قرشا) فى اليوم !

ــ ٣٥ قرشا ؟!

ــ نعم ! يعنى نصــف جنيه لا ينقص الا ١٥

ــ ولو ... !!

ــ عجيبة !.. «٣٥» يارجل .. من «٢٥» ؟! .. احسبها تجد لك زيادة «١٠» قروش !.. نصف ريال زيادة ! .. يعنى ثمن أربع أقات عيش ..!!

ــ حيوانة ! ·· « معدة ! » مركب لهـــا أرجل وآذان وعيون ! .. بهيمة !

ــ يارجل قصر لسانك أحسن لك ! .. كفاية كلام مجانين ! .. ترفض شغلة ثابتة ، عليها القيمة بـ «٣٥» .. وتشتغل شغلة ملاحيس ومجانين .. بـ « ٢٥ » ؟!!!

ــ مزاجي ·· !

ــ عكر .. !!

ــ اخرسى ...!

ــ لن أخرس ! .. أنت عجزت وبدأت تخرف!.. وهل تتحمل أنت يارجلى « المسلوع ! » النحيف البارز العظام : سهر الليالى حتى الفجر

.. وهناك عمل ينتظرك .. عمل أسهل ... بأجر أكبر ؟!!

ــ على كل حال ياولية .. على كل حال .. ما .. مم .. ما هذا ؟! .. خبط على الباب !! .. فى هذا الوقت المبكر جدا ؟! .. من ذا الذى يجرؤ .. و ... ؟

ــ لابد أنه الاسطى عزوز ! .. كان قد .. ولكنى سأفتح الباب لنرى .. هه .. آه ! .. أهلا !.. أهلا بالاسطى عزوز .. تفضل .. أدخل ..

ــ صـــباح الخير ياجماعة ·· كنت أحسبكم فى سابع نومة ! .. أستاذ بهلول .. لك عندى خبر !. انما مدهش ! .. أنا قلت أحسن فكرة أفوت قبلما أروح أصلى الفجر فى الزاوية .. قلت ألحقك قبلما تزوغ .. أنت طبعا تســمع عن مقاول العمارات الكبير .. الحاج ابو الفتوح .. تصور ···

ــ اسمع يا أسطى ! .. لا أتصور ، ولن أتصور، ولا أريد أن أتصور شيئا .. !

ــ يعنى ... ؟؟؟

ــ يعنى : لن أشتغل : (كاتب أنفار) !!

ــ اذن ... هه .. لكن ...

ــ .. والجنيه الأبدى الذى تديننا به ، سأدفعه لك فى بحر أسبوعين .. سأوفر من عظمى ، ومن لحمى .. لكننى لن أكون : كاتب أنفار ! .. قد تنطبق السماء على الارض .. جائز جدا ! .. لكن غير الجائز اطلاقا أن أصبح أنا .. أنا .. أنا صاحب الـ ... صاحب الـ ...

ــ « صاحب الـ ··· ايه ؟!! »

ــ « قولى له يازوجتى انا صـــاحب ··· ايه ! »

ــ « يقول أنه صاحب جلالة يا أسطى ... عقبال عندك » !!

ــ جلالة ؟!! .. لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !.. أستاذ بهلول ! .. انت .. انت بخير ؟!

ــ جدا !.. اطمئن من هذه الناحية !.. اعتبرنى أصح من فيل ! .. وأقوى من حصان .. !!

ــ اليومية « ٣٥ » قرشـا يا أستاذ بهلول ؟

ــ يفتح الله ! .. ولو كانت «٣٥ جنيها»! .. تفضل الآن فالمؤذن ينادى للصلاة ! .. كل ما أرجوه اليك أن تقرأ الفاتحة ، من قلب خالص ، أن يطيل الله عرض مسرحية « ملك السمندل » !!

ــ أستاذ بهلول !! .. انت .. انت .. ؟!

ــ بخير ! .. بخير جدا وحياتك ! .. صدقنى !. فقط لى رجاء آخر قبل أن تذهب للصلاة .. وقبل أن تعود هذه الولية الى النقيق ! .. وقبل أن يتمدد جلالتى تحت « اللحــاف » ! .. ليكن فى علمك أنت وهذه السلحفاة السليطة .. أنه ممنوع عليكما ، منعا باتا ، قاطعا ، مفاتحتى فى شأن أية شغلة مهما كان أجرها ! .. أظن مفهوم ؟! .. أظن واضح ، وصريح ؟! .. اذن .. اذن اسدلى ياولية « اللحاف ! » على هذا « المشــهد » ·· و .. واصبحوا على خير .. يا .. يا ·· يا رعايا .. !!



بقلم : محمود تيمور

هذه القصة القصيرة نموذج واضح للطور الذى انتهى اليه حتى اليوم كاتبنا الأديب العصـــامى الريفى « محمـد الخضرى عبد الحميد » · وقد عرفته منذ عهد ، وقرأت له أوائل ماكتب ، وظللت ارقبه عن كثب ، وكنت أتوقع له ان يمعن فى السير ، وان يوغل فى الدرب ، وان يجنى الأدب من جهاده ونتاجه ثمارا طيبات · وما زلت ارجو له اطراد التقدم ، وانتظر منه المزيد ·

قصته هذه « صاحب جلالة » فيها من العناصر مايجعلها لونا أدبيا قوميا يجدر بالتقدير ، ولكنها مع ذلك تحمل من الخصائص مايصلها بالقصص الفنى فى مستوى حقيق بالاشادة والتنويه ·

مساق القصة حوارى محض ، فقد استطاع الكاتب ان يملك زمام نفسه ، ويمسك عليه لسانه ، فلم يفصل بين المتحاورين فى القصة بكلمة منه ، سواء أكانت اخبارا او وصفا او تعقيبا ··· وبهذا التجرد للحوار ، وخلاء الجو للمتحاورين ، كنا أمام الشخصيات وجها لوجه ، نسمع منهم ونتلقى عنهم ، دون وسيط ·

فاما الحوار نفسه ، الفاظه وعباراته ، روحه ومدلولاته ، فقد نقل الينا انفاس البيئة التى تعيش فيها شخصيات القصـة ، انفاسها الحارة الجياشة دون تكلف أو افتعال ··· والكاتب فى صدق تقمصه للشخصية لم يقصر فى تنويع الحوار اسلوبا وطعما بتنوع المتحاورين ··· وقد جرى معظم الحوار بين الرجل وزوجته ، فتجلى الفارق بين الشخصيتين بما تضمنه الحوار بينهما من افكار ونزعات ، وبما طوى من تيارات نفسية أصيلة ·

والقارىء يشعر بأن الكاتب موصول ببيئته أوثق الاتصال ، بل مشدود اليها لا يكاد يملك منها فكاكا ، ومن ثم كانت اخيلته وتصوراته ، مرآة لواقعه ومشهوده ، ومن مزاجهما يجرى قلمه بما يجرى من وصف وتصوير وتعبير ·

واذا نصبنا للقصة ميزان العمل الفنى وجدناها ترجع بما لمست من غريزة آدمية مكينة ، ونزعات بشرية قوية ، هى غريزة الامرة ونزعة السلطان ··· تتشكل أشكالا ، وتختلف مظاهر ، ولكنها هى هى — فى الطفل الغرير ، والفتى اليافع ، والشاب المتطلع ، والرجل المكتمل ، وهى هى فى الذكر والأنثى ، فى الضعيف والقوى ، فى الواجد والمحروم ، فى الماضى والحاضر ، وما احسب المستقبل خالصا منها ··· وهى هى ، مبعث خير وشر على سواء ، وهى هى فضيلة ورذيلة معا ، وهى هى سمو واسفاف ، ونور ونار ، وهدى وضلال !

ومعالجة الكاتب لهذه الغريزة او النزعة فى صورة الرجل الذى آثر وهم السلطة ، واستعاض به عن وفرة المال ، على الرغم من الحاجة اليه ، تنم عن بصيرة بما يتطلبه التكوين الفنى من مقتضيات فى التصوير والأداء ··· ومع ذلك فقد كان مفتتح القصة ومسارها وختامها مراحل دقيقة صحيحة يانس القارىء بها ، ويفطن الناقد الى براعتها ·

واخيرا ، فقد اضفت « الفكاهة » الخفيفة المتلبسة بنسيج الحوار كله ، على القصة خلابة وطرافة ··· كما اوحى الينا صدق التعبير عن الشخصيات عطفا على « صاحب جلالة » آسـكره وهم السلطان !





فى كلية الآداب جامعة القاهرة ــ نوقشت الرسالة المقدمة من السيد/**محمد رشدى حسن** المعيد بكلية الآداب جامعة القاهرة فرع الخرطوم ، لنيل درجة الدكتوراه فى الأدب العربى ٠٠ وقد أشرف على الرسالة الدكتور **خليل عساكر** عميد كلية الآداب فرع الخرطوم ٠٠ وقد اختار موضوعا لرسالته « تطور فن المقامة العربية » وفى الوقت الذى اعتاد فيه النقاد والأدباء تقسيم الكلام العربى الى ثلاثة أقسام : **القرآن الكريم** وهو قمة الاعجاز ، **والشعر** وله موسيقاه وأوزانه والنثر وله أساليبه الخاصة ٠٠ نجد الأستاذ رشدى يضيف قسما رابعا الى أقسام الكلام العربى ٠ الا وهو **فن المقامة** التى نشأت على يد **بديع الزمان الهمذانى** فى القرن الرابع الهجرى ٠٠ وحجته فى ذلك أن فن المقامة يجمع بين محاسن الشعر فى مخاطبته للوجدان وفى طرق مختلف أغراضه ٠٠ وبين محاسن النثر الفنى فى مخاطبته للعقل وفى طرق مختلف أغراضه ، كما أنه يتميز بميزات أخرى ليست فى النثر أو الشعر تظهر فى الأطار الخاص المتمثل فى « الرواية والبطل » والأسلوب المنمق ، والهدى القصصى البديع والرمز ، والمقامة كأنها حياة متحركة معبرة فيها الطبيعة والانسان والزمان والمكان، ثم هو يعتقد أيضا أنها أصل ألوان الأدب النثرى الحديث ولاننسى أن المستشرق الانجليزى هـ.ر.جب فى مقالته عن الأدب بين بما لا يدع مجالا للشك أثر المقامة فى الأدبين الأسبانى والايطالى على السواء وقد انعكس هذا التأثير على الآداب الأوروبية الأخرى فى العصور الوسطى ٠٠ وقد اتصل الباحث بالمقامة العربية منذ رسالته للماجستير وموضوعها أثر المقامة العربية فى نشأة القصة المصرية الحديثة منذ عشر سنوات ٠٠ وهكذا اتبع نهجا محدودا فى البحث الجامعى اذ جعل رسالته للدكتوراه امتدادا لرسالة الماجستير ٠

وقد اتبع الباحث فى دراسته المنهج التاريخى ٠٠ وقد رأى أن هذا هو أسلم منهج يمكنه من دراسة فن المقامة العربية موضوعا ونظاما وشكلا عبر أحد عشر قرنا ٠٠ ولعل خير ما يمكن أن نخرج به من نتائج هذا المنهج ٠٠ هو أنه اتصل فى رسالته بحوالى سبعمائة مقامة لخمسين مؤلفا ، ومنها مئتان لعشرين مؤلفا لم تطبع بعد موزعة بين دارالكتب ومكتبة الجامع الأزهر ومكتبة جامعة القاهرة ، ومعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، بالقاهرة ،

ومكتبة البلدية بالاسكندرية ومكتبة سوهاج ، ومكتبة برلين ، ومن خلال دراسته بين الى أى مدى كانت المقامة تعبيرا عن احساسات جماعية وارهاصا فى كثير من العصور لثورات اجتماعية وفكرية فى حياة الشعوب العربية ٠

وقد جعل بواكير المقامة العربية فى القرن الثالث الهجرى ، فعند ابن قتيبة نجد أن المفرد للمقامات عنده هو المقام لا المقامة ، والمقام عنده عظة متوسطة الطول ، تقال فجاة بأسلوب بليغ وهذه المقامات الوعظية لها امتدادات فى مقامات من أتى بعده واتجه اتجاها وعظيا ٠

وقد بحث عن أصل « الكدية » وهى حرفة السائل الملح التى تعد موضوعا أساسيا للمقامة فتوصل الى أنها وجدت أول ما وجدت عند أربعة هم الجاحظ والبيهقى والأحنف العكبرى ، وابى دلف الخزرجى ٠

أما بديع الزمان الهمذانى (القرن الرابع) فيذكر الباحث انه قد ألف معظم مقاماته فى نيسابور التى وفد اليها سنة ٣٨٢ هـ تقريبا ٠

وقد رجع سيادته ان عدد مقاماته هو اثنتان وخمسون مقامة وهى التى وصلت الينا حتى الآن وليس اربعمائة كما يفخر بذلك الهمذانى كما ان عيسى بن هشام الراوية وأبا الفتح الاسكندرى البطل هما شخصيتان رمزيتان تكلم على لسانهما الهمذانى مبينا آراءه فى المجتمع والحياة ٠٠ والموضوع الاساسى فى المقامة هو «الكدية» ومعناه كاصطلاح أدبى أن يستخدم البطل فى المقامة علمه وأدبه وذلات لسانه فى كسب عيشه مع استخدام الحيلة فى بعض الاحيان ، وأول لون من ألوان التطور عند الهمذانى هو الواقعية المعبر عنها بأسلوب الرمز والبديع ، كما أبطل الاسناد المطول وهو يشكل البطل حسب الحادثة التى تدور حوله فتغيير المناظر يستدعى تغيير أسلوب الكلام ، مما جعل المناظر المقاميه عنده تقترب من المناظر التمثيلية ، ولا ينقصها الا بعض الظلال ٠

أما ابن شرف الاندلسى وهو رائد المقامة الاولى فى الاندلس ، فقد تميز على الهمذانى بايفاء الغرض الذى طرقه حقه من التوضيح ، وتميز ابن «تاقما» بأن بطل مقاماته واحد ، كما تأثر بالفلسفه اليونانية ٠

ومزج الغزالى فى «مقامات العلماء بين يدى الخلفاء والامراء » بين العلم والفلسفة والتصوف ولم يقصد الى الوعظ مباشرة ٠

ويمتاز القرن السادس الهجرى بوجود الحريرى ومقاماته الخمسين ، وبطل مقامات الحريرى أكثر حنكة ودراية ووقارا من بطل الهمذانى ، الذى كان أكثر فتوة وشبابا وحركة ، والفرق بطبيعة الحال بين البطلين راجع الى عمرى مخترعيهما ، فالحريرى حين ألف مقاماته كان عمره قد جاوز الخمسين ، بينما لم يتجاوز عمر الهمذانى الثلاثين ، وقد ابتدع الحريرى فى مقاماته غرضين جديدين لم يظهرا فى مقامات الهمذانى وهما أولا : ماأسماه الباحث بالشعوذة اللفظية مثل وضعه جملا تقرأ من أولها كما تقرأ من آخرها ٠

ثانيا : النحو ٠٠

وكان راويته وبطله رمزين له ٠ والحريرى يبدو فى معظم مقاماته كآلة التصوير تلتقط الواقع كما هو ليستفيد منه القارىء فقهيا ولغويا ونحويا أكثر مما يستفيد وجدانيا ٠٠ وتغلب على أسلوبه الزركشة اللفظية والتعقيد ٠٠ واما الزمخشرى فقد نبذ التقاليد الموروثة عن الهمذانى فى مقاماته ، فهو لم يروها عن راوية ، كما ان مقاماته ليس بها بطل بالتتابع وليست فى مقامته أحداث ، وقد أكثر من استخدام البديع فى أسلوبه الجزل القوى ٠

وفى القرن السادس أيضا توجد المقامات

اللزومية للسرقسطى ، وهى خمسون مقامة مخطوطة وقد كان فيها اتباعيا يقلد الهمذانى والحريرى .

والقاضى حميدى أشهر كاتب مقامه من فارس وقد كتبها بالفارسية ، ومعظم من كتب المقامات فى اللغات الاجنبية ، تأثروا بالحريرى أكثر مما تأثروا بالهمذانى .

وقد ابتدع الاسوانى أسلوب المناظرة والجدل بين كثير من الشخصيات فى مقاماته .. أما مقامات الوهرانى المخطوطة ، وهو أول من استخدم أسلوب الاستدراج . فهو حين يهاجم خصمه لا يهاجمه بغتة وصراحة ، ولكنه يستدرجه ثم يقذف ويسب ويستخدم للفصل بين الاستدراج والهجوم كلمتين كحلقة وصل بين المعنيين هما (غير أن) أما ابن الجوزى فى مقاماته الخمسين فهو أول من شخص المجرد المعنوى ، فقد شخص العقل وسماه ، أبا التقويم وجعله البطل ، وقد سبق ابن الجوزى ديكارت الفيلسوف الفرنسى فى الاعتماد على العقل فى اثبات وجود الله ، وكما كان الوهرانى رائدا للمقامة المؤرخة ، كان ابن الجوزى رائدا للمقامة الصوفية الفلسفية - وكان عمليا الى أبعد الحدود فلم يرض للمتصوف أن يعتزل الناس أو يتواكل .

واستخدم الراوية والبطل مع كثرة تشخيصه للمجردات المعنوية واستخدامه للكلم الغربى واللفظ الشرود ، مع عناية خاصة بالتصوف والفلسفة .

أما ابن بسام الحنفى فقد ابتدع أسلوب الكاريكاتير أو فن تجسيم العيوب بكلام مضحك .

وقد ضمرت القصة فى القرن السادس الهجرى لأن الحريرى لم يكن فنانا أديبا بقدر ما كان لغويا ضليعا ، فلم يهتم بالفنية فى المقامة . وكان جل اهتمامه فيها متجها الى الصنعة وتبعه باقى المقاميين فى هذا البعد ..

ولم تحتل القصة عندهم مكانها المرموق ، واذا كانت هناك قصص فهى قصص الانبياء عند ابن الجوزى .

ومن القرن السابع الهجرى الى آخر القرن الثانى عشر نجد أن المقامات رديئة فى جملتها .. وأشهر المقاميين فى القرن السابع هم الشاب الظريف الذى بين فى مقامته الغزلية أنه يفهم المقامة على أنها الكلام الذى يقال فى المجالس ، وأما ابن الصقيل الجزرى فى مقاماته الخمسين فهو صورة مهزوزة لفظا ومعنى من مقامات الحريرى والكازرونى الذى أخذ عن الزمخشرى وابن الجوزى الناحية الوعظية، لكنه يجسم العبرة تجسيما ، لكى يصل بالقارىء الى موطن هز العاطفة .

أما مقاميو القرن الثامن فهم الجلال الصفدى وله ثلاثون مقامة مخطوطة ، نهج فيها نهجا جديدا غريبا اذ لم يكتف بالتعبير عن الموضوعات بالكلام فحسب، ولكنه وضح بالرسم الرائع أيضا ، أما ابن المعظم وهو المقامى الثانى فى هذا القرن ، وله اثنتا عشرة مقامة فقد طرق بعض الاغراض الفلسفية والعلمية ، والوردى ونهجه كان صوفيا ، وقد عرف القلقشندى وهو أشهر المقاميين فى هذا العصر المقامة بأنها (مدارها جميعها على حكاية تخرج الى مخلص) فكأنه يريد أن يقول : ان المقامة قصة قصيرة بها عقدة وبها حل لهذه العقدة ، وقد قلد القلقشندى فى الكواكب الدرية الحريرى فى مقامته الفراتية ، الا أن القلقشندى يوسع فى غرض المدح مما لم نجد مثله من قبل .

كما كان السيوطى فى القرن العاشر الهجرى صحفيا فى مقاماته العشرين ، فقد تحولت المقامة على يديه الى مقالة ، كما طرق كثيرا من الأغراض وتحدث على لسان ما ليس بعاقل وتبعه فى هذا الاتجاه الخفاجى .

وتعتبر المقامات الهندية (لباعبود) التى ظهرت فى القرن الثانى عشر الهجرى وهى خمسون مقامة أحسن المقامات التى كتبت فى العصر الوسيط .. وقد استحالت المقامة بين يديه الى قصة قصيرة فى أسلوب بسيط وتعبير سهل .

والمقامات فى العصر الحديث مرت فى ثلاث مراحل أولا : مقامات عاصر أصحابها الحملة الفرنسية ، وتتمثل فى مقامات «البربير» وهى مخطوطة ومقامات

المارستان للمهدى الحفناوى ، ولم يبق الا ترجمتها الفرنسية قام بها المستشرق ج.ج. مارسيل ومقامة العطار فى الفرنسيس

ثانيا : مقامات غير المصريين .. ومنها مقامات الأوهام الخمس لابن شميل اللبنانى وهى مقامات فلسفية ، يتحدث فيها مؤلفها عن الازل والوجود والفناء والروح والتناسخ .. والمقامات الستون لناصيف اليازجى الشامى فى مجمع البحرين ، وهى أحياء التراث المقامى القديم عند اليازجى فى هذه الصورة القوية ، خطوة موفقة لاعادة اللغة العربية الى سابق رونقها وقوتها وبلاغتها ، وأما الحضرمى الحبيب البركة ، فله مقامتان فى المدح بينما الحضرمى محمد بن خمس اليروانى له خمس مقامات كلاسيكية ..

ثالثا : مقامات المصريين ، وأولهم على مبارك فى مقاماته السبع المخطوطة تحت عنوان«سنوح الافكار» وهى خواطر أدبية فلسفية صوفية تبحث فى الانسان والكون والشيطان والعالم الاصغر والعالم الاكبر والكواكب المنظورة وغير المنظورة . وعبد الله فكرى فى « المقامات السنية » و « فى حسن الوفاء » و (مقامة العمال والبطال) . أما ابراهيم المويلحى فله حديث « موسى بن عصام » الذى يقلد فيه ابنه محمد المويلحى فى حديث عيسى بن هشام . ويتميز حديث موسى بن عصام بالجرأة فى مهاجمته للانجليز الذين كانوا يستعمرون البلاد آنذاك ، وهذه الشجاعة ميزت كتابة ابراهيم عن غيره وجعلت لها هذه السمات التى مكنت لرسالة الادب وجعلته سلاحا آخر من الاسلحة التى يستعين بها الوطنيون ، وقد تمسك فيها بالفصحى وشدد فيها على المظهريين والمتفقهين .

وأهم ما نخرج به من هذه الرسالة .. عن مستقبل فن المقامة فى أدبنا العربى :

أولا : عن مستقبلها يرى الباحث أنها تهدف اما الى التسلية والتعليم معا ، أو الى التعليم فحسب.. وللمقامة مدرستان من ناحية الموضوع والاغراض.. المدرسة الأولى مدرسة « الكدية » التى أنشأها الهمذانى ، وتقوقع فيها كثير من المقاميين فجاء فنهم المقامى جافا لا روح فيه .

والمدرسة الثانية هى مدرسة الأغراض الحرة ورائدها أيضا الهمذانى فهو فى كل مقاماته لم يطرق موضوع الكدية وحده وكذلك من تحرر مثله من المقاميين . وقد كانت مقاماته مملوءة بالفن والجمال والانطلاق .

والرسالة فى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وقد قسمها الباحث الى سبعة أبواب ومقدمة وملحق .

وقد كان أول الأساتذة المناقشين الدكتورة سهير القلماوى ، فأثنت على الجهد الكبير المبذول فى تحقيق ودراسة سبعمائة مقامة منها مائتا مقامة مخطوطة .. ولكنها اعترضت على المنهج التاريخى الذى اتبعه الباحث وكانت تفضل لو اختار المنهج الموضوعى

وقد رد الباحث بأنه اتبع المنهج الموضوعى لبعض الوقت ، ثم وجد أن المنهج التاريخى هو الذى يسد كل الثغرات ، خاصة وأنه لن يفلت منه اذ ذاك أى قرن .. واذا وجدت أية ثغرات بسيطة فقد تكفل الباب الاخير بسد هذه الثغرات .

واعترضت الدكتورة سهير على بعض التعبيرات التى وردت فى الرسالة مثل لفظ «الشعوذة اللفظية»

وقد رد الباحث بأنه لم يجد أنسب منها فى التعبير عما يقصده المؤلف وحده من تلاعب لفظى من مثل قوله « ساكب كاسى » تقرأ من أولها كآخرها ، ومثل « لم اخامل » .

ثم تحدث الدكتور عبد الحميد يونس ، فشارك الدكتورة سهير فى الثناء على البحث ، ثم سأله عن السبب الذى جعله لم يرجع بنشأة المقامة الى عصور ما قبل الاسلام .

وقد رد الباحث بقوله : ان المقامة لم تنشأ الا فى القرن الثالث الهجرى ، أما اذا كان هناك تشابه بين نثر العصر الجاهلى والمقامة فهذا التشابه يوجد فى السجع والمحسنات اللفظية فقط .

وسأله عن السبب فى تجاهل الحديث عن ابن دانيال فى القرن السابع الهجرى ، وهو أول من اخترع «خيال الظل» . وقد رد الباحث أن فى رأيه أن المقامة العربية هى أصل كل الالوان الادبية بما فيها خيال الظل .. وقد آثر الاشارة الى خيال الظل من الوجهة العامة خوفا من الاطالة .

وقد ذكر الدكتور عبد الحميد يونس محاولته مسرحة المقامة الموصلية للهمذانى وشكره على هذه المحاولة التى تبين أن بذرة المسرحية موجودة فى أدبنا المقامى من ألف سنة عند الهمذانى .

وأخيرا تحدث الدكتور خليل عساكر ، فأوصى الباحث بأن يهتم بالمقامات التى لا زالت مخطوطة ، وأن يثبت هذا التراث الضخم .. وقال : ان الباحث يكفيه فخرا أن نبه لهذا العمل الكبير ، كما أنه لم يترك مقامة الا وذكرها ، حتى المقامات المفقودة طالب بالبحث عنها ..

وقد نال الباحث على رسالته درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الثانية .



كتابنا .. والقصة القصيرة

لعل القصة القصيرة أن تكون أحدث الاشكال الادبية وأقصرها عمرا ، سواء فى الآداب الاوربية أم فى أدبنا العربى . وواضح أننا حين نقول القصة القصيرة فانما نقصد شكلا أدبيا مختلفا الى حد بعيد عن الحكاية الشعبية ، وان تأثر بها وصدر عنها .

بعض مؤرخى الآداب الاوربية يعتبرون الكاتب الايطالى جيوفانى بوكاتشيو أقدم من عالج القصة القصيرة ، أى أنهم يردون ظهورها الى القرن الرابع عشر ، فى حين أن غالبيتهم العظمى يعتبرون الكاتب الفرنسى جى دى موباسان (١٨٥٠ - ١٨٩٣) خالق القصة القصيرة فى شكلها الحديث .

وبعد موباسان لانكاد نجد كاتبا أوربيا كبيرا الا وشارك على نحو من الانحاء فى كتابة القصة القصيرة ، وعبر من خلالها عن اتجاهه الفنى وموقفه الفكرى . فالقصة القصيرة كانت دائما - ربما بحكم حجمها الصغير - من أكثر الاشكال الادبية طواعية ومرونة ، ومن ثم تعددت اتجاهاتها الفنية والفكرية خلال عمرها القصير ، بحيث أصبح من العسير وضع تعريف جامع مانع لها .

ومع ذلك فالاجماع منعقد على أن أقوى مدرستين عرفتهما القصة القصيرة هما مدرستا « موباسان » الفرنسى ، و « تشيخوف » الروسى .. الاولى تتميز بأحكام البناء والاهتمام بالحبكة والتشويق ، والخاتمة المفاجئة غير المتوقعة ، فى حين تتميز المدرسة الاخرى بتصوير الجو والاهتمام بالتفاصيل الانسانية الدقيقة تجمعها بمهارة خفية بحيث تحدث فى النهاية أقوى الاثر فى نفس القارىء ، وهى لذلك تعرف بمدرسة « فتات الحياة Silce of Life » ، أو « لحسة من الحياة » كما يجب أن يسميها الاستاذ توفيق الحكيم .

هاتان هما أشهر مدرستين فى عالم القصة القصيرة ، وقد كان من الطبيعى أن يتركا أثرهما الواضح فى انتاجنا القصصى العربى .

واذا كانت الرواية العربية قد بدأت «بزينب» لمحمد حسين هيكل عام ١٩١٤ ، فان القصة القصيرة بدأت فى نفس الوقت تقريبا على يد محمد تيمور ، وفى كلتا المحاولتين نلمح تأثرا واضحا بالادب الفرنسى ، فكلا الكاتبين درس فى فرنسا ، وعاش فيها سنوات غير قليلة ، واتصل بأدبها وثقافتها اتصالا قويا وثيقا ..

ونحن حين نقرر هذه الحقيقة لا نتنكر لما فى تراثنا العربى من تراث قصصى أصيل ، بل اننا لنضيف اليه ما فى تراثنا الفرعونى من نماذج قصصية اعترف مؤرخو الادب بقيمتها وأسبقيتها ، واستوحاها بعض كبار الادباء الاوربيين فى مؤلفات حديثة . كل ما فى الامر أننا نسمى الاشياء بأسمائها ، فما فى تراثنا من قصص انما يدخل فى باب الملاحم او الحكايات الشعبية ، ومن الظلم الشديد له ولأنفسنا أن نعتبره روايات أو قصصا قصيرا بالمفهوم الفنى الحديث الذى نقلناه بلا شك عن الادب الاوربى .

وليس فى تقرير هذه الحقيقة ما يسىء الينا أو يغض من قيمة أدبنا ، كما أنه لا يعنى أن أدبنا القصصى الحديث لم يتأثر بأية صورة من الصور

بتراثنا العربى القديم فى القصة ، فما أكثر ما اتجه هذا الادب الى استيحاء موضوعات التراث القصصى المتوارث ، وان احتفظ فى الاغلب بالاشكال الاوربية لفن القصة ، بل اننا نعتقد أن من الخير لادبنا أن يزداد اهتمامه باستيحاء التراث ، لان هذا الاستيحاء هو سبيله للتميز من ناحية الروح والموضوع ، فضلا عن أنه قد يساعد ، مع مرور الزمن وتزايد الخبرة ، على تميزه من ناحية الشكل الفنى وأسلوب العلاج كذلك .

***

بدأت القصة القصيرة فى أدبنا اذن بمحمد تيمور ونمت على أيدى أعضاء المدرسة الحديثة : محمود طاهر لاشين ، وحسين فوزى ، وأحمد خيرى سعيد، وابراهيم المصرى ، ومحمود تيمور ، ويحيى حقى ، ومحمود عزمى .. وغيرهم . وتتابع بعدهم الرواد والمسهمين ، كل جيل يسلم للآخر ، حتى جاء وقت احتلت فيه القصة القصيرة الواجهة الادبية فى صحافتنا ، وكان لكل فترة قصاصها المبرز الذى تتنافس الصحف على نشر انتاجه ، فبعد محمود تيمور ، جاء المازنى وتوفيق الحكيم ومحمود كامل ، ثم يوسف حلمى ، فيوسف جوهر ، فمحمود البدوى وصلاح ذهنى ، وابراهيم الوردانى ، وسعد مكاوى، ثم نجيب محفوظ ويوسف ادريس .. وما زال الاخيران يحتلان مكان الصدارة فى انتاجنا القصصى المعاصر : أولهما يتميز باحكام البناء الفنى وغلبة الطابع الفكرى على قصصه ، أما الآخر فهو أنبغ تلاميذ مدرسة « تشيخوف » فى أدبنا الحديث ، وان ظهرت عليه أخيرا أعراض اهتمامات فكرية واضحة فى مجموعته الاخيرة « لغة الآى آى » .

والى جوار نجيب محفوظ ويوسف ادريس مازال عديد من كبار قصاصينا يسهمون فى اثراء هذا الفن فى أدبنا ، كما ظهرت بعدهم أجيال عديدة من الكتاب الشبان يعالجون القصة القصيرة بأصالة وجرأة واقتدار فى مختلف الاتجاهات والمدارس .

***

واذا كان من المسلم به أن على الاديب الجاد أن يحاول استيعاب أهم التجارب السابقة والمعاصرة فى فنه فى كل الآداب الكبرى، فانه مطالب كذلك بأن يدرس بعناية أشد أهم المحاولات السابقة عليه فى أدب بلاده .. هذا اذا أراد أن يضيف شيئا ذا قيمة الى تراث الفن الذى يعالجه ..

وعلى النقاد ومؤرخى الادب مسئولية كبيرة فى الاخذ بيد الاديب فى هذا الاتجاه ، والا فسنظل ندور فى حلقة مفرغة نبدأ من حيث انتهينا ، ثم لنبدأ من جديد من نفس النقطة وهكذا .. و يعرف أدبنا طريق التطور الصاعد أبدا .

ولكى نتجنب ذلك لابد من محاولات كثيرة لدراسة فن القصة القصيرة فى أدبنا ، محاولة تضرب فى جذور الماضى كمحاولة « يحيى حقى » « فجر القصة المصرية » ، و «عباس خضر» فى كتابه الذى لم ينشر بعد ، ومحاولات أخرى تواكب الانسان المعاصر وتتابعه وتقيمه ، فما أكثر المجموعة القصصية الجيدة التى صدرت فى الفترة الاخيرة دون أن يتناولها ناقد واحد بالنقد أو التعريف ومحاولات ثالثة تعرف باتجاهات القصة القصيرة الخارج .

ومن خلال هذه المحاولات مجتمعة يمكن أن تتم ملامح فن القصة القصيرة فى أدبنا الحديث ، و أساسها يستطيع مؤرخ الادب أن يقوم بدوره هذا الميدان .

***

ومن الحق بعد ذلك أن كتاب القصة الشعرية يعانون اليوم من قلة الفرص المتاحة لهم انتاجهم ، بعد أن أعرضت معظم الصحف والمجلات عن نشر القصة ، واكتفى بعضها الآخر بنشر انتاج المشاهير من الكتاب ، ولكن ينبغى ألا يدفعنا حرص على الاستجابة لشكاوى الكتاب الجدد والانتصار لهم أن نتساهل فى مستوى ماننشره من انتاجها لاننا بذلك انما نسىء اليهم قبل أن نسىء الى مستوى القصة فى أدبنا ، ولست فى حاجة الى أن أعيد قصص المعاناة والكفاح والصبر الطويل التى نال من خلالها كبار كتابنا وكتاب الآداب العالمية ، مشهورة ومعروفة ، ولا سبيل الى النضج بدونها .

واذا كان من حق الجيل الجديد علينا أن نحى تجنيبه بعض ماعاناه جيل الرواد ومن تلاهم ، من حقه أيضا أن نطالبه بكثير من الجهد والتجويد أن تهيأت له من وسائل الدرس والتثقيف ما يتهيأ لسابقيه .

ومن الخير دائما أن نصارح كل كاتب بع ونواحى القصور فيه ، وأن نتطلب منه جدا أدنى الاجادة الفنية قبل أن نقدمه للقراء ، والا فسيختلط الحابل بالنابل ، ويرتدى الدعي ثوب الفنان وقل وقتئذ على القصة القصيرة العفاء .

فؤاد دوارة